الكسندر كرافتشوك

الموت الأرجواني

والقدرُ العظيمُ

رواية تاريخية



ترجمة :

د. كبرو لحدو

الموت الأرجواني

والقدرُ العظيمُ

RÒD KOSTANTYNA
ALEKSANDER KRAWCZUK

الموت الأرجواني والقـدر العظـيم

دار الكلمـــة للنشـــر والتوزيـــع
سورية، دمشق – ص ب : ٢٢٢٩
ها : ٢١٣٤٦٩٢ فا : ٢١٢٦٣٦٢٦

دار الحصاد: طباعة ــ نشر ــ توزيع
سورية ــ دمشق
ص ب: ٤٤٩٠ ــ ها ٢١٣٤٦٩٢
فاكس ٢١٢٦٣٢٦
E-mail: jameh@mail.sy
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

ألكسندر كرافتشوك

الموت الأرجواني

والقدر العظيم

ترجمة: د. بكر الحلو

رسالة تحت المعطف الأرجواني

تلقى قسطنطينوس نبأ مرض أبيه المباغت في وقت متأخر، وعلى الرغم من رحيله العاجل لدى استدعائه من سورية البعيدة، فقد وصل بعد فوات الأوان، ولمّا وطئت قدماه شواطئ البوسفور، كان الإمبراطور قد فارق الحياة منذ عشر وبضعة من الأيام. سُجِّيَ الجثمان الملفع بالمعطف الأرجواني، والمتوج بالتاج المرصع البديع، في أبهى قاعات القصر فوق نعش ذهبي، تحفّ به هالة من النور المتراقص المنبعث من آلاف المصابيح والشموع، وتناوبت على حراسته ثلّة من ضباط حرس الشرف بكامل العتاد العسكري والزي الرسمي، كما أحاطه كبار مسؤولي الإمبراطورية الرومانية بما استحقه من مظاهر التكريم والتبجيل مع الحفاظ على كل ما اقتضته قواعد البروتوكول في البلاط، تماما كما كانوا يفعلون يوم كان الإمبراطور على قيد الحياة. كما عبَّر سكان القسطنطينية ـــ هكذا كانت تدعى بيزنطة القديمة آنذاك ـــ عن تقديرهم العميق للرجل الذي لم يدَّخر جهداً في سبيل إعمار المدينة والإعلاء من شأنها لتصبح جديرة بمقر لإقامة الإمبراطور الذي منحها اسمه أيضاً. خلال الأشهر الثلاثة التالية تمَّت محاولة ترسيخ قناعة الناس بأن الإمبراطورية لا تزال تحكم بوحي من إرادة قسطنطين، لأن كافة الوثائق والمراسيم الصادرة عن مكاتب الإدارة الإمبراطورية ظلّت توقع باسمه.

اقترب قسطنطينوس من النعش باتضاع وتركيز جادّين، ودفعته محبة الابن لإزاحة المعطف الأرجواني بحذر شديد، وإلقاء نظرة أخيرة على جثمان الأب المكفن بالبياض ــ بذات الثوب الذي ارتداه قبل موته ببضعة أيام وهو يتقبل سرَّ المعمودية. وفي تلك اللحظة بالذات لاحظ أن يد الأب المنقبضة تمسك بورقة بردي اتخذت شكلاً أسطوانياً، فانتزعها بلطف ونشرها. ألقى نظرة سريعة على الكلمات التي خطّها قسطنطين بيد مرتعشة لحظة الشعور بدنو الأجل، معبراً بهذه الطريقة عن رغبته الأخيرة ووصيته الأكثر سرّية.

«أموت مسموماً من قبل اخوتي. ولذلك أختاركم أنتم وحدكم يا أبنائي ورثة للعرش. كما أتوسل إليكم وآمركم بأن تنتقموا بالشكل اللائق لقتلي بهذه الطريقة الخسيسة !».

قرأ قسطنطينوس الوثيقة بصمت، دون أن تفشي ملامح وجهه سر مضمونها. كان لا يزال فتياً لم يتجاوز العشرين من العمر بعد، لكنه تمالك نفسه على أكمل وجه. شارك بهدوء تام في مراسم الدفن الاحتفالية التي استمرت بضعة أيام أخرى وكأن شيئاً لم يكن.

هذا ما تقوله إحدى الروايات عن الرسالة الآتية من الجانب الآخر للحياة. وطبقاً لرواية أخرى، كان الأسقف يوسيبيوس مَنْ دسَّ الرسالة في يد قســطنطينوس، وهو من عمَّد الإمبراطور الذي استخدموا السمَّ لقتله، ثم دسَّها في يد المتوفى تحت المعطف الأرجواني.

راجت هذه الشائعات وغيرها بغتة في القسطنطينية في صيف عام ٣٣٧، تهامس الناس فيما بينهم حولها، ولكن بسرية مطلقة دوماً. نفى كثيرون صحة هذه الشائعات على الفور بشعور من الغيظ والامتعاض، واعتبروها مؤامرة تحاك بوقاحة لا تصدَّق من قبل أعداء الأسرة الحاكمة المتلهفين لإثارة أبناء المتوفى ضد أخوته، وقيل:

ـ رسالة من الجانب الآخر للحياة ؟ فكرة رائعة، لا بل تهز الإنسان في أعماقه، ولكن هذا يحدث في الحكايات التاريخية القديمة والساذجة. فمن يصدق اليوم خرافات كهذه في أزمنة الشك والنظرة الكَلبية للحياة ؟

الحقيقة أن آخرين لم ينكروا وجود الرسالة على النعش، لكنهم رأوا فيها مجرد مؤامرة إجرامية دنيئة: زوَّر أحدهم الرسالة ودسَّها في يد المتوفى تحت المعطف الأرجواني. بينما صمت آخرون بحذر وهم يتأملون في أعماقهم ما إذا كان الذين ينشرون هذه الشائعات سيظهرون من الشجاعة قدراً يكفي لتنفيذ مخططاتهم حتى النهاية.

لكن الكثيرين أقسموا على أن الرسالة خُطَّت فعلاً بيد قسطنطين. كان الذين صدقوا ـ أو على قدر من السذاجة ليصدقوا ـ الأخطر في واقع الأمر. فمن الصدف الغريبة أن معظمهم كانوا من الضباط الذين قاموا بحراسة القصر وشخص الحاكم. ضمت هذه الوحدات الأفضل بين العناصر المختارة، وحمل أفرادها مختلف الألقاب اعتماداً على مهام وتسليح التشكيلات. لكن ذكرى الإمبراطور الراحل الذي له كان يعود الفضل في كل ما تمتعوا به من مكاسب، ونعم، وامتيازات كانت عزيزة عليهم جميعاً. ولهذا السبب، وانطلاقاً من فهمهم للشرف العسكري، اعتبروا أنهم ملزمون بطاعة أبنائه وحدهم، وبالانتقام له.

الرسول الثالث عشر

استقر جثمان الإمبراطور في كنيسة القديسين. تحلق حول الناووس المنحوت من حجر البورفير الذي جيء به من مصر، اثنا عشر ناووساً آخر على هيئة قوس نصف دائري ـ ستة في أحد الجانبين، وستة في الجانب الآخر، كانت هذه بطبيعة الحال نواويس فارغة، قبور رمزية للرسل. اختار قسطنطين هذا المكان وهو على قيد الحياة. وتبدو الفكرة التي ألهمته جلية. اعتقد أنه مماثل لبناة الكنيسة هؤلاء، ولذلك رغب في أن يكرَّم معهم، لا بل قبلهم. بمنح نفسه مقام «الرسول الثالث عشر»، عبَّر الحاكم عن غطرسته المجنونة والساذجة معاً. كما تعذَّر مقاومة الانطباع بأنه بضم نفسه إلى البانثيون المسيحي، أراد المحافظة على استمرارية التقليد القديم لروما الوثنية في ثوب جديد؛ ذلك التقليد الذي اعترف للأباطرة بحق تلقي تكريم إلهي وهم على قيد الحياة، ورفعهم إلى مصاف الآلهة بعد الموت. وبكلام آخر: كان على معتنقي الديانة الجديدة تكريم قسطنطين على قدر المساواة مع الرسل، وعلى الوثنيين تكريمه كإله.

لا بد من الاعتراف بأن الإمبراطور استحق احتلال مكانة خاصة في صفوف صانعي عظمة الكنيسة. فقد كان أول حاكم لروما منح الديانة الجديدة الحرية التامة في ممارسة نشاطها. ومضى إلى أبعد من ذلك، إذ لجأ إلى أساليب شتى للحد من نشاط العبادات الوثنية، على الرغم من أنه لم يحظرها

أبداً بشكل كامل. لم يدخر جهداً لبناء دور للعبادة على قدر عال من الروعة والضخامة في روما، وأورشليم، والقسطنطينية، وإنطاكية. عامل كهنة المسيحية باحترام ملفت للنظر، ولم يقتصر على استشارتهم والأخذ بنصائحهم فيما يتعلق بالأمور الدينية وحدها. وبمبادرة منه انعقد المجمع الكنسي المسكوني الأول في المدينة الآسيوية الصغيرة نيقيا سنة ٣٢٥. افتتح الإمبراطور أعماله، وترأس بعض جلساته، ولعب دوراً في اتخاذ بعض مقرراته. أعلن على الملأ أنه أسقف جميع أولئك الذين لا يزالون خارج حظيرة الكنيسة. فهو نفسه، وكما جرت عليه العادة آنذاك، تريث في تقبل سر المعمودية حتى لحظة شعوره بدنو الأجل.

لا ريب في أن قسطنطين كان رجلاً مؤمناً وصادقاً في إيمانه، الحقيقة أن عملية اعتناقه للديانة الجديدة طال أمدها وامتدت لأعوام عدة؛ أما حكاية رؤيته المعجزية للمسيح وإيمانه به نتيجة لذلك، فقد ظهرت في مرحلة لاحقة. لكن الإيمان بتعاليم المخلِّص وبرسالة الكنيسة تداخل في قلب الإمبراطور مع اللعبة السياسية والصراع من أجل ترسيخ سلطته إلى حد تعذر معه الفصل بين هذين التيارين لمجرى مسيرة أفكاره وأعماله. فمارس نشاطه وهو على قناعة مطلقة بأن كل ما يقوم به له هدف نهائي واحد هو خير الكنيسة؛ وفي واقع الأمر فإن كل ما أنجزه عزز في الآن ذاته موقعه ونفوذه.

كانت فكرة قسطنطين بسيطة للغاية يمكن إيجازها بصيغة مختصرة على النحو التالي: «إمبراطورية واحدة، معتقد واحد، إمبراطور واحد». ولوضع هذا الشعار حيِّز التنفيذ، قام بحسم النزاع مع منافسيه الواحد بعد الآخر بقوة السلاح. وخلال الحروب التي استمرت دون انقطاع لما يقارب السبعة عشر عاماً قام بدعم المسيحية بصورة أكثر جرأة وعلنية يوماً بعد يوم، وفي المقابل أعانته بدورها أكثر فأكثر. كان للديانة الجديدة أن تمتِّن بنية الإمبراطورية على الصعيد الإيديولوجي. وفي المقابل طالبت بأن يحارب الإمبراطور العبادات الوثنية على اختلاف أنواعها، وأن يقف بالمرصاد لكافة محاولات النيل من وحدة الكنيسة.

بذل قسطنطين كل ما في وسعه لتحقيق هذين المطلبين اللذين انسجما مع طموحاته. كان الإمبراطور، شأنه في ذلك شأن معظم رجال السلطة في العصور القديمة وفي الأزمنة اللاحقة أيضاً، يشعر بإعجاب شديد بالصروح الضخمة والمنليثية، فأبدى لهفة للتكامل، والتوحيد، والضم، والتجانس ــ آملاً بذلك أنه في نهاية المطاف سيتمكن من تسيير مجمل الحياة الاجتماعية بنفحة روح إرادته. ربما لم يكن له أن يدرك ــ حتى لو حاول أحدهم أن يوضح له الأمر ــ أن جمال ومعنى الحياة يكمن في غناها، وتنوعها، وفي التناقض الظاهري لشتى أشكالها ومواضيعها؛ وعلى تطورها التلقائي والحر تماماً، وكأنه على نحو فوضوي ومتعدد المناحي، وأن نتيجة ذلك ليس التنوع فحسب، وإنما التطور العام أيضاً.

وها هو الإمبراطور تعتريه الدهشة وهو يرى أن جهوده الهادفة لتوحيد وتكامل الدولة والكنيسة تسفر عن نتائج غير متوقعة! ففي أحضان الديانة الجديدة بدأت تظهر تصدعات أعمق فأعمق على الصعيدين العقيدي والتنظيمي، أي الهرطقة والإنشقاقات. وهكذا حلَّت الكارثة بالشطر الثاني من مقولته «معتقد واحد» وهو لا يزال على قيد الحياة. أما الكارثة التي حلَّت بالشطر الثالث من مقولته «إمبراطور واحد» فقد أعدَّها العاهل بنفسه وهو يعي ذلك تماماً؛ لأنه حدد أكثر من وريث للعرش.

الــورثــــة

ترك قسطنطين الكبير ثلاثة أبناء وابنتين. كما كان له على قيد الحياة اثنان من الأخوة مع أسرهم. وهكذا لم يفتقر العرش إلى مطالبين به.

في الأعوام الأخيرة من حياته رغب الإمبراطور في منح أقرب أفراد أسرته الكبيرة امتيازات ضخمة رغبة منه في إخماد نار النزاعات على التركة. فمخططه الذي كشف النقاب عنه منذ سنة ٣٣٥، أي قبل سنتين من وفاته، تضمن بمعنى ما تقسيم الإمبراطورية، على الرغم من أنه على الصعيد الرسمي كان لها أن تبقى موحدة. وفيما يتعلق بأبنائه، كان المخطط على النحو التالي:

الابن الأكبر، قسطنطين الثاني، حصل على بريتونيا، وغالة، وإسبانيا. كما خطط له أيضاً أن يكون رأس الدولة ورمز وحدتها. استحق هذا الشرف نظراً لكونه الابن البكر، حيث ولد عام ٣١٦، وكان بعشر وبضعة من الأشهر أكبر من شقيقه الأوسط قسطنطينيوس الذي كان له أن يحكم الشرق برمته، أي مصر مع قورينيا، وسوريا وأسيا الصغرى، والقسطنطينية ـ المقر الإمبراطوري الجديد في أوروبا ـ، بالإضافة إلى أبرشية تراقيا التي شملت منطقة بلغاريا الحالية على وجه التقريب. وكان لأصغر الأخوة قسطنطس ذو الأعوام السبعة عشر أن يحكم إفريقيا الشمالية، والجزائر، وتونس، وبعدها

إيطاليا والبلدان الألبية، حتى الدانوب الأعلى؛ وأخيراً بعض أجزاء مقاطعة البلقان. وهكذا كان لقسطنطس أن يحكم كامل الجزء الأوســط من الإمبراطورية.

كما خصص الإمبراطور حصصاً كبيرة لاثنين من أبناء أخوته. فقد رغب في منح دلماسيوس بعض المقاطعات على الدانوب الأوسط والأدنى، أي جزء من دولة المجر الحالية ويوغسلافيا. كما منح هنيباليان البلاد الواقعة في شرق آسيا الصغرى والمجاورة لأرمينيا، ومنحه، إضافة لذلك، لقب «ملك الملوك»، وكان في ذلك إشارة إلى أنه عمًّا قريب سيطالب بعرش كامل أرمينيا، وربما فارس ــ وذلك اعتماداً على عظمة الإمبراطورية الرومانية وتلبية لمصالحها بطبيعة الحال. تزوج هنيباليان هذا من ابنة الإمبراطور الكبرى قسطنطينا.

حمل كل حكام المستقبل الخمسة هؤلاء لقب قيصر منذ ذلك الحين.

كان دلماسيوس وهنيباليان ابنا دلماسيوس الأكبر، شقيق الإمبراطور. وتشرَّف الأخ الثاني يوليوس قسطنطينيوس في ذلك العام بالذات ٣٣٥ بلقب القنصل و«أنبل النبلاء». لم يكن عبثاً ما قيل عن نفوذه الواسع. كانت له علاقات متينة مع أصحاب النفوذ، والأسر العريقة في إيطاليا بفضل زواجه الأول، ويعود الفضل إلى زواجه الثاني في إقامة علاقات مشابهة في الشرق الإغريقي..

بين أبناء الإمبراطور الثلاثة، الورثة الرئيسين، كان قسطنطين الثاني مقيماً منذ أربعة أعوام على ضفاف الراين وMozel . لم يغادر غالة حتى من أجل المشاركة في مراسم دفن أبيه. ويرجح أن الابن الأصغر قسطنطس كان مقيماً في إيطاليا، فلم يشارك بدوره في مراسم الدفن والحداد. وكان الابن الأوسط قسطنطينيوس وحده من وطئ شواطئ البوسفور في مطلع حزيران من عام ٣٣٧. وهو مَنْ نقل جثمان أبيه إلى كنيسة الرسل القديسين، حيث استقر في الناووس البورفيري إلى أبد الدهر. وهو من عثر على الرسالة في

يد أبيه أثناء إزاحة المعطف الأرجواني؛ هذا ما أكدته بإلحاح الشائعات التي سرت في المدينة. ولذلك يتحمل هو قبل غيرّه مسؤولية ما حدث فيما بعد على شواطئ البوسفور؛ أما المقدار الذي أذنب فيه، فليس في وسع أي من المعاصرين تحديده.

تنفيز الوصية

لم يسلم من المجزرة المنفذة في القصور على شواطئ البوسفور سوى صبيّين. لم يكن الأكبر بينهما، غالوس، قد تجاوز الثانية عشرة من العمر؛ والفضل في نجاته يعود إلى المرض العضال الذي عانى منه؛ اعتقد الجنود ـــ أو بالأحرى من أصدر لهم الأوامر ـــ بأنه لن يبرأ من مرضه وأن موته محتوم. والأحدث سناً يوليان الذي لم يكن قد بلغ السابعة بعد. ويرجح أن أحدهم قد قال: «سيمر وقت طويل قبل أن يشكل خطراً أثناء التفكير بما يجب أن يفعلوا به».

بينما قتل ـــ ربما كان أول ضحايا المجزرة ـــ والدهما يوليوس قسطنطينيوس. كما قتل شقيقهما الأكبر الذي نجهل اسمه. ثم قتل كل من دلماسيوس الأب والابن. وبعدهما هنيباليان مع عدد كبير من الشبان الذين ربطتهم علاقة قرابة وثيقة بأسرة الإمبراطور. ثم جاء دور كبار المسؤولين الذين تلهفوا آنذاك لأن يحلّوا محلهم.

نفذت هذه الاغتيالات السياسية باسم الوصية الأخيرة للمتوفى، والتي زعم العثور عليها تحت المعطف الأرجواني فوق النعش. تمّت المجزرة وفق مخطط دقيق على الرغم من التظاهر بأنها كانت من فعل

الوحدات المضطربة والغاضبة التي انتقمت للجريمة المرتكبة بحق قائدها. حظي الجنود الذين اقتحموا القصور والسيوف في أيديهم بدعم بضعة آلاف من رفاق السلاح. فعلى كامل رقعة الإمبراطورية، بطولها وعرضها، وفي كل المعسكرات والمواقع العسكرية عقدت اجتماعات الجنود؛ وقد أجمع المشاركون فيها على المطالبة بأن يحصر إرث قسطنطين الكبير بأبنائه وحدهم.

لكن رد فعل الجنود المزعوم ببعده وعنفه لم يقنع الرأي العام المعاصر. وغالباً ما قيل: أن الرجل الفعلي وراء الأحداث الدموية هو رجل واحد: قسطنطينيوس. والأسوأ من ذلك أنه لم يفعل شيئاً لإبعاد الشبهات عن نفسه. وإنما العكس، فقد كاد أن يوافق علانية على ما حدث، وذلك بالمصادرة الفورية لممتلكات الضحايا.

ربما سبق قسطنطينيوس منافسيه إلى الاستيلاء على السلطة، أي أقرباء والده وبعض أصحاب النفوذ؟ فما الذي يمكن أن يقال عن سلوك أبلابيوس ؟ كان مدير الإدارة المدنية في الشرق منذ عام ٣٢٩؛ تمتع بأهمية كبرى ونفوذ واسع مكناه في أيام قسطنطين الكبير من إعلان خطوبة أصغر أبناء الإمبراطور قسطنطين الكبير، قسطنطس على ابنته أولمبيا، كما كان له أن يرعى قسطنطس ويصبح مستشاراً له. تولى أبلابيوس هذه المناصب، وحمل تلك الألقاب، وامتلك ثروة هائلة بفضل مواهبه الموروثة وطاقته، وقدرته على استغلال كل فرصة للصعود نحو الأعلى؛ لقد انحدر من أسرة متواضعة، ولا ريب في أن هذا الرجل قد حلم في أعماقه وهو الذي لم يعرف لطموحه حدود، بأن يخطو خطوة أخرى نحو الأعلى، الخطوة الأخيرة ـــ ارتداء الأرجوان الإمبراطوري. وقد سادت قناعة تامة في أوساط المعاصرين بأنه سينجح في ذلك أيضاً.

وها هو قسطنطينيوس يضع بغتة نهاية لهذا المستقبل الرائع! ففور توليه السلطة، قام بعزل مدير الإدارة من منصبه وتعيين رجال آخرين يتعاونون معه. انتقل أبلابيوس آنذاك للإقامة في ممتلكاته في بيتينيا، أي على السواحل

الآسيوية، ولكن ليس بعيداً عن القسطنطينية. أقام هناك في قصره وسط مظاهر بذخ ملكي حقيقي، بعيداً عن الهموم والواجبات، ولكن دون أن يستنكف عن المشاركة في الحياة السياسية؛ كان واثقاً من أن اللحظة الملائمة قادمة لا محال..

لم يطل انتظاره. ففي أحد أيام صيف عام ٣٣٧ توقف أمام بوابة قصره الريفي فصيل من الحرس الإمبراطوري قدم من العاصمة مباشرة. انحنى الضباط الذين مثلوا بين يدي الحاكم، ثم قدموا له رسالة قسطنطينوس. تناول الرسالة وإمارات الغطرسة بادية على وجهه، كان واثقاً من أنه سيجد فيها دعوة للعودة على عجل لتولي منصبه السابق من جديد. ومع قراءة كل جملة جديدة راحت دلائل الفخر والفرح تشع من وجهه. جال بنظرات ملؤها الغطرسة في أرجاء القاعة ووجوه الحضور، وتساءل بصوت متسلط:

ـ أين الأرجوان ؟

تضمنت الرسالة فعلاً دعوة للمشاركة في الحكم، ووعداً بأن يتسلم المعطف الإمبراطوري الأرجواني ! لكن الضباط أجابوا بمزيد من الاحترام أنهم تلقوا أوامر بتسليم الرسالة فقط، أما الذين عليهم تنفيذ ما تبقى من مضمون الرسالة فينتظرون في الخارج خلف البوابة.

ـ أدخلوهم! ـ هتف أبلابيوس بشيء من نفاذ الصبر.

تقدم الفصيل المسلح وقد استل كل جندي سيفه. روى المؤلف القديم أحداث تلك اللحظة قائلاً: «جيء له بالموت الأرجواني. مزّق إلى أشلاء كحيوان الأضحية».

لجأ قسطنطينوس في هذه الحالة إلى الغدر لفضح ما اعتمل سراً في نفس أحد أوسع مسؤولي الإمبراطورية نفوذاً. فهل تعامل على نحو مماثل مع الآخرين؟ أكان ممكناً أن يتهمهم أيضاً بالطموح الزائد والتخطيط الخطر؟

ربما دفع قسطنطينوس إلى الخطأ بالمتآمرين المجرمين الراغبين في تصفية الحسابات مع أعدائهم في اللحظة الحرجة لانتقال السلطة؟ وربما تصرف تحت تأثير إلحاح شقيقيه الآخرين؟ فهو من أمر بعد سنوات بإشاعة هذه الرواية عن أحداث تلك المرحلة. كما برر نفسه بأنه كان مرغماً على الاستجابة لطلبات الجيش المهتاج والمتعطش لدماء القتلة المزعومين. بينما قال الناطقون الرسميون:

ـ لحماية الدولة من الكارثة المحققة وسط سيل الأحداث الجارف، وجد الإمبراطور نفسه مرغماً على الموقف الذي لم يكن أمامه أي مجال لتجنبه.

عبَّر موظف كبير في إدارة الإمبراطورية عن رأي مشابه فيما بعد، هو المؤرخ يوتروبيوس. كان يتذكر تلك الأيام على الرغم من أنه في سنة ٣٣٧ كان لا يزال حديث السن. دوَّن مؤلَفاً مختصراً عن تاريخ روما منذ تأسيس المدينة حتى الأعوام التي عاصرها، وحدد في مؤلَفه ذاك باقتضاب دور وذنب قسطنطينوس في تلك الأحداث المأساوية، ولكن بكلمات تدعو للتأمل: «لقد سمح بأكثر مما أمر».

يوجد أيضاً من أكد بأن قسطنطينوس هو من أنقذ غالوس ويوليان عندما اقتحم الجنود المسعورون قصر والدهما.

والدة يوليان

كان الطفلان اللذين نجيا من المجزرة ابنان لأب واحد هو يوليوس قسطنطينوس، لكنهما لم يكونا شقيقين. فوالدة الأكبر سنا بينهما، غالّا انحدرت من أسرة إيطالية عريقة، وهناك تزوجها يوليوس قسطنطينوس. ولد ابنهما سنة ٣٢٥ في إحدى الممتلكات الريفية في مكان ما من إتروريا؛ وقد سُمي غالوس تيمناً باسم أمه التي توفيت في تلك السنة أو السنة التي تلتها. انتقل الأرمل الغارق في الحزن إلى بلاد الإغريق. وأقام في كورنثوس لردح من الزمن، ثم انتقل ليستقر في المدينة التي بذل أخوه قسطنطين الكبير آنذاك قصارى جهده لإعمارها وتوسيعها، والتي منحها اسمه. وهناك تزوج ثانية. كانت الزوجة الجديدة تدعى بازيليا، أي الملكة. امتلكت أسرتها ممتلكات شاسعة في مقاطعات آسيا الصغرى والبلقان، وتولى والد بازيليا المدعو يوليان أرفع المناصب في الدولة؛ وقد منح الفتى الذي ولد في أواخر سنة ٣٣١ أو في ربيع ٣٣٢ اسمه.

توفيت بازيليا شأنها شأن غالّا بعد الولادة بفترة قصيرة، ويرجح أن يكون سبب الوفاة حمّى الولادة التي ظلت تحصد حتى أواخر القرن التاسع عشر أعداداً لا تحصى من النساء الفتيات. وهكذا فإن يوليان، شأنه شأن أخيه لم يكن يتذكر أمه. لكنه ظلّ يذكرها بمودة دوماً. وقد كتب بعد أعوام:

«ولدتني كطفلها الأول والأخير. توفيت بعد بضعة شهور. وهكذا أنقذتها العذراء غير المولودة من أم (الإلهة أثينا) من العديد من الكوارث».

احتفظ حتى أواخر أيامه بالمجوهرات التي كانت يوماً ملكاً خاصاً بها. لكن أثمن شيء تركته بازيليا في تركتها لابنها، كان معلمها المنزلي، ماردونيوس. فهذا العبد الخصي ــ شكّل الخصيان آنذاك جزءا من خدم أية أسرة ثرية ــ ذو الاسم الفارسي، والمعروف بالسكوذي، لأن موطنه الأصلي كان على شواطئ البحر الأسود، أثبت أنه هلنستي أفضل بكثير من بعض أولئك الذين ولدوا في أثينا نفسها؛ أحبَّ بصدق الأدب الإغريقي القديم واستطاع أن يدفع الآخرين لمحبته.

أحاط منزل والدة يوليان الأرستقراطي التقاليد الثقافية الوثنية القديمة بما تستحق من تقدير. ووالد بازيليا هو منْ لفت الأنظار إلى العبد الشاب، السكوذي المزعوم؛ اكتشف مواهبه وأمر بتعليمه، ليخدم فيما بعد كمعلم لابنته. تبدو هذه الحقيقة ملفتة للنظر، إذا علمنا أن الأسرة كانت قد اعتنقت الديانة الجديدة، أي المسيحية؛ والأهم من ذلك أن علاقة قرابة ربطتها بأحد ألمع أساقفة ذلك العصر، ألا وهو يوسيبيوس، راعي الجماعة في نيقوميديا.

كان يوسيبيوس شديد الحماس في تعاطفه مع آريوس وعقيدته التي نصَّت على أن يسوع ليس ابن الله، وإنما مخلوقاً خاصاً مساوياً له في الجوهر. أدينت هذه العقيدة في المجمع الكنسي المسكوني الأول الذي انعقد في نيقيا سنة ٣٢٥ بمبادرة من قسطنطين الكبير. التزم أسقف نيقوميديا بمقررات مجمع نيقيا على مضض، ولهذا السبب، وبناء على أوامر صادرة من الإمبراطور نفي لردح من الزمن. لكنه عاد بعد وقت قصير وراح يحظى بنفوذ اتسع يوماً بعد يوم في البلاط. وعلى يديه ــ أشير إلى ذلك من قبل ــ تقبل قسطنطين الكبير سرَّ المعمودية قبل أيام من رحيله في أيار سنة ٣٣٧.

لم يكن يوليان في تلك السنة قد بلغ السابعة من عمره بعد. فهل احتفظت ذاكرته بمشاهد ما من أحداث تلك الأيام المأساوية؟ أجل، لا ريب في ذلك.

فالطفل في مثل هذا العمر يبدأ بفهم العديد من الأمور، والصور المطبوعة في ذهنه لا تمحى. مما لا شكَّ فيه أن يوليان وأسرته كانوا مرغمين على الانحناء أمام جثمان الإمبراطور المسيحي المسجًّى فوق النعش الذهبي، والمدثر بالمعطف الأرجواني وسط عدد لا يحصى من المصابيح والشموع، وتحت حراسة الضباط بأسلحتهم البراقة. وفيما بعد جاءت في إحدى الليالي لحظة الرعب والهلع: طرق عنيف على البوابة، صليل الســلاح، صراخ، طلبات للنجدة، دم وأنين.

منذ تلك اللحظة بات الأخوان في عداد الأيتام. ربما أذِن لهما بالمشاركة في مراسم دفن والدهما، لكنهما لم يعودا قادرين على العودة إلى منزلهما؛ فقد صودر مع كامل ثروة يوليوس قسطنطينوس الهائلة.

أما رعاية الطفلين، وخاصة يوليان، فقد تولتها أسرة بازيليا والأسقف يوسيبيوس. فصِل الأخوان عن بعضهما: أرسِل غالوس إلى أفسس، ويوليان إلى نيقوميديا.

لقاء على ضفاف الدانوب

لم تحفظ كتب التاريخ مواعيد دقيقة لمجازر القصور في القسطنطينية، ولكن مما لا ريب فيه أنها لم تنفذ في يوم واحد أو ليلة واحدة، وإنما على نحو تدريجي، خلال بضعة أسابيع في صيف سنة ٣٣٧ على الأرجح. صعَّد هذا الاستمرار في تصفية الحسابات الدموية ـن حدَّة الرعب الذي أثارته الأحداث. لم يعد أي من أثرياء المدينة ومتنفذيها واثقاً من مصيره. فقد عاش المسؤولون إجمالاً، وخاصة أولئك الذين ربطتهم صلة قرابة ما ــ وإن كانت بعيدة ــ بالأسرة الحاكمة، حالة انتظار مفعمة بالقلق والرعب. فقد أمكن للجنود في أية لحظة طرق أبواب منازلهم بعنف واقتحامها.

منذ لحظة رحيل قسطنطين الكبير بدأ أبناؤه بالتفاوض والتشاور فيما بينهم. فلم يتوقف الرسل عن التنقل بين مقرات إقامتهم، لكن هذا الأسلوب لم يكن كافياً لإيضاح كل الأمور والاتفاق عليها. فلتحديد أولويات سياساتهم، وحدود سلطاتهم، كان لا بد من لقاء بينهم. تم هذا دون تأخير يذكر، وذلك في مطلع أيلول /الشهر التاسع/ من سنة ٣٢٧ على الأرجح. وعلى أي حال، في اليوم التاسع من أيلول، قام الأخوة الثلاثة الذين حمل كل منهم لقب قيصر منحه إيّاه والده في حينه، بمنح أنفسهم لقب «المهيب» أو «الجليل» August. وقد أقر مجلس الشيوخ هذا الأمر على الفور طبقاً للتقاليد السائدة.

تم اللقاء في إحدى مقاطعات بانونيا، أي في مكان ما على مجرى الدانوب الأوسط، فوق الأراضي اليوغسلافية أو النمساوية الحالية، لكن الموقع الدقيق بقي مجهولاً؛ ربما في سرميوم على ضفاف نهر سافا، إلى الغرب من بلغراد الحالية بعض الشيء، أو ربما في كارنونتوم إلى الشرق من فيينا قليلاً. وبقي سير المحادثات سراً مجهولاً، ولكن استناداً إلى بعض الإشارات المتحفظة والحذرة يمكن التوقع بأنها لم تتم بروح المحبة الأخوية. ولا ريب في أن موضوع الخلاف تمحور حول أسس التقسيم. ويقال أن الفضل في التوصل إلى اتفاق بينهم يعود إلى موقف قسطنطينيوس التوفيقي.

كان قسطنطين الثاني الأكبر سناً بين ثلاثي المهيبين الجدد الأول بينهم على الصعيد الرسمي، حيث اعتبر رمزاً لوحدة الإمبراطورية. وقد تمَّ العثور على مخطوط في قبرص يعود للأعوام ٣٣٧ ـ ٣٤٠ يلقب قسطنطين الثاني بلقب Maximus Triumphator Augustus ، بينما ارتضى شقيقاه لنفسيهما في المخطوط بلقب أكثر تواضعاً هو Victores Semper Augustus.

أسلفنا أن قسطنطين الثاني حكم كامل الغرب الواقع خلف جبال الألب، من بريتونيا حتى إسبانيا ضمناً. لكنه سرعان ما بدأ بالمطالبة بحقوق له في الجزء الأوسط من الإمبراطورية أيضاً، أي في نصيب قسطنطس، مانحاً نفسه حق الوصاية على الصبي الذي اعتبره عاجزاً عن الحكم المستقل بعد. وكان لهذه المطالبة أن تسفر عن نتائج في غاية الخطر في القريب العاجل..

احتفظ قسطنطينيوس بالشطر الشرقي؛ وفي أوروبا حكم طبقاً لرغبة ومخطط أبيه القسطنطينية وما عرف بمقاطعة تراقيا.

لم يأخذ التقسيم الجديد بعين الاعتبار ما تبقى من أفراد الأسرة الحاكمة، أي أخوة قسطنطين الكبير وأبنائهم. وهكذا أهملت كلياً وصية الإمبراطور المتوفى. لماذا؟ يمكن تفسير هذه الحقيقة بطريقتين: إما أن يكون جميع الورثة قد قتلوا قبل هذا الاجتماع، أو أنهم لم يدعوا للاجتماع، وفي المقررات النهائية وطئت حقوقهم بالأقدام. وإذا أخذنا بصحة المقولة الثانية، يمكن الافتراض بأن

أفراد الأسرة الحاكمة المهملين والذين لم تؤخذ حقوقهم بعين الاعتبار بدأوا بالمطالبة بها ــ ولهذا السبب صفّيت الحسابات معهم باستخدام سيوف الجنود.

وهكذا فإن اجتماع بانونيا ليس ذي جدوى لتحديد تاريخ الأحداث الدامية على شواطئ البوسفور بدقة. فمن الممكن أن تكون قد سبقت لقاء الأخوة، كما يمكن أن تكون نتيجة مباشرة للقاء، ولا يستبعد أن تكون قد اتخذت مجراها خلال المباحثات. يبدو الأول بين هذه الاحتمالات الأكثر ترجيحاً، فهو يفسر على أفضل وجه ضرورة عقد الاجتماع على وجه السرعة، وما أسفر عنه من خلافات في وجهات النظر. لا ريب في أن موضوع الخلاف تمحور حول الاستيلاء على نصيب دلماسيوس على ضفاف الدانوب، ونصيب هنيباليان في شرق آسيا الصغرى.

كان هذا اللقاء الأول بين أبناء قسطنطين الكبير منذ أعوام. وقدِّر له أن يكون الأخير أيضاً. إذ لم يقف الثلاثة جنباً إلى جنب ثانية وهم على قيد الحياة.

ولكن بعد اللقاء مباشرة، وعلى ضفاف الدانوب تحديداً، انحنى أمام قسطنطينيوس للمرة الأولى رجل، ظل يذكره باسمه باستمرار فيما بعد. كان هذا أثناسيوس أسقف الإسكندرية. لم يكن قادماً منْ ضفاف النيل آنذاك؛ جاء من بلاد بعيدة في الشمال، وجِد فيها رغماً عنه.

قضية أثناسيوس

منذ أواخر عام ٣٣٥ أقام أثناسيوس، الخصم العنيد لآريوس وعقيدته، في المنفى، وذلك في بلد شديد البعد عن موطنه، وعلى وجه التحديد في غالة. حدد قسطنطين الكبير مقر إقامته الجبرية في مدينة تريير Trewir على ضفاف نهر Mozel، التي كانت آنذاك عاصمة المقاطعات الواقعة خلف جبال الألب. ما الذي دفع الإمبراطور لصب جام غضبه عليه؟ أصرَّ أثناسيوس نفسه على أن خصومه من الأساقفة الموالين للآريوسية يتآمرون ضده، وردد على رأسهم اسم يوسيبيوس النيقوميدي. لكن قرار الإمبراطور كان له ما يبرره على الصعيد الكنسي؛ فقد استند إلى مقررات المجمع الكنسي المنعقد في صور Tyr، التي أدانت أثناسيوس بتهمة إثارة قلاقل في أوساط الجماعات المسيحية المصرية.

ظلّ راعي الإسكندرية مصراً دوماً على أن أساس الخلاف بينه وبين العديد من أساقفة الشرق، وخاصة السوريين، يكمن في القضايا العقائدية. فهو يدافع عن نقاء العقيدة دون وجل ويحرص عليها حرصه على بؤبؤ العين! وهو من يسهر على الفهم الصحيح لمقررات المجمع الكنسي المسكوني الذي انعقد في نيقيا! أما خصومه، فيضمرون الولاء لآراء آريوس الخاطئة، ولذلك فهم هراطقة ومجدفون. فما الغرابة إذن ــ هتف دوماً ــ في أن أولئك الملاعين يحاربون بأحطِّ الأساليب المدافع الذي لا يكلّ عن الأرثوذكسية؟

بينما رأى الخصوم في أثناسيوس رجلاً متغطرساً قبل أي شيء آخر. واتهموه بالرغبة في إخضاع كامل المجتمع المسيحي في مصر لإرادته، وهو يستغل الخلافات اللاهوتية الحقيقية أو المزعومة في تشويه سمعة الأفراد المستقلين وسحقهم، وذلك داخل مصر أو خارجها، دون أن يتوانى في اللجوء إلى القوة الغاشمة أيضاً. كما اتّهِم برفض مقررات المجامع الكنسية، والترفع على كافة الأساقفة، وبسط سلطته على ضفاف النيل وكأنه أحد فراعنة الأزمنة الغابرة.

وما أن وجِد أثناسيوس في تريير Trewir، توسل الجزء الأكبر من الجماعة في الإسكندرية عطف الإمبراطور لإعادته. وقد توسط للمنفي الراهب أنطونيوس أيضاً الذي عاش وسط صخور مصر العليا، والذي حظي منذ ذلك الحين بتكريم لا حدود له كرجل شديد الورع والقداسة. كان لهذا الدعم الذي حظي به أثناسيوس في مصر مبررات أعمق. فبالنسبة للسكان المحليين كان بمثابة رمز لتمايز البلاد ولمقاومة السلطة الرومانية؛ والفضل في تعلق الجماهير الواسعة من الناس به يعود إلى هذا الشيء وليس لرهافة الجوانب العقائدية.

بقي قسطنطين متشبثاً برأيه على الرغم من المحاولات العديدة الرامية لإقناعه بالعفو عن الأسقف المنسي. والأمر الذي عمّق نفوره من أثناسيوس دسائس الأساقفة المتعاطفين بهذا القدر أو ذاك من العلنية مع آريوس، وعلى رأسهم يوسيبيوس النيقوميدي. كانت النتيجة الوحيدة التي حققتها مساعي أصدقاء أثناسيوس هي عدم قيام الإمبراطور بتعيين خلف له في الكرسي الشاغر في تلك العاصمة الأسقفية.

توفي قسطنطين الكبير في اليوم الثاني والعشرين من أيار سنة ٣٣٧. أمكن لهذا النبأ أن يبلغ تريير في مطلع حزيران كحد أدنى. وفي اليوم السابع عشر من حزيران وجّه الابن الأكبر للإمبراطور المتوفى قسطنطين الثاني رسالة إلى مسيحيي الإسكندرية هذا نصها:

«أرسل أثناسيوس إلى غالة في حينه لسبب واحد فقط هو الخطر الذي شكله أعداؤه على حياته. فاستوجب الأمر حماية هذا الرأس المقدس من الخطر. لم ينقصه شيء وهو مقيم في مدينتنا، وعلى الرغم من ذلك فإن والدي كان راغباً في أن يعيد للأسقف أبرشيته القديمة، آخذاً بعين الاعتبار ورعكم المفعم بالولاء؛ لكنه توفي قبل أن يتمكن من تنفيذ ما كان قد قرره. ولذلك أرى أن من الواجب تحقيق رغبة المغفور له».

لا شك في أن كلتا المقولتين اللتين تضمنتهما هذه الرسالة تجانبان الحقيقة: السبب المزعوم في نفي أثناسيوس إلى تريير، والقرار المزعوم الذي اتخذه قسطنطين الكبير لإعادة المنفي إلى موطنه. فما هي الأسباب التي حذت بالحاكم الشاب لتوجيه رسالة على هذا القدر من الغرابة ــ وبهذا القدر من السرعة؟.

لا ريب في أن أثناسيوس حظي بعطف سيِّد الغرب. ومن المؤكد أن مكسيميان أسقف تريير لعب دوراً بالغ الأهمية في هذا الموضوع. فعلى عكس ما حدث في الشرق، حيث أبدت غالبية رجال سلك الكهنوت ميلاً نحو العقيدة الآريوسية، كان موقف أساقفة الغرب دون استثناء مع الفهم الدقيق لقانون الإيمان الذي صيغ في مجمع نيقيا. وقد نجم هذا إلى حد بعيد عن افتقار الغرب لأساس متين على الصعيد الفلسفي يسمح بتمييز الدقائق والتفاصيل المرهفة في التأملات والصيغ اللاهوتية؛ ناهيك عن أن اللغة اللاتينية الفقيرة بمفرداتها كانت عاجزة عن التعبير عن جميع ظلال المصطلحات الإغريقية. وهكذا تم الاكتفاء بالتكرار الأمين للحقائق التي أقرَّت، مع تحاشي الخوض في تفاصيل الشؤون الحساسة.

وهكذا يمكننا الافتراض دون وجل بأن قسطنطين الثاني ــ بعكس موقف والده ــ تعاطف مع أثناسيوس على الصعيد الديني. ولكن لا بد من وجود مبررات أخرى ذات طابع سياسي دفعته لاتخاذ قراره. فالملفت للنظر أن قسطنطين الثاني أطلق في تلك الفترة سراح مجموعة أخرى من الأساقفة الشرقيين المنفيين إلى مختلف المقاطعات. وكان بينهم بولس أسقف

القسطنطينية الذي نفي في حينه إلى بنطس في آسيا الصغرى. يبدو الهدف من عطف الحاكم في هذا الخصوص جلياً، وهو: خلق متاعب لأخيه قسطنطينوس. إذ من اليسر بمكان أن نتصور مقدار ما كانت ستثيره عودة المسؤولين الكنسيين من اضطرابات في الشرق، وخاصة إذا علمنا أنه في بعض الحالات كان خصومهم قد تولوا مناصبهم الشاغرة بسبب غيابهم. وكان لهذه النزاعات والاضطرابات أن تخدم مخططات قسطنطين الثاني اللاحقة، وهو الشاب الجريء والطموح على الرغم من أنه كان لا يزال مغموراً ظاهرياً.

عودة أثناسيوس

غادر أثناسيوس ترير عائداً إلى الشرق في صيف سنة ٣٣٧، ومن المرجح أنه كان ضمن حاشية قسطنطين الشاب الذي هرع للقاء أخويه في بانونيا. وبعد انتهاء المؤتمر الذي عقده الأخوة اضطر الأسقف لوداع الرجل المدافع عنه؛ وبعد أن تزود بالتوصيات الملائمة انتقل إلى محيط قسطنطينوس، حيث تقرر أن يخضع له منذ تلك اللحظة. وبما أن سيِّد الشرق تلهف للوصول إلى مقاطعاته بأسرع ما يمكن، فقد تمكنا من السفر معاً.

حصل أثناسيوس في بداية الرحلة على إذن بمقابلة الإمبراطور. تمَّ هذا في مدينة فيميناسيوم الواقعة على ضفاف نهر الدانوب، ولكن داخل حدود مقاطعة أخرى هي ميزيا العليا؛ واليوم تعرف هذه المدينة باسم كوستولاتس، وتقع في الأراضي اليوغسلافية على مقربة من بلغراد. وهناك بالذات تقابل وجهاً لوجه ــ ربما لأول مرَّة في حياتهما ــ الرجلان المتنفِّذان: حاكم شطر من الإمبراطورية، والمسؤول الكنسي الرفيع. قدِّر لهما أن يخوضا فيما بينهما عمَّا قريب معركة ضارية استمرت حتى موت أحدهما، أو لفترة أطول بمعنى ما. وفي فيميناسيوم، وكما هو متوقع، اتخذ كل منهما موقف الترقب. كانا سياسيين مرموقين، ولذلك ارتأيا بأنه من غير اللائق أن يعبرا بعنف ووضوح

عن الشكوك التي راودتهما، وعن النفور الذي شعر به الواحد منهما نحو الآخر. لا ريب في أن قسطنطينوس استقبل بفتور الأسقف الذي خلق الكثير من المتاعب للإمبراطور المتوفى، والذى سمع عنه الكثير من السلبيات عبر تقارير مستشاريه. أما أثناسيوس فلم يتمكن من أن يحني هامته بصدق وإخلاص أمام الرجل الذي تأثر بقوة بآراء يوسيبيوس النيقوميدي، نصير آريوس.

غادر أثناسيوس مدينة فيميناسيوم برفقة حاشية قسطنطينوس المتجهة نحو الحدود الشرقية على جناح الســرعة. ربما أقدم على هذه الخطوة طواعية، لأن الرحيل ضمن حاشية القيصر كان أسرع وأضمن لسلامته. ولكن لا يستبعد أيضاً أن يكون قسطنطينوس قد عبَّر عن رغبته في بقاء الأسقف إلى جانبه مرحلياً. فمن يدري إن لم يكن القيصر قد أراد كسب الوقت للتفكير بكيفية التعامل مع المنفي الأسبق. أيسمح له بالعودة إلى الإسكندرية ؟ الأمر الذي قد يؤدي إلى اندلاع المعارك هناك من جديد بين أنصاره وخصومه. أم يبقيه إلى جواره؟ أم ينقله إلى مكان آخر؟ الأمر الذي قد يؤدي إلى صدام بينه وبين قسطنطين الثاني.

وعلى أي حال، فإن الشيء الذي يدعو للتأمل هو عدم توجه أثناسيوس إلى مصر عبر الطريق الأقصر، أي بحراً، بل البقاء في حاشية القيصر والرحيل إلى قبدوقيا، أي إلى المناطق الشرقية من آسيا الصغرى، إلى تركيا الحالية. ربما تعمَّد أثناسيوس اختيار هذه الطريق الملتوية بهدف مساعدة الأساقفة المنفيين في العودة إلى عواصمهم الأسقفية القديمة واستعادة مناصبهم؟ هناك افتراضات تقول أنه ناصر بولس العائد إلى القسطنطينية، ومرسيلوس العائد إلى أنقرة .Ancyra

حظي أثناسيوس بشرف مقابلة القيصر للمرة الثانية في المدينة القبدوقية الرئيسة قيصرية، وكان هذا في مطلع تشرين الثاني /الشهر الحادي عشر/ من سنة ٣٣٧. توجه الأسقف بعدها إلى مصر عبر الأراضي السورية والفلسطينية. لا ريب في أن الحاكم قد حذّر أثناء المقابلة الأسقف الذي اشتهر

بعناده واستقلالية آرائه من افتعال مواجهة مع أفراد يشعر بانقباض منهم، لأن هذا قد يؤدي إلى قلاقل خطيرة لا تحمد عقباها.

دخل أثناسيوس الإسكندرية في أواخر تشرين الثاني. استقبلته جموع أنصاره كفاتح ظافر، معتبرة عودته بمثابة انتصار لمصر بشكل أو آخر. أما خصوم أثناسيوس ــ كانوا كثراً ــ فقد خمدوا؛ لكنهم ظلوا مترقبين لعلَّه يقدم على خطــوة خاطئة أو يتفوه بكلمة فيها من الجرأة أكثر مما يجب.

قضايا الشرق

بعودته المباشرة نحو الحدود الشرقية للدولة بعد إجراء المحادثات مع أخويه، تصرف كرجل متلهف لإطفاء حريق بات يلامس جدران منزله. كانت الأوضاع على ضفاف الفرات في غاية السوء. وهذه الكلمات التي كتبت بعد ما يقارب العشرين عاماً بعد ذلك الحين، أي في عام ٣٦٥ تعكس صورة الوضع بوضوح وهي تمجد قسطنطينيوس، حيث بقيت تلك الأيام حيَّة في الذاكرة بكل ما تضمنته من رعب. تجدر الإشارة إلى أن كاتب الكلمات هو يوليان؛ ذلك الفتى الذي لم يكن قد بلغ السابعة من العمر يوم أُنقِذ من المجزرة برفقة أخيه:

«عُهِد إليك بحكم ثلث الإمبراطورية وبدا أن قواك لن تلبي بأي شكل من الأشكال متطلبات الحرب. كان النقص واضحاً في العتاد والرجال. وافتقرت بشكل حاد لكل المستلزمات التي يجب أن تتدفق دون انقطاع أمام مثل ذلك الخطر! وعلى أي حال لم يسهل عليك أخواك إدارة العمليات. يصعب تحديد السبب الذي حذا بهما لاتخاذ موقف سلبي، ما دام أي دجال مهما كان غيوراً وصفيقاً مرغم على الاعتراف بأن الفضل في التفاهم الذي تم في بانونيا يعود لك.

«أشارت كل الدلائل إلى أن الحرب ستكون غاية في الخطورة. وفي أحضان الجيش استمرت واتسعت الاضطرابات التي أثارها تغير السلطة. عبَّر الجنود بصوت عظيم عن ولائهم للحاكم المتوفى، وطالبوا في الآن ذاته بأن تحكموا أنتم وحدكم ـ أبناءه.

«لاح عدد لا يحصى من القضايا المعقدة وغير العادية زاد الأفق القاتم قتامه. فبين الأرمن، حلفاءنا السابقين حدث انشقاق علني؛ ووقف قسم منهم لم يكن بالقليل إلى جانب الفرس؛ وأقلق العرب المجاورون لسوريا المناطق الحدودية بغزوات النهب والسلب. فكانت قيادتك الشخصية المنقذ الوحيد في تلك الأحوال؛ وهذا ما لم يكن ممكناً إلى حين لانشغالك بالمحادثات مع أخويك.

«وما أن أقنعتهما بضرورة التفاهم والتوصل إلى الاتفاق، أرغمك جلل اللحظة على الاهتمام بالخطر القائم على الحدود. يعجز الكلام عن وصف السرعة التي قدمت بها من بانونيا إلى سوريا. فشهود العيان وحدهم قادرون على تقييم ذلك. أيمكن لأحد أن يقدم وصفاً تاماً للأسلوب الذي أدى به قدومك إلى التبدل الفوري وتحسن مجمل الأحوال ؟ لم يقتصر الأمر على تحررنا من الرعب المسيطر علينا، بل لاح في الأفق أمل المستقبل المشرق. كان مجرد زفِّ بشرى اقترابك كافياً لتوقف القلاقل وعودة الانضباط إلى المعسكرات. أما الأرمن الذين كانوا قد انضموا إلى معسكر العدو، فقد أقفلوا عائدين إلينا».

أما في واقع الأمر ـ وعلى الرغم من جمال كلمات هذه الشهادة ـ فإن عودة قسطنطينيوس لم تحرر الحدود من الخطر الفارسي. فالحرب في الحقيقة كانت قد بدأت لتوّها. وكان لها أن تستمر مع انقطاعات قصيرة وحظوظ متبدلة لما يقارب الثلاثة عشر عاماً، أي حتى سنة ٣٥٠. وطيلة هذه الأعوام الثلاثة عشر، كان لقسطنطينيوس أن يصمد في سهول بلاد ما بين النهرين نصف الصحراوية، المحروقة بأشعة الشمس، وعلى هضابها؛ حيث أمضى فترات الشتاء وحدها في إنطاكية السورية.

قسطنطينيوس القائد

هكذا وقف سيِّد الشرق في الموقع الأصعب والأكثر خطورة؛ ففي تلك المرحلة لم تجد الإمبراطورية في أي مكان آخر نفسها مرغمة على مثل هذا الصراع العنيف مع العدو الخارجي. يجدر التذكير من جديد بأنه كان رجلاً حديث السن؛ ففي لحظة وفاة والده لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره. الحقيقة أنه مذ كان فتى يافعاً كان على احتكاك مباشر بقضايا الجيش والسياسة. فهو لم يكد أن يتم الثالثة عشر من عمره حين أرسله والده إلى تريير في غالة. ومن هناك سهر على حدود الراين المهددة بالخطر الجرماني. وضع بطبيعة الحال آنذاك تحت تصرفه ضباط وموظفون ذوي كفاءات وخبرات عالية، لكنه على الصعيد الرسمي كان هو المسؤول عن كل شيء. ترأس الاجتماعات، شارك في التدريب، والمناورات، والحملات التأديبية. مثَّل جلال الإمبراطورية. كانت هذه مدرسة رائعة لتعلم فن القيادة واكتساب الخبرات.

لكنه منذ عام ٣٣٣ وجد نفسه مرغماً على مغادرة غالة تلبية لرغبة والده. تلقى أمراً بالتوجه إلى الشرق، وأشرف على حراسة الحدود السورية. يبدو أن خبراته العسكرية حظيت بتقدير عال ما دام قد كلِّف هو وليس شقيقه الأكبر بالمهمة الأكثر مسؤولية وإلحاحاً آنذاك.

أجل، كان قسطنطينيوس جندياً بارعاً، مؤهلاً لذلك على الصعيد الجسماني أيضاً. قصير القامة، لكنه قوي ومتين البنية، مقاوم، لم يذكر أحد أنه مرض. التزم بنمط إسبارطي للحياة. حافظ على اعتدال شديد في تناول الطعام والشراب، وكذلك الأمر فيما يتعلق بملذات الفراش. كان نظيفاً، حليق الذقن دوماً، شديد الاهتمام بشعره الأسود الناعم المسرح بعناية. أحبَّ التدرب على استخدام السلاح؛ حقق نتائج باهرة في إطلاق النبال من القوس، كما برع في الفروسية. الحقيقة أن البعض أضافوا بمكر أن عينيه الجاحظتين بعض الشيء هما بمثابة عون كبير له أثناء الرماية، كما أن بنية الجسم، وخاصة الساقين ــ القصيرتين والمعوجتين بعض الشيء ــ مثالية لركوب الخيل.

لكن قسطنطينوس درس أيضاً شأنه شأن أخويه العلوم الإنسانية بعناية، حيث أشرف الأب شخصياً على اختيار المدرسين. اعتبرت البلاغة، أي فن الخطابة آنذاك أم المعارف، وقد بلغت درجة من البراعة الفائقة؛ فمن ناحية صيغت قوانين وأنماط دقيقة لمختلف الخطب الرسمية، ومن ناحية ثانية تمَّ التأكيد على براعة الأسلوب، وإتقان ِاختيار الألفاظ، والإشارة إلى الأدب الكلاسيكي. لا ريب في أنه من الصعب اليوم أن نفهم أن أجيالاً وعصوراً كاملة نظرت إلى أعمال مصطنعة إلى هذا الحد بذلك القدر من الإعجاب الصادق. كرست حشود من الشبان الموهوبين الأعوام الطويلة من حياتهم لدراسة البلاغة، وأقبلت بلهفة على مدارس أشهر المعلمين. ولكن لكل حقبة مجال نفاجي ما يصبح محط اهتمام فئات واسعة من الناس. فمن يعرف كيف سيقيم أحفادنا نتاج النقاد والروائيين الذي يحظى اليوم بقدر كبير من التقدير والإعجاب. من يعرف ما إذا كانوا سيقولون عنه بأنه بارد وسطحي، لا بل غير جدير بأن يقرأ، شأنه في ذلك شأن خطب أساتذة البلاغة القدماء. وكيف سينظرون إلى التعليلات العلمية التي يوردها بعض علماء علم الاجتماع؟ أولئك الذين يكتشفون «الحقائق الدامغة» ويعرضونها بوجوه متجهمة، ولغة مضحكة بغرابتها.

لنعد الآن إلى قسطنطينوس. نظر أساتذة البلاغة آنذاك نظرة فوقية مترفعة إلى كل من لم يتقن حرفتهم، أي إلى الذين عجزوا عن الصياغة المستقلة لخطب جديرة بأن يتباروا بها مع الآخرين. ولهذا السبب، ومن هذه الأوساط، وجِّهت أصابع الاتهام إلى قسطنطينوس على أنه لم يتعلم ولم يصقل. ولكن من الناحية الثانية اعترف الكثيرون ممن لم يبدوا نحوه مشاعر الود باهتماماته الواسعة وتفهمه للقضايا العلمية؛ ومن المؤكد أنه كان يرعى الخطباء. وقيل بأنه كتب الشعر؛ ولكن ليس من الصعب أن نتوقع بأنها لم تكن قصائد ناجحة. أجاد أسلوب التفاهم مع الجنود ــ ربما لأنه لم يكن مضطراً لمخاطبتهم بأسلوب مدرسي..

تمتع القيصر الشاب بمواهب إدارية فائقة. وقد برزت بوضوح عندما بلغت اللحظات الحرجة التي مرت بها الدولة ذروتها؛ آنذاك، عندما عاد بعد موت والده والاتفاق مع أخويه سنة ٣٣٧ إلى الحدود الشرقية التي كانت عرضة للهجوم والاقتحام من الخارج، والتي أصابها الوهن من الداخل بسبب تمرد الجيش وعطالة الإدارة. فباشر على الفور بأعمال التسليح، وتغلّب على خمول الخدمات التموينية بنشاط غير معهود. جند وشكل وحدات جديدة من المقاتلين، وأشرف بنفسه على تدريبها وإعدادها للقتال. شكل وحدات من الفرسان، سلحها ودربها على القتال مقتدياً بالنمط الفارسي، حيث أصبحت ذا شأن عظيم في تلك الحرب. اعتمر هؤلاء الفرسان الذين عرفوا باللغة اللاتينية باسم المدرعين الخوذ، وحملوا التروس، وارتدوا الدروع، واكتست أجسامهم من الرأس حتى القدمين بدروع من الصفائح الفولاذية الملتصقة بالجسم، والتي كانت على قدر كاف من المرونة يضمن حرية الحركة إلى جانب حماية الجسم من الجروح؛ امتطوا جياداً كسيت أجسامها أيضاً بأغطية مطعمة بالصفائح الفولاذية. ظهرت تشكيلات الفرسان تلك في الجيوش الرومانية قبل ذلك الحين بفترة طويلة، ولكن يبدو أنها بدأت تستخدم على نطاق أوسع وبقدر أكبر من الجرأة منذ أيام قسطنطينوس؛ وهي التي مهدت الطريق أمام ظهور

أسلحة العصر الوسيط وتكتيكاته الحربية على الرغم من عدم إدراك أحد لهذا الشيء آنذاك.

لم يمارس قسطنطينوس هذا النشاط المحرور في ظروف السلم، بل وهو يقارع الفرس دون توقف. جاء في اللحظة الملائمة تماماً ليفك الحصار عن مدينة نصيبين في بلاد ما بين النهرين التي حاول الملك شابور الثاني احتلالها بنفسه. انسحب الفرس أمام الخطر الروماني إلى ما وراء نهر دجلة، وهذا ما أتاح الفرصة لحل مشكلة أرمينيا. لكن توقف الأعمال الحربية كان قصير الأمد، ولم تتجاوز مدته بضعة شهور، حيث تواصلت بعدها المعارك دون انقطاع. اقتحم الفرس تارة المقاطعات الرومانية، وبادر الرومان بالهجوم تارة أخرى ليجتازوا الحدود ويدمروا البلاد الخاضعة لملك الملوك.

تحاشى قسطنطينوس في جميع الحملات المعارك الكبرى في الأرض السهلة. وقد أكد أفراد حاشيته أن في ذلك دلالة على الحذر المثير للإعجاب، ولكن قد يكون هؤلاء الذين رأوا في ذلك التأجيل والمماطلة إحدى السلبيات الرئيسة للقائد محقين. علماً أنه لم يفتقر يوماً إلى الشجاعة الشخصية، فحين الضرورة قاتل، وتحمل الجوع والمتاعب شأنه في ذلك شأن أي جندي آخر. وقد ذكر الضباط في المعسكرات الرومانية في الشرق هذا الحدث بعد مضي أعوام طويلة: بعد صدام فاشل تشتتت "جيوش الرومانية في قفر الأراضي الحدودية، ولجأ قسطنطينوس نفسه برفقة عدد محدود من رفاقه إلى قرية غير محصنة بعد أن هجره الجميع. لم يكن في حوزتهم شيء من الطعام، ولم يتمكنوا من الحصول عليه هناك؛ وفي نهاية المطاف قدمت لهم امرأة عجوز رغيفاً من الخبز تقاسمه القيصر ورجاله بأخوة صادقة.

قسطنطينوس الحاكم

هناك شيء مثير للاهتمام: على الرغم من ارتباط قسطنطينوس بالجيش منذ حداثة عهده وخوضه الحروب دون انقطاع بحكم الضرورة، فقد فرض على جيوشه انضباطاً صارماً. لم يغمر جنوده بفيض من المكاسب والامتيازات كما حدث في عهد الكثيرين من القياصرة الذين سبقوه، وخاصة في عهد قسطنطين الكبير. كما لم يسمح بتدخل الضباط ــ بغض النظر عن مراتبهم ــ في شؤون الإدارة المدنية. وها هو أميان مارسيلينوس الذي التحق بالخدمة العسكرية في عهد قسطنطينوس بالذات يقول في مؤلَفه التاريخي:

«لم يؤجج الغرور العسكري المتسلط لدى الجنود. ففي عهده لم يحصل أي من القادة الكبار على لقب «الرجل الأغر» Vir Clarissimus. أذكر أنه منحهم لقب «الرجل المثالي» Viri perfectissimi فقط. ولدى قدوم قائد فرسان جديد إلى مقاطعة ما، لم يكن حاكمها ملزما بالخروج لاستقباله، كما حظَّر على الضابط النظر في القضايا المدنية. وكما اقتضت التقاليد القديمة فقد انحنى جميع القادة العسكريين، وكذلك الموظفون المدنيون باحترام أمام الولاة الذين كان لقبهم بمثابة تاج جميع الألقاب». ثم يضيف:

«كانت حالات الانتقال من الجيش إلى الإدارة المدنية نادرة. وعلى العكس فإن المراكز القيادية في الجيش أسندت لرجال أشداء عركتهم الحروب»..

قام القيصر بتقييم خدمات مرؤوسيه بدقة وتفصيل فائقين، ولذلك لم يمنح الألقاب في البلاط إلا بعد إخضاع المرشحين لعملية تقييم معمقة، لم يحدث أبداً أن وصل أحد ما من الخارج أو مصادفة إلى مركز مرموق. وإذا ما تولى أحدهم مركزاً إدارياً رفيعاً بعد مرور عشرة سنوات على خدمته، كان قد أصبح شخصاً معروفاً تماماً.

نظر قسطنطينوس بجدية إلى واجباته وإلى سمو شخص الحاكم، ولذلك بالغ في الأهمية التي أولاها للظهور بالمظهر اللائق لدى استقبال البعض أو الدخول الاحتفالي الرسمي إلى المدينة. جلس دون حراك وهو يتطلع أمامه مباشرة، دون أن يلتفت يميناً أو شمالاً ــ كتمثال جامد. لم يسمح لنفسه أبداً أن يمسح أنفه أو يحرك يده أو يبصق بحضور الناس. كما أنه لم يوافق أبداً على أن يشاركه الجلوس في مركبته أي من المسؤولين في الدولة أو من أفراد الأسرة.

بهذه العبادة الشخصية لجلال القيصر بالذات ارتبطت أسوأ مساوئ قسطنطينوس كحاكم : الشك، والغيظ، والانتقام في كافة الحالات والقضايا التي بدت في قناعته مصدر خطر على أمن أو سمعة جلال القيصر. عبَّر عن قسوة لا حدود لها في معاملة الأشخاص المشتبه بهم بالمشاركة في المؤامرات أو بمجرد الانتقاص من هيبة شخص الإمبراطور. أصدر الأوامر بممارسة التعذيب، وإصدار أكثر الأحكام جوراً حتى لو كانت الإدانة موضع شك. لم يفتقر في محيطه إلى أناس تعمدوا تعميق هذه الميول؛ وقد تمكن هؤلاء بالتملق والمداهنات الرخيصة من ضمان وصول أصواتهم إلى مسامعه، وكسب عطفه، والتمتع بجزيل عطاءاته؛ وكان الأسوأ صيتاً بينهم عدد كبير من خصيان البلاط.

هناك قضية أخرى مميزة تجدر الإشارة إليها! لم يحدث قسطنطينوس أية تغييرات جوهرية في نظام إدارة الدولة الذي ورثه عن أبيه، باستثناء شيء واحد هو: المغالاة في تطوير هيئات الرقابة والتفتيش، وتوسيع صلاحيات موظفيها، أطلق عليهم اسم المفتشين agents In Repus؛ وكانوا بمثابة

الشرطة السياسية. نجدهم منذ أيام قسطنطينوس في كافة المكاتب العليا، وخضع لهم عملياً البريد الحكومي الذي كان أهم وسيلة للاتصال آنذاك.

أخذ أميان مارسيلينوس الذي شعر بالكراهية نحو قسطنطينوس جميع هذه الأمور بعين الاعتبار، وقارنه بأسوأ حكام الماضي، وذهب إلى أبعد من ذلك بقوله: «فاق بسلوكه اللاإنساني كلاً من كاليغولا ودوميتيان».

عمل وعالم أميان مارسيلينوس

استشهدنا في الفصل السابق للمرَّة الأولى بمؤرخ سيتكرر اسمه وآراؤه في غير مرَّة عل صفحات هذا الكتاب، وخاصة في الفصول التالية. فهو مؤلف غير عادي، ويمكن المجازفة بالقول بأنه عبقري كفنان عكس الأجواء السائدة في تلك الحقبة. هذا ما يعتقده كثيرون ممن هم ضليعون في مجال الأدب، ومنهم إريـــك أويرباخ، أحد الذين يحتلون مكان الصدارة بين ممثلي النظرية الحديثة عن العمل الأدبي ونقده. «يمتلك أميان مارسيلينوس قدرة استثنائية على التعبير؛ ولو لم تكن لغته اللاتينية عصية على الفهم إلى هذا الحد، وعسيرة على الترجمة، لكان على الأرجح واحداً من ألمع كتاب الأدب القديم».

اقتبست هذه الفقرة من كتابه Mimesis الذي يعالج موضوع الواقعية في الأدب الغربي منذ أقدم العصور، منذ حقبة هوميروس وحتى المرحلة المعاصرة. الفصل المكرَّس لنتاج أميان في هذا الكتاب قصير نسبياً، لكن الملاحظات التي يتضمنها تصنف في عداد المقولات الأكثر عمقاً ونفاذاً بين كل ما قيل عن هذا المؤرخ في أي وقت. ولكن قبل أن نستشهد ببعضها دعنا نطلع على المعلومات الأساسية عن حياة وعمل أميان.

ولد حوالي سنة ٣٣٣ في إنطاكية السورية، فكان على الأرجح من أقران يوليان، أو رجلاً من جيله على أي حال. انحدر من أسرة ثرية ومتنفذه. كانت الإغريقية اللغة السائدة في المحيط العائلي، أي أنه وجد نفسه يتعلم اللاتينية فيما بعد، ربما لم يتعرف على مبادئ لغة الرومان إلا على أيدي المعلمين في المدرسة؛ ثمَّ عمَّق معرفته بها وهو يخدم في الجيش، وأخيراً في روما بعد أن حطه الترحال فيها ليستقر هناك. تطوع في الجيش وهو في العشرين من عمره على وجه التقريب، ونظراً لانحداره من أسرة ذات مكانة مرموقة حصل فوراً على رتبة ضابط. يرجَّح أن يكون قد باشر العمل في إعداد مؤلفه التاريخي الكبير وهو في روما، أي كرجل ناضج ومتقدم في السن. كتب باللغة اللاتينية، والأهم من ذلك أنه تطلّع لأن يصبح نتاجه استمراراً لنتاج ألمع مؤرخي روما الإمبراطورية ـ تاسيتوس Tacyt. وبما أن الأخير أنهى بحثه بالإشارة إلى سنة ٩٦، فقد بدأ أميان روايته انطلاقاً من تلك اللحظة. لكن المجلدات الثلاثة عشر الأولى من عمل أميان تعرضت للتلف، وهذا يعني أن تأريخه يبدأ بالمجلد الرابع عشر الذي يستعرض أحداث سنة ٣٥٣. وفي المجلدات السبعة عشر الأخيرة (كان مجموعها واحداً وثلاثين) يوصلنا إلى أحداث سنة ٣٧٨.

ما هي الطريقة لتحديد السـمة العامة لموقف وظلال لون هذا العمل؟ ها هي من جديد كلمات مؤرخ الأدب الذي استشهدنا به من قبل:

«يتسم عالم أميان بالقنوط: إنه مليء بالخرافة، وشهوة الدم، والإجهاد، والرعب القاتل، والإيماءات المفزعة المتبلدة على نحو سحري في الموت؛ أما حالة التوازن الوحيدة فيخلقها التصميم الحاسم والكئيب أيضاً على إنجاز المهمة الصعبة والميئوس منها أكثر فأكثر، وهي: الدفاع عن الإمبراطورية المهددة من الخارج والمفتتة من الداخل».

وفي مكان آخر كتب هذا الباحث:

«غالباً ما يبدو عالم أميان كشيء من قبيل مرآة مقعَّرة لتشويه المحيط الطبيعي للإنسان، المحيط الذي نتحرك في إطاره؛ وغالباً ما يترك انطباع حلمٍ مزعج، ليس لمجرد حدوث أشياء رهيبة فيه، كالقتل، والتعذيب، والخيانة، والتآمر، والخداع، والاتهام؛ فهذا النمط من الأشياء نكاد أن نصادفه على الدوام في كل مكان، وقلّما نجد في الواقع حقباً تكون فيها الحياة أكثر قابلية لأن تُحتمل. إن ما يسحق بشكل خاص في العالم الذي ابتكره أميان هو الغياب التام للثقل الموازن. فإذا كان الناس قادرين حقاً على ارتكاب أفظع الأشياء، فلا بدَّ من وجود حقيقة أخرى هي أن هذه الأشياء الفظيعة تولِّد باستمرار قوى معاكسة لها؛ وأنه في معظم الحقب المليئة بالرعب برزت وتفجرت الطاقات الحيوية العظيمة للروح : المحبة والتضحية، البطولة الواعية، والبحث الدؤوب عن إمكانية خلق وجودٍ أكثر نبلاً. لا نجد شيئاً من هذا القبيل لدى أميان. ولا يشير تأريخه إلى أية فرصة للتحرر، أو إلى أي شيء يمكن أن يقود إلى مستقبل أفضل، ولا يعرض أية شخصية أو عملية يمكن لها أن تنعش وتبعث الحياة في نفحات أكثر إنسانية».

يتجلى ميل أميان للنبرة الحادَّة والمأساوية في التفاصيل التي تبدو من الناحية الظاهرية صغيرة وعديمة الشأن أيضاً؛ وعلى سبيل المثال ما أشرنا إليه من قبل أثناء الحديث عن قسطنطينوس الحاكم: فعندما تطرق إلى موضوع لا إنسانية القيصر الشاب، أورد على الفور أسماء اثنين من الأباطرة الأسوأ صيتاً ــ كاليغولا ودوميتيان.

قسطنطينوس المسيحي

ينطوي رأي أميان مارسلينيوس الذي استشهدنا به على مبالغة كبرى بطبيعة الحال. لكن الحقيقة التي لا تدحض هي أن قسطنطينوس غالباً ما تصرَّف بقسوة مطلقة، ووحشية؛ وسوف نجد أمثلة كثيرة على صفحات هذا الكتاب تؤكد هذا الشيء.

كان على ــ هذا ما يمكن أن يقوله أيٌّ كان ــ هذا القيصر الذي ترعرع منذ طفولته على أسس الديانة الجديدة التي نادت بالمحبة والتسامح، والتي اعتنقها وأيدها بحماس (على الرغم من أنه لم يتقبل المعمودية إلا في آخر أيام حياته كما فعل والده) أن يبدي تفهماً لرعاياه أكثر من أسلافه الوثنيين.

لكن حكماً كهذا لن يكون خالياً من السذاجة. فالحقائق السياسية ترغم الحكام في كل زمان ومكان على خرق أسمى القواعد أو الالتفاف عليها حتى لو كانوا مقتنعين بها بعمق، وهم ليسوا من الكَلبيين. فلا أسهل من تبرير الذات. يخون المرء مبادئه في بعض الحالات المحددة بزعم أنه يفعل هذا في سبيل إنقاذ ما هو جوهري فيها، وليضمن لها بهذه الخيانة الصمود والنصر النهائي. وهكذا فإن قسطنطينوس على سبيل المثال وهو يعاقب أعداءه الحقيقيين، وغالباً المزعومين بقسوة غير معهودة كان على قناعة لا يرقى لها

الشك بأنه يتصرف على نحو سليم وعادل، وبما يتفق مع قناعاته الدينية؛ فهو مرغم على المحافظة على استقرار السلطة مهما بلغ الثمن، لأنها تؤيد المعتقد الجديد وتحمي تعاليمه السامية من الرجعية الوثنية.

كان قسطنطينوس، شأنه شأن أخويه، معادياً لعبادة الآلهة القديمة، وقد أثبت هذا بجلاء تام في المرسوم الصادر سنة ٣٤١ وجاء فيه:

«فلتمت الخرافة، وليتوقف جنون التضحية! فكل مَنْ يجرؤ على تقديم الأضاحي، يخرق مراسيم الإمبراطور المؤله، والدنا، ويخالف قرار عطوفتنا هذا؛ ويجب أن يتعرض للعقوبة المنصوص عنها بموجب حكم فوري».

لم ينفذ مضمون هذا المرسوم من الناحية العملية بحزم تام وبكل ما يترتب على ذلك من عواقب، مثلما بقيت مجرد حبر على ورق قرارات قسطنطينوس وأخويه الصادرة في الأعوام التالية بلهجة أشدَّ صرامة بكثير، فبوابات العديد من المعابد بقيت مشرعة لعشرات من السنين اللاحقة، ولقرون في بعض الأمكنة، حيث قُدِّمَتْ الأضاحي والنذور، لأن معتنقي العبادات القديمة كانوا لا يزالون يشكلون نسبة عالية في أوساط كافة الطبقات الاجتماعية، وفي جميع مقاطعات الإمبراطورية.

ما دمنا بصدد الحديث عن تشريعات قسطنطينوس، تجدر الإشارة إلى أنه في العديد من المراسيم والقوانين التي أصدرها تُصادَف قرارات نابعة ــ بشكل غير مباشر على الأقل ــ من روح أخلاقية جديدة. وهكذا نجده منذ سنة ٣٣٨ يوصي قائلاً:

الأفراد المحتجزون في السجون، والمتهمون بارتكاب جنايات يجب أن يحقق معهم في غضون شهر؛ وفي حال المخالفة يمكن أن يتعرض القاضي للمساءلة.

وبعد مرور عامين منع احتجاز الرجال والنساء في زنزانات مشتركة. وبعد مرور عامين آخرين تم حظر الزواج الشرعي من بنات الأخوة والأخوات أو معاشرتهن بطريقة غير شرعية تحت طائلة حكم الإعدام.

مع كل هذا بدت آراء قسطنطينوس الدينية غريبة بعض الشيء. فها هو أميان مارسيلينوس ــ الوثني، وغير المعادي للمسيحية ــ يصفها على النحو التالي:

«تداخلت عنده الديانة المسيحية بكل ما فيها من وضوح وبساطة مع أحكام سلفية لا تليق سوى بامرأة عجوز».

كما يتهمه فيما بعد بأن سياسته الملتوية في معالجة القضايا الكنسية أدت إلى انشقاقات عديدة في أحضان المعتقد الجديد. فمجموعات الكهنة المسيحيين تنقلت في كافة الاتجاهات بعربات البريد الحكومي للمشاركة في المجامع الكنسية (يقول أميان: في ما يسمَّى بالمجامع الكنسية)، لأن القيصر أراد إدارة كنسية وفق آرائه ثم يضيف المؤرخ بمكر وسخرية، بأنه لم يحقق شيئاً سوى إرهاق جياد البريد.

أما الموجِّه الفعلي لدفة سياسة قسطنطينوس الكنسية في السنوات الأولى من حكمه، فكان يوسيبيوس النيقوميدي، نسيب والدة يوليان، الرجل الفذ بكل معنى الكلمة.

يوسيبيوس وبولس

تمكن يوسيبيوس بفضل دعم قسطنطينوس من مغادرة أسقفيته في نيقوميديا، والانتقال إلى أسقفية أخرى أكثر وجاهة، حيث أصبح راعياً للجماعة المسيحية في القسطنطينية. حدث هذا على الأرجح في أواخر علم ٣٣٨، وعلى أسوأ تقدير قبل انقضاء عام ٣٣٩.

قبل بضعة أعوام فقط، كان لهذا الحدث أن يقيَّم على أنه تغيير نحو الأسوأ. فنيقوميديا كانت واقعة على الشواطئ الأسيوية لبروبونتيدا الذي يعرف اليوم باسم بحر مرمرة، في عمق خليج رائع الجمال. وعلى مسافة تقارب الثمانين كيلومتراً إلى الغرب من تلك المدينة، على الجانب الأوروبي من مضيق البوسفور، كانت بيزنطة الثرية والشهيرة، ولكن غير القابلة للمقارنة مع نيقوميديا بعد؛ فالأخيرة، كمقر إقامة مفضل لدى الإمبراطور ديوقلتيانس، ومن ثم ليسينيوس، تباهت بعشرات المباني الفخمة، وضمَّت عدداً أكبر بكثير من السكان. لكن بيزنطة بدَّلت اسمها سنة ٣٣٠ ليصبح القسطنطينية؛ ومنذ ذلك الحين بدأت المدينة تتطور بقوة ملفتة للنظر. حدث هذا بطبيعة الحال بفضل الهبات الضخمة الممنوحة من خزينة الإمبراطورية، والامتيازات

العديدة التي خُصَّ بها المقر الجديد بكرم زائد. فبدون أية روادع جيء إليها بعدد لا يحصى من روائع الأعمال الفنية الأثرية من المدن الإغريقية والأسيوية. الحقيقة أن روما الواقعة على ضفاف التيبر كانت لا تزال على الصعيد الرسمي العاصمة الوحيدة للإمبراطورية، ولكن لم يكن هناك مجال للشك، بأن روما الجديدة، تلك الواقعة على شواطئ البوسفور، ستنافس القديمة عمّا قريب. أما نيقوميديا فقد تراجعت على عجل إلى الظلٍّ، وذلك بسبب قربها من العاصمة الناهضة. أدرك يوسيبيوس هذا الشيء في لمح البصر ورأى بعين البصيرة المصير الذي ينتظر مدينته، فانتقل إلى حيث كانت توضع أساسات شيء عظيم بحق.

لكنه لم يحصل بيسر على العرش الأسقفي في القسطنطينية. فقد توجب أولاً إزاحة بولس، راعي الجماعة آنذاك، حيث كان قد عاد من المنفى ــ كما ألمحنا سابقاً ــ في أواخر عام ٣٣٧. ولكن بعد عودة بولس مباشرة حدثت نزاعات حادة في أحضان جماعته، ولم تكن أسبابها ذات طابع لاهوتي بقدر ما كانت شخصية صرفه ــ أمور يصعب الوقوف عليها اليوم وتقييمها على نحو موضوعي، لأن الشهادات التي عاصرتها جزئية، وغامضة، ومتحيزة. وبهدف التخفيف من حدة النزاع انعقد بمبادرة من قسطنطينوس مجمع كنسي لأساقفة المدن المجاورة؛ وقد أقرَّ المجمع ضرورة عزل بولس، وتعيين يوسيبيوس في المنصب الشاغر. نُفِيَ بولس من جديد. وعلى الفور أعلن أنصار أثناسيوس أنه كان ضحية لافتراءات الآريوسيين واضطهادهم، وهكذا صُنِّفَ بولس فيما بعد في عداد الشهداء، لا بل رُفِعَ إلى مصاف القديسين.

قلّما أقام راعي القسطنطينية الجديد في المدينة، وإن فعل ذلك فلفترات قصيرة. فقد شغلته كلياً السياسة الكنسية الكبرى، ولم يكن له أن يشرف عليها وهو إلى جانب الحاكم؛ ولذلك فإنه غالباً ما كانت إنطاكية السورية مقراً لإقامته. وإلى هذا المكان غالبا ما جاء أساقفة شرقيون آخرون؛ وبهذا الأسلوب بدأ يتشكل في المدينة الواقعة على ضفاف (العاصي) Orontes ما يشبه المجمع الكنسي الدائم.

الأدب ، المسرح ، المباريات

لا ريب في أن يوسيبيوس الغارق في مشاكل المجامع الكنسية والسياسة في القسطنطينية تارة وفي إنطاكية تارة أخرى، لم يجد ما يكفي من الوقت للاهتمام شخصياً بالصبي الصغير، قريبه البعيد الذي فقد أمه في الأشهر الأولى من حياته، ووالده في الآونة الأخيرة.

بفترة قصيرة بعد الأحداث المأساوية التي أفقدته أقرب أقربائه جميعاً، وحرمته من ثروة أبيه، غادر يوليان القسطنطينية بناء على أوامر قسطنطينوس متوجهاً إلى نيقوميديا، حيث كان يوسيبيوس لا يزال أسقفاً لها. وعلى الأرجح فإن الفتى أعيد ثانية إلى القسطنطينية، عندما تولى راعيه منصبه الكنسي هناك. أما في واقع الأمر فإن قضية تربية الطفل منذ البداية أُسندت في المدينتين إلى مردونيوس، معلم بازيليا قبل أعوام، والمعجب حتى حد الانبهار بأشعار هوميروس وهيزيود. قاد يوليان إلى المدرسة عبر طريق واحدة دوماً وهو يعلمه باستمرار:

ــ كم من الفتية، من أقرانك، يتردد على المسارح! آمل ألا يثيروا فيك تعلقاً بمثل هذه المشاهد! أتهتم بسباقات المركبات ؟ ستجدها لدى هوميروس، وقد عُرِضت بأسلوب رائع. خذ مؤلفات ذلك الشاعر واقرأها كلها! أتصغي

كثيراً إلى الأحاديث عن الرقصات الإيمائية؟ اهمل هذا الشيء! فالفتية الصغار لدى الفيكيين رقصوا على نحو أكثر لياقة من الرجال. كان هناك فينيوس عازفاً على القيثارة، وديمودوك مغنياً. يتحدث هوميروس عن الأشجار أيضاً ويا له من حديث! فكم يفوق وصفه للأشجار جمال الأشجار ذاتها وعلى سبيل المثال جزيرة الحورية كاليبسو المليئة بالغابات، ومغاور كيرك، وحديقة ألكينوس! صدقني أيها الفتى، لن يماثل الواقع أبداً جمال الوصف الشاعري.

يعتقد البعض أن مردونيوس وهو يتحدث عن منظر الأشجار لم يفكر بالطبيعة، بل بلوحات الرسامين، حيث وضع الشعر في مرتبة أسمى منها. وعلى أي حال، فهو لم يعتقد في حقيقة الأمر بوجود شيء يفوق جمال ما نظمه المبدعون القدماء من صور شعرية. لأن الكلمة بالذات مثّلت في نظر ذلك المتزمت لقضية الأدب الواقع الحقيقي والنهائي؛ على نحو مشابه تماماً للعالم الأفلاطوني، حيث تشكل الأفكار التي تشعُّ بأسمى صور الجمال شيئاً أزلياً وراسخاً، بينما لا يمثل عالم الأشياء سوى انعكاس باهت لألقها الخالد. أثرت قناعة الأديب المقدسة هذه بفضل أصالتها على ذهن الفتى. وسقطت البذرة في تربة خصبة، على الرغم من أن البدايات لم تمر دون مقاومة من جانب الفتى؛ وهذا ما يمكن أن يستنتج من مضمون أقوال مردونيوس بالذات.

لم يكن عشق الأدب القديم يعني القطيعة مع المسيحية ، فقد انقضت منذ زمن طويل تلك الأيام التي تميَّز فيها موقف معتنقي الديانة الجديدة، المتزمتين والرافضين للحلول الوسط من نتاج الثقافة القديمة بالازدراء، لا بل بالكره العميق، وهم ينادون بأنه يبعد الفكر والقلب عمّا هو أهم ــ عن ترقب مجيء الرب.

يُعتقد أن مردونيوس نفسه كان مسيحياً. وعلى أي حال فإن الفتى لم يقتصر في مطالعته على قراءة ما أبدعه كبار الشعراء قبل قرون، بل قرأ المخطوطات المقدسة الخاصة بالمعتقد الجديد أيضاً؛ فقد ثبت فيما بعد أنه حسن الاطلاع على مضمونها. ويبدو من البديهي أن يكون أحد الكهنة التابعين للأسقف يوسيبيوس قد أشرف على هذا الجانب من تربيته.

أخذ يوليان عن مربيه المحبوب النفور من مشاهد التجمعات الشعبية الحاشدة أيضاً. فبعد أعوام كتب عن ذلك بنفسه قائلاً:

«علمني معلمي أن أذهب إلى المدرسة وأنا أنظر إلى الأرض فقط. شاهدتُ العرض المسرحي الأول عندما كانت لحيتي أطول من شعر رأسي. وعلى أي حال، فإنني حتى في ذلك الحين لم أدخل المسرح أبداً بدافع من إرادتي الحرّة، وإنما تلبية لرغبة الحاكم ـــ وكلّها ثلاث أو أربع مرات».

أما صعوبة مقاومة ما كان سائداً آنذاك من ولع بالمشاهد والعروض فنجد خير تعبير عنه في رواية القديس أوغسطين لِما تعرَّض له صديقه أليبيوس في روما. حدث هذا الشيء بحدود سنة ٣٨٠. ذهب أليبيوس إلى روما لدراسة القانون، وكرَّس كل وقته للعلم، وقد تباهى بأنه تحاشى كافة أشكال المباريات، وانتقدها بحماس. إليكم ما حدث:

«التقى في الشارع مصادفة ببعض الأصدقاء والزملاء العائدين من تناول طعام الغذاء. فراحوا يجرّونه عنوة إلى المدرَّج على الرغم مما أبداه من معارضة ومقاومة وهو يهتف:

«ـــ يمكنكم قيادة جسدي ووضعه في ذلك المكان، لكنكم لن ترغموا روحي وعيني على رؤية المشاهد! أجل، سأكون هناك، ولكن غائباً ! سوف أثبت تفوقي عليكم وعلى المباريات!

«أصغوا إليه، لكنهم لم يتركوه وشأنه. ربما لأنهم رغبوا في التأكد مما إذا كان هذا سيحدث فعلاً؟ ولمَّا بلغوا الهدف وجلسوا في أماكنهم، كان كل شيء هناك يغتلي بلذّة لا إنسانية. أغمض أليبيوس عينيه، وأمر روحه بألا تعير اهتماماً للشر اللامحدود المحيط به. ليته سدَّ أذنيه ! ففي إحدى لحظات العراك هزّته صرخة الجمهور العظيمة. أثاره الفضول، وبدا وكأنه راغب في التعبير عن امتعاضه، والتغلب بالنظر أيضاً على ما كان السبب في إطلاق تلك الصرخة، ففتح عينيه. لكن الجرح الذي أحدثه هذا في روحه كان أعمق مما أراد رؤيته على الجسد! فهوى على الأرض على نحو بعث الأسى في

النفس أكثر مما فعله ذاك الذي أدى سقوطه إلى إطلاق الصرخة التي اخترقت أذنيه وفتحت عينيه ! ولدى رؤية الدم دخل في حالة من الوجد الوحشي، فلم يشح بوجهه، بل بقيت نظراته معلقة هناك. وعلى نحو غير واع انغمس في الجنون. بهره العراك الإجرامي، وأسكرته لذة التوحش. لم يعد مثلما كان لحظة مجيئه إلى ذلك المكان. أضحى واحداً من الغوغاء الذين انضمَّ إليهم، ورفيقاً حقيقياً لأولئك الذين اختاروه. فراقب، وصرخ، واغتلى في داخله!»..

حديقة قرب نيقوميديا

اتخذ يوليان ــ لحسن حظه! ــ موقفاً مغايراً لآراء المعلم مردونيوس في موضوع واحد فقط: لم يصدّق أبداً أن يكون أي وصف أدبي مهما كان بارعاً قادراً على أن يحاكي روعة الطبيعة، ناهيك عن احتمال أن يفوقها. كان على الدوام حساساً ومتذوقاً لجمال المنظر الطبيعي. وهذا ما تثبته رسالة خطّت في أعوام لاحقة، لكنها تشير إلى ذكريات أعوام صِباه التي أمضاها هناك بالذات، في نيقوميديا وضواحيها. الرسالة موجهة إلى الخطيب يواغريوس، وها هي مقتطفات منها:

«أُقَدم لك هدية مكونة من أربعة حقول صغيرة في بيتينيا، تلقيتها يوماً تقدمة من جدي. تصرف بها بحرية. إنها صغيرة إلى الحد الذي يتعذر معه أن تعين أحداً على الإثراء. لكنها لا تفتقر إلى بعض المزايا اللطيفة التي أود أن أخبرك بشيء عن كل منها.

تبعد هذه الممتلكات عن البحر ما يقارب اثني عشر فرسخاً (حوالي أربعة كيلومترات). فلن يعكر أي بحار أو متطفل صفو الهدوء بثرثرته وإلحاحه. ومن ناحية أخرى فإن هذا المكان لا يفتقر إلى نِعَم إله البحر،

نيروس. فلا صعوبة هنا في الحصول على سمكة طازجة تراها تتواثب أمامك. وعندما تغادر المنزل وتقف فوق إحدى الهضاب، ستشمل بنظرك بروبونتيدا (بحر مرمرة)، والجزر، وحتى المدينة التي استمدت اسمها من الحاكم النبيل. لكنك لن تطأ بقدمك حشائش الرئة، ولن تضايقك الأوساخ الكريهة التي يتعذر تحديد طبيعتها، والتي يقذف بها البحر عادة فوق رمال الشاطئ. تمتد الطريق وسط نبتات اللبلاب، والصعتر، والأعشاب العطرة. من يسترح هناك ليقرأ كتاباً، سيجد حوله سكوناً عميقاً؛ وإذا ما رغب في أن يريح عينيه، يمكنه التمتع بالنظر إلى السفن والبحر! عندما كنت لا أزال صبياً صغيراً، تخيلت أن مصيفاً كهذا هو الأجمل. توجد هناك أيضاً ينابيع ليست الأسوأ، كما توجد أمكنة رائعة للسباحة، وهناك حدائق وأشجار. ولمّا كبرت، تُقْتُ للمصايف القديمة وعدتُ إليها في غير مرة؛ وكان اللقاء ذا نفع روحي دوماً».

لوحة تشعّ فتنةً، ولوناً، ودفئاً، وتكاد أن تكون رمزية في آن واحد. صبي يستلقي فوق هضبة مطلّة على البحر، وسط الأعشاب العطرة والزهور. يقرأ أشعار هوميروس أو محاولات أفلاطون؛ يرفع بين الحين والآخر ناظريه ليلقي نظرة على مياه الخليج الزرقاء، وعلى ما يتناثر فوقها من جزر وصخور وخضار ــ ألا يعقل أن تكون واحدة منها بالذات جزيرة الحورية كاليبسو؟ ــ وعلى السفن وقوارب الصيد المنسابة بهدوء، وفي البعيد، يتألق بياض مباني القسطنطينية، مدينة الأسرة، حيث قبور الأب والأم.

وها هي تتمة رسالة يوليان:

«توجد هناك أيضاً ذكريات صغيرة لعملي في الحقل. إنه كرم عنب صغير، يعطي خمرة عطرة وحلوة، لا تحتاج إلى أية إضافات؛ فالعناقيد يفوح منها شذى الورد وهي على أشجار الكرمة وفي المعصرة. وإذا صدق هوميروس، فإن الخمر الفطير في الأباريق الفخارية هو روح الرحيق الإلهي.

«قد تتساءل، لِما لا يوجد هناك المزيد من أشجار الكرمة، ولِما لم يُزرع سوى جزء صغير من الأرض؟ يبدو أنني لم أكن فلاحاً على قدر كاف من النشاط. وربما حدث هذا لأنني اعتدت على إضافة كميات أكبر من الماء وأنا أحتسي الخمر؟ كنتُ أُعِدُّ الخمر لنفسي ولأصدقائي فقط، ولم يكن هؤلاء سوى ثلة صغيرة.

«والآن أيها الحبيب، أقدم لك هذه الهدية ـ المتواضعة في واقع الأمر، لكنها لطيفة، لأنها من يد صديق؛ أي كما يقول الشاعر الحكيم بندار، من البيت إلى البيت.

كَتَبتُ هذه الرسالة على عجل، أمام نور المصباح. فإذا ارتكبت خطأ ما، لا تحكم عليه بقسوة!».

عمل يوليان في زراعة أشجار الكرمة في الأعوام التالية بطبيعة الحال، وليس أثناء إقامته الأولى في نيقوميديا. لأنه آنذاك وهو صبي صغير، كان عاجزاً عن تمييز سوء الأحوال حتى في كرم آخر. في كرم الرب.

إنطاكـــية، رومـــا، الإســـكندرية

أسلفنا الحديث عن عزل الأسقف بولس من منصبه ونفيه من القســطنطينية. أثار هذا ضجة كبرى، ولكن من حيث الجوهر لم يكن الحدث على ذلك القدر من الأهمية بالمقارنة مع ما دار من جدل مستمر حول شخص أثناسيوس. فقضايا الإسكندرية بالذات هي التي استحوذت على تفكير يوسيبيوس وأنصاره الذين كادوا ألا يغادروا إنطاكية.

فمنذ مطلع عام ٣٣٨ وجهوا رسالة إلى حكام الإمبراطورية الثلاثة، عبَّروا فيها عن استيائهم من سلوك أثناسيوس بعد عودته إلى مصر. وفي هذا المخطوط تمَّ التذكير بمقررات المجمع الكنسي الذي انعقد في صور Tyr، والتي عُزل بموجبها أثناسيوس من منصبه؛ كما طرحوا فكرة جديدة مفادها أن انتخابه في الأصل لم يكن شرعياً. وفي ذلك الوقت بالذات أرسلوا إلى روما وفداً مؤلفاً من ثلاثة من الكهنة: أحد المشايخ، واثنان من الشمامسة، حيث انطلقوا في رحلتهم من إنطاكية. منذ عام ٣٣٧ كان يوليوس أسقف عاصمة الإمبراطورية. طالبه الوفد الإنطاكي بعدم إقامة أية علاقات رسمية مع أثناسيوس، لأن إدارة أمور جماعة الإسكندرية أوكلت لحين انتخاب راع جديد لها للأسقف بيســتوس؛ كان هذا أسقف ماريوتيس Mareotis المصرية المعروف بميوله وقناعاته الموالية للآريوسية.

أثبت يوسيبيوس من خلال طلبه هذا الموجه إلى رئيس الجماعة المسيحية في روما، أنه سياسي بارع وبعيد النظر. فكما كان معروفاً على نطاق عام، أقام أثناسيوس أثناء إقامته القسرية في الغرب علاقات حميمة مع العديد من الأساقفة هناك؛ وكان من المتوقع أن يطلب دعم الأوسع نفوذاً بينهم وهو في تلك الحالة ــ وهذه هي الفرصة التي أراد يوسيبيوس أن يفوّتها عليه.

لكن قضية أخرى كانت بمثابة الخطر الأكبر على أثناسيوس. فقد اتُّهم بالاستيلاء على كمية كبيرة من الحبوب وبيعها، والتي كانت بموجب قرار الإمبراطور المتوفى قسطنطين الكبير تُرسل سنوياً إلى السلطات الكنسية المصرية وتخصص للأعمال الخيرية. عالج قسطنطينوس التهمة بجدية وأوصى بالتحقيق في الموضوع..

في هذه الأثناء وجه أثناسيوس الدعوة لأساقفة مصر لعقد مجمع كنسي. فاجتمع ثمانون منهم. هبّوا بطبيعة الحال للدفاع عن متروبوليتهم (رئيس أساقفتهم) واعترضوا على شرعية مقررات مجمع صور Tyr. وجهوا كتباً إلى كافة العواصم الأسقفية، ومنها روما أيضاً. وهنا تقابل الرسل المصريون مع الإنطاكيين. حدثت بينهم مشادّات عنيفة، ولذلك ارتأى يوليوس أن الحل الأمثل لحل المعضلة سيكون في الدعوة لانعقاد مجمع كنسي ثالث للنظر في قضية أثناسيوس. وبهذه الروح كتب إلى كل من يوسيبيوس وأثناسيوس، دون أن يقترح موعد أو مكان المؤتمر المقترح لمسؤولي الكنيسة. وعلى أي حال، كان هذا الاقتراح بمثابة رفض لطلب يوسيبيوس بقطع العلاقات الرسمية مع أثناسيوس.

لم يقتصر أثناسيوس في مساعيه النشطة الهادفة لترسيخ مواقعه على عقد مجمع أساقفة مصر، وتوجيه الرسائل، ومحاولة كسب عطف الغرب. راودته فكرة أخرى تشير إلى موهبته في استغلال أمزجة الجماهير. فها هو في صيف عام ٣٣٨ يدعو الناسك الذائع الصيت أنطونيوس لزيارة الإسكندرية.

إغواء القديس أنطونيوس

عندما جاء أنطونيوس إلى الإسكندرية تلبية لدعوة أثناسيوس كان قد أصبح شيخاً طاعناً في السن وتجاوز الثمانين من العمر. عاش حياة عزلة في عمق مصر، وسط الصخور والقفر لِما يزيد عن نصف قرن، لكن اسمه كان معروفاً، ويذكر بكثير من التبجيل حتى في الأصقاع البعيدة كل البعد عن حدود وطنه. ذاع صيت ممارسات أنطونيوس الزهدية، وقداسته، ومعجزاته. لكن ما أوصله إلى ذروة مجده كانت الروايات الغريبة التي تحدثت عن إغواء الشيطان له، وعن تعرضه لهجمات العفاريت التي اتخذت هيئات وحوش مفترسة، قذرة، وكريهة، لكنه خرج دوماً ظافراً من كل كمين نُصب له. وفي حقيقة الأمر لم تكن سوى أساطير وخرافات موغلة في قِدمها تمَّ تحويرها بما يتلاءم وخدمة أهداف الديانة الجديدة.

رأى أنطونيوس النور في مصر العليا، في أسرة مسيحية ثرية، بعد عام ٢٥٠ بفترة وجيزة. وعلى الرغم من اسمه الروماني، فقد كان مصرياً أصيلاً، لا يعرف حتى اللغة الإغريقية؛ وهكذا فقد تفاهم مع الإغريق الذين كثر عددهم في ذلك البلد آنذاك، عن طريق المترجمين. أرسله أبواه إلى المدرسة، لكنه

رفض أن يتعلم وبقي أمياً حتى آخر أيامه. لكنه بحث عن العزلة منذ نعومة أظفاره. توفي والداه وله من العمر عشرين عاماً. ومنذ ذلك الحين أشرف بنفسه على إدارة ممتلكاته ورعاية شقيقته الصغرى؛ لكن هذا الشيء بدا في نظره ابتعاداً عن هدف الحياة الأساسي. ولذلك فإنه عندما دخل الكنيسة بعد بضعة أشهر وتناهت إلى سمعه كلمات الإنجيل التالية: «إذا أردت أن تبلغ الكمال، اذهب، وبع كل ما تملك، ووزعه على الفقراء، وستملك كنوزاً في السماء» ـ ارتأى بأن هذه هي مشيئة الله. فوزَّع أرضه على جيرانه، وباع الأشياء المنقولة ليوزع ثمنها على المتسولين. وبعد أن ضمن مستقبل شقيقته اعتكف في القفر قرب القرية. زهد في حياته، وتلقى المعرفة الدينية على يد شيخ مسن، وحفظ آيات الكتاب المقدس عن ظهر قلب؛ ونظر بازدراء إلى كافة العلوم الأخرى.

لم يكن هذا النمط من الحياة شيئاً اسـتثنائياً في مصر تلك الأيام، إذ ظهر النساك هنا وهناك قبل ذلك الحين، وعاشوا من أجل الصلاة والزهد فقط وهم يحظون باحترام ومساعدة أخوتهم في العقيدة. فعلوا هذا يوماً تكريماً للآلهة التي نُعِتت الآن بالعفاريت الشريرة والمضللة. ومن ناحية ثانية ربما كان التأثير الأكبر أو الحاسم بالأحرى في هذا المجال هو ما لعبته بعض تيارات الفلسفة الإغريقية، نخص منها بالذكر الفيثاغورثية والكَلَبية، الداعية للزهد، والحدّ من المتطلبات، والفقر الطوعي، والحياة الطاهرة، والابتعاد عن الشؤون الدنيوية.

كان لحركة التنسك أن تؤدي عمَّا قريب إلى نشوء أولى جماعات الرهبان وصياغة أسس حياة الدير. يكاد الدور الكبير الذي لعبته التجمعات الرهبانية في أوروبا العصر الوسيط أن يكون معروفاً للجميع. أما أهمية أنطونيوس بالنسبة للمسيرة الظافرة لهذه الحركة فتعتمد على أنه هو بالذات مَنْ طوَّر إلى حد التطرف بعض سمات الزهد؛ ولهذا الشيء بالذات يعود الفضل في تحوله إلى شخصية أسطورية وهو لا يزال على قيد الحياة، فأضفى ألقاً فائقاً على حياة النسك، وكسب التلامذة والأتباع.

أقدم أنطونيوس بعد ذلك على خطوة مستقلة. أقام في مقبرة قديمة بعيداً عن أمكنة إقامة الناس. زوَّده أحد الأصدقاء بالخبز والماء في مقره الجديد. لكن هذه العزلة أيضاً بدت غير كافية في نظره. فبعد عشرة وبضع من السنين هجر المكان متجهاً إلى مكان بعيد إلى الشرق من النيل، حيث لم يظهر الإنسان إلا فيما ندر. عثر لنفسه على مخبأ وسط جبال الصحراء العربية الصخرية. وأمضى هناك قرابة عشرين عاماً دون أن يتفوَّه بكلمة مع أي كان، على الرغم من تلهف كثيرين للاقتراب منه. فمنذ ذلك الحين انتشرت أغرب الروايات عن الأساليب التي يلجأ إليها الشيطان لتضليله والتغلب عليه. دوَّن أثناسيوس فيما بعد هذه الروايات، ولخصها القس بطرس سكارغا بعد قرون باللغة البولونية في مؤلفه «حياة القديسين». وها هي مقتطفات من هذه الصياغة الجديدة التي تنسجم لغتها القديمة تماماً مع الرواية الغريبة من حدود عالم الخرافة والخيال.

(بعد المحاولات الفاشلة الأولى بدأ الشيطان بإغواء أنطونيوس من جانب آخر، «أثقل كاهله بشهوات الجسد العظيمة التي أجَّجت فيه ناراً لا تحتمل، وحدث هذا في النوم واليقظة، بحيث لم يعرف الهدوء أبداً»، صام الناسك وتأمل آلام الجحيم، وموت وانحلال الجسد وتحوله إلى تراب. «عامل القديس عدوَّه باحتقار، ومضى أبعد فأبعد في عمق الصحراء التي أراد الشيطان طرده منها عنوة... انقضَّ عليه في وضح النهار في مخبئه وأشبعه ضرباً فبقي ملقى على الأرض كالميت لبضعة أيام. ثم شنَّ عليه الشيطان هجومه الأخير مصطحباً معه رفاقه وجنوده المشخصين بهيئات مختلف الوحوش : أسود، دببة، ذئاب، خنازير، كلاب، ثيران، وغيرها من الحيوانات المخيفة. هاجم كوخه ذاك الذي هدمه أولاً، ثم روَّعه بجئير تلك الوحوش القذرة، وهدده بتعريضه لشتى ألوان الموت. أما هو وقد أقعدته آلام الجسد، فراح يئن غير قادر على النهوض، لكنه خاطب ذلك الجيش بقلب عظيم لا يعرف معنى الوجل قائلاً: «اعلموا أنكم لا تملكون القوة والسلطة!»).

عن العفاريت

كان هناك ينبوعان روى من مياههما ــ السحرية إن صحَّ القول ــ أنطونيوس مخيلته.

تدفق أولهما من مضامين العهد الجديد. تأمل الناسك في كل مرة من جديد الوصايا المقدســة، والصور والأمثال، وفهمها بالمعنى الحرفي. ولذلك ظلّت التحذيرات الواردة عن الشيطان في رسالة بطرس الأولى «اصحوا واسهروا لأن خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو» (٥ : ٨) تحدث طنيناً في أذنيه... كما تذكَّر الإشارات العديدة في الأناجيل إلى معجزات يسوع الذي شفى المرضى بطرد الأرواح الشريرة منهم، وقال عن نفسه:

ــ «فقال لهم امضوا وقولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج شياطين وأشفي اليوم وغداً وفي اليوم الثالث أكمل». (لوقا ١٣: ٣٢)!

ــ «وإذا كان امرأة كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة». (لوقا ١٣: ١١).

ــ «وساروا إلى كورة الجدريين التي هي مقابل الجليل. ولمَّا خرج إلى الأرض استقبله رجل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمان طويل وكان لإبليس ثوباً ولا يقيم في بيت بل في القبور. فلما رأى يسوع صرخ وخرَّ له

وقال بصوت عظيم ما لي ولك يا يسوع ابن العليِّ، أطلب منك ألا تعذبني. لأنه أمر الروح النجس أن يخرج من الإنسان، لأنه منذ زمان طويل كان يخطفه، وقد ربط بسلاسل وقيود محروساً، وكان يقطع الربط ويساق من الشيطان إلى البراري. فسأله يسوع قائلاً ما اسمك، فقال لجيون، لأن شياطين كثيرة دخلت فيه. وطلب إليه أن لا يأمرهم بالذهاب إلى الهاوية. وكان هناك قطيع خنازير كثيرة ترعى في الجبل. فطلبوا إليه أن يأذن لهم بالدخول فيها. فخرجت الشياطين من الإنسان ودخلت في الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحيرة واختنق». (لوقا ٨: ٢٦ ــ ٣٣).

أشارت هذه الحكايات وغيرها إلى أن العفاريت، خادمة الشيطان، كائنات حقيقية تنشط في العالم الواقعي؛ ومحاربتها واجب على كل مسيحي؛ ومن يتمكن من التغلب عليها يثبت بذلك أنه وريث حقيقي لتلامذة يسوع الذين تلقوا منه السلطة على كافة العفاريت، وعلى الشفاء «ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراضٍ» (لوقا ٩: ١).

ولكن كيف تبدو هذه العفاريت؟ وما الشــكل الذي تتخذه؟ كانت الإجابة على مثل هذه التساؤلات ماثلة أمام ناظري أنطونيوس؛ وكانت بمثابة الينبوع الثاني للأوهام العفريتية. ففي مصر كلها، في كل مدنها وقراها، تناثرت الأوابد الأثرية للمعتقدات القديمة في ذلك البلد، شوهدت على جدران المقابر والمعابد ــ كان عدد كبير منها لا يزال مفتوحا أمام ممارسة الطقوس ــ صور مرعبة لآلهة غريبة ذات وجوه حيوانية متوحشة. فأين يمكن البحث عن صور أفضل لخدم الشيطان؟ وأي برهان أفضل من ذلك على وجود تلك الأرواح فعلاً، ونشاطها، وتضليلها للناس؟

فلا غرابة إذن في أن العفاريت كانت تهاجم أنطونيوس متخذة هيئة وحوش قذرة ومرعبة.

الناسك في الإسكندرية

عندما هبط أنطونيوس في نهاية المطاف من جباله كان قد بلغ ما لا يقل عن الخمسين من العمر، أمضى منها ما يزيد عن الثلاثين عاماً في الزهد والتنسك. استمر في العيش ناسكاً، لكنه بدأ يعلم ويجمع حوله أتباعاً ورعين، وهكذا بدأ يتشكل تجمع ما، غير مترابط بعد، إذ لم تكن تنظم العلاقات فيه أية قواعد. ولما باشر القيصر مكسيمين دايا باضطهاد المسيحيين في المقاطعات الشرقية عام ٣١١، رحل أنطونيوس برفقة جماعة تلامذته إلى الإسكندرية، رغبة منه في مدِّ يد العون لأبناء معتقده؛ لكن الوالي طرده من المدينة بالقوة.

آنذاك رأى أثناسيوس الذي كان لا يزال صبياً الناسك الذائع الصيت. ولا ريب في أنه بقي على علاقة وثيقة به فيما بعد، ما دام قد وافق عام ٣٣٨ على المجيء ثانية إلى الإسكندرية لإلقاء مواعظ يدين ويهاجم فيها آريوس. أراد الأسقف بذلك أن يثبت للجميع بأنه يحظى بدعم وتأييد كامل من قبل الرجل الذي تسربل بمجد القداسة وهو لا يزال على قيد الحياة.

كان أنطونيوس عدواً لآريوس فعلاً، ومن يدري إن لم يكن أثناسيوس قد لجأ إلى الحيلة ليأتي به إلى عاصمته الأسقفية؛ فربما أخبر الرجل الطاعن في السن بأن الآريوسيين يدَّعون بأنه هو أنطونيوس يتعاطف معهم؟ فأغضبت

هذه التهمة الرجل الطاعن في السن، وهرع إلى المدينة على الفور ليؤكد للجميع مقدار نقاء وقوة إيمانه.

كان للنزاع القائم بين الآريوسيين والأرثوذكسيين حول طبيعة يسوع أساس فلسفي. ومن المشكوك فيه أن يكون الناسك الذي عاش في عالم عزلته ومخيلته الخاص مدركاً فعلاً لأهمية الخلاف ومجمل تعقيداته. لكن ما أُجمع عليه عن الآريوسيين وإنكارهم لألوهية المسيح، كان كافياً ليصبحوا محطّ كراهيته.

يقول القس بطرس سكارغا وهو يعيد صياغة كلمات أثناسيوس:

«شعر بامتعاض شديد من رفقة الهراطقة الآريوسيين والمانويين إلى حد لم يسمح معه لنفسه أبداً بمخاطبتهم بكلمة تنم عن التعاطف، أو إعطائهم ريقاً حلواً ـــ إلا إذا كانت كلمة ما تقال بهدف هدايتهم. قال أن حديثهم ضلال للروح. ساءته رؤية الآريوسيين إلى حد رفض معه الاقتراب منهم. صدف أن جاء أحد الآريوسيين إلى ديره مخفياً عنه انتماءه؛ ولمّا سأله وهو يفتح الباب له، أمر بطرده في الحال قائلاً: تفوح رائحة سم الأفاعي من كلامه!

عندما أهانه الآريوسيين بادعائهم تعاطفه معهم، شعر بأسى حقيقي، واعترته الدهشة من جسارتهم، وتوجه إلى الإسكندرية معلناً أمام رجال الدين كلهم إدانته الصريحة لهم، قائلاً أنهم رسل المسيح الدجال. فابن الله مساو له في الجوهر، وهو إله حق، مولود من الآب، وغير مخلوق. ولا يختلف الآريوسيين عن الوثنيين بشيء، لأنهم يخدمون المخلوق وليس الخالق»..

بقي أنطونيوس في الإسكندرية ثلاثة أيام فقط. ثم أقفل عائداً إلى قفره المسفوع بأشعة الشمس، مرهقاً بلا ريب بلغط، وضجيج حشود المدينة الكبيرة؛ وربما مذعوراً بتعدد الإغراءات الأشد خطورة بما لا يقاس بالمقارنات مع جيش الشيطان المؤلف من الحيوانات المتوحشة والقذرة. وتوفي بعد ما يقارب العشرين عاماً، أي في العام الخامس بعد المئة من العمر.

وكما أسلفنا فإن أثناسيوس كرَّس مقالة خاصة لشخصيته وأعماله. وقد تعمَّد في هذه السيرة إظهاره بمظهر مثالي وإضفاء القداسة عليه، وتعدُّ بمثابة المصدر الوحيد لاستقاء المعلومات عن شخصية هذا الناسك الفذ. كما أنها وثيقة رائعة من حيث أنها تعكس نفسية وأخلاقية أثناسيوس ذاته. فهي تؤكد لنا بأن الشيطان وخدمه العفاريت كانوا كائنات واقعية تماماً في نظره، حيث يتوجب على كل إنسان يميل لفعل الخير أن يحاربها؛ أن يحاربها بالمعنى الحرفي للكلمة، فيريق دمه ويعرض جسده للجراح.

كان أثناسيوس مقتنعاً بطبيعة الحال، بأن جميع أعدائه الشخصيين، وفي مقدمتهم آريوس ويوسيبيوس قد استحوذ عليهم الشيطان، وهم في خدمة ذات الأهداف التي من أجلها هاجمت كوخ أنطونيوس حشود الذئاب، والخنازير، والكلاب، والثيران. وقد رسَّخ تطور الأحداث اللاحق قناعته بذلك.

إعادة نفي أثناسيوس

لم يتمكن يوسيبيوس ومحازبوه تحت أي ظرف من الموافقة على مشروع يوليوس الذي تضمن إحالة قضية أثناسيوس ومعالجتها في إطار مجمع كنسي جديد؛ إذ كان هذا الشيء يفترض ضمناً اعترافهم بلا شرعية مقررات مجمع صور Tyr. وبدعم من قسطنطينوس عقدوا في شتاء عام ٣٣٩/٣٣٨ مجمعاً كنسياً في إنطاكية، انتخب فيه غريغوري القبدوقي أسقفاً جديداً للإسكندرية. كان رجلاً واسع الإطلاع، وعلى معرفة جيدة بالإسكندرية، لأنه درس الفلسفة هناك في حينه. فلم يتمكن أكثر أنصار أثناسيوس حماساً قول شيء سلبي عنه، على الرغم من أنهم لم يترددوا يوماً في إطلاق العنان لألسنتهم بهدف تشويه سمعة خصومهم وإظهارهم بأبشع الصور.

بلّغ قسطنطينوس سكان الإسكندرية بمرسوم خاص قرار تعيين راع جديد لأسقفيتهم. وفي الآن ذاته قام بتعيين وال جديد لمصر، هو فيلاغريوس المعروف بعدائه الشديد لأثناسيوس. كان الهدف من هذه الترقية واضحاً تماماً ولا يحتاج لتأويل: في حال أية مقاومة، ستدعم السواعد العلمانية الأسقف الجديد بحزم!

وفي إحدى ليالي آذار من عام ٣٣٩ وقبل وصول غريغوري إلى الإسكندرية، طرد أثناسيوس من منزله. لجأ الأسقف إلى إحدى الكنائس، وبقي هناك بضعة أيام يعلِّم ويعمِّد، لكنه في نهاية المطاف قرر مغادرة المدينة.

وعلى الرغم من ذلك حدثت اضطرابات التهمت النيران أثناءها أحد المباني الكنسية. عندئذ جاء غريغوري إلى الإسكندرية. حيث تمكن بمساعدة الوالي من ضمان طاعة الغالبية من أفراد الجماعة المسيحية. وفي الحال أخبر معظم الأساقفة بضرورة التفاهم والتنسيق معه، وليس مع أثناسيوس. وقد دفع الضغط الذي مارسه الوالي المســيحيين في الإسكندرية للتعبير عن شكرهم لقسطنطينوس على ما أبداه من حرص على قضيتهم.

لكن أثناسيوس بدوره لم يدَّخر جهداً في ممارسة نشاطه والدفاع عن نفسه. كتب إلى كل الجهات الممكنة مصوراً بألوان فاقعة تجاوزات غريغوري المزعومة واستغلاله لمنصبه. طالب الاساقفة الآخرين بقطع علاقاتهم تماماً مع رئيس الأساقفة الجديد (المتروبوليت). لكنه هاجم بالدرجة الأولى يوسيبيوس وأنصاره لكونهم فاعلي الشر الحقيقيين؛ وقد تحاشى في كل ذلك إيراد أية إشارة إلى شخص قسطنطينوس، على الرغم من إدراك الجميع بأنه لولا دعم القيصر ، لما تمكن الآخرون من تحريك ساكن.

بعد مغادرة الإسكندرية ظلّ أثناسيوس يتنقل دون توقف لفترة من الزمن. وقد وصف خصومه فيما بعد نشاطه آنذاك على النحو التالي:

«تنقل أثناسيوس في مختلف بلدان العالم، وتمكن من خداع بعض الأشخاص بمداهناته المضللة. ضلل :الأساقفة السذَّج غير المطلعين على جرائمه، والمصريين غير العارفين بأعماله. احتال عليهم للحصول على وثائق موقعة منهم، أثار الاضطرابات في أوساط الجماعات الآمنة، وأسس جماعات أخرى بطريقة تفتقر إلى الشرعية. ولما تأكد من عدم جدوى هذه الجهود هرع إلى يوليوس، إلى روما».

مارسيلوس الأنقري Ancyra

في العاصمة الواقعة على ضفاف التيبر، عثر أثناسيوس ــ أو ربما استقبل بعد وصوله بفترة وجيزة ــ على منفى آخر من الشرق. كان هذا مارسيلوس، أسقف Ancyra، أي أنقرة الحالية، عاصمة الدولة التركية. بات مصير هذين الرجلين متشابهاً منذ أمد بعيد.

عزلهما قسطنطين الكبير في حينه من منصبيهما الكنسيين كمثيرين للقلاقل. نُفيا إلى المقاطعات الغربية، وتمكنا بعد رحيل الإمبراطور من العودة إلى مقريهما بموافقة قسطنطين الثاني الشخصية. لكنهما تربعا على عرشيهما الأسقفيين ليغادراهما بعد وقت قصير. يبدو أن عزل مارسيلوس للمرة الثانية تمَّ بناء على مقررات مجمع القسطنطينية؛ المجمع الذي أصدر قراره بعزل بولس من القسطنطينية وتعيين يوسيبيوس خلفاً له بعد استدعائه من نيقوميديا. كانت التهم الموجهة لمارسيلوس شديدة الخطورة. وبعد مرور بضعة أعوام منحه أساقفة الشرق الشهادة التالية:

«بعد عودة المهرطق مارسيلوس احترقت المباني في أنقرة وحدثت صدامات مسلحة. جرَّ بنفسه المشايخ دون ملابس إلى الساحة، كما أنه ــ يجب القول بأسى عميق! ــ علَّق جسد الرب المقدس في أعناق الكهنة مرتكباً

جريمة التدنيس العلني والعام. وجرَّد العذارى اللاتي نذرن أنفسهن ليسوع من ملابســهن على مرأى من أعين الجميع، في الساحة وسط المدينة».

لا ريب في أن هذه الشهادة مجانبة للحقيقة، وبكل تأكيد تتضمن مبالغات كبرى؛ فعلى الأقل لا تشير إلى أسباب مثل هذه الأعمال الجنونية. أما في الواقع، فلا بدَّ وأن الأمور كانت بخلاف ذلك:

لا شك في أن مارسيلوس عامل خصومه بوحشية. فعل هذا، لأنه اعتبرهم هراطقة ومجدفين. وفي نظره لم تكن هناك أية أهمية لِما مارسوه من نشاط كهنوتي، كما كان تقديسهم للأوخارستيا باطلاً. رغب في إعلان ذلك على الملأ، وأقدم على الأعمال التي اعتبرها الخصوم بمثابة تدنيس. لكن الأسقف كان يهتف:

ـ عن أي تدنيس تتحدثون، ما دام هؤلاء الرجال ليسوا كهنة، وهذا الخبز ليس أوخارستيا؟

لم يرضَ الخصم بالبقاء مديناً له بطبيعة الحال. فالاضطرابات أدت إلى العراك، والشجار، وإشعال الحرائق.

الحقيقة أن الأسقف المضاد لمارسيلوس في أنقرة، وهو بازيلي، صُنِّفَ في عداد الآريوسيين، ولكن في الجناح الأكثر اعتدالاً بينهم. أما هرطقة مارسيلوس، فلا يرقى لها الشك. فتفسيره لحقائق الثالوث الأقدس كان خاصاً جداً وأدين من قبل جميع الأطراف. كان يقول: أن الابن، أي الكلمة، انبثقت من وحدة الله فقط من أجل خلق العالم وافتدائه؛ أي أنها الطاقة النشطة للجوهر الإلهي «Energie Orastike»؛ أما الروح القدس، فهو من الآب والابن؛ وبعد التحقق التام لعملية الفداء، سيصبح الله من جديد وحدة تامة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أثناسيوس الذي اعتبر نفسه المدافع الأكثر وفاء عن قانون الإيمان، تحالف مع مارسيلوس! ولا بدَّ من الاعتراف بأنه كان مصيباً من وجهة النظر التكتيكية. ففي تلك اللحظة لم تكن الخلافات

اللاهوتية الطفيفة ذات أهمية تذكر بالمقارنة مع ضرورة التصدي للخصم المشترك، أي لحزب يوسيبيوس.

نظر مسيحيو الغرب بنظرة أخرى مختلفة إلى النزاعات العنيفة التي كانت دائرة حول طبيعة المسيح في الشرق، والتي مزقت المسيحية منذ أعوام هناك؛ إذ لم يفهمها الجميع ولم يقدروا أهميتها. فبالنسبة لهم، وعلى نحو خاص بالنسبة لأسقف روما، كان الجانب التنظيمي ـ إن صحَّ القول ـ للتمزق الطويل الأمد لتلك الكنائس هو الأهم : فقد كان أساقفة الشرق المتخاصمون فيما بينهم يلجؤون إلى عاصمة بطرس بحثاً عن المساندة والدعم، ويعملون بذلك على تعزيز نفوذها.

شعر يوليوس بقوة موقفه، ودعا اليوسيبيوسيين ـ هكذا كان يدعوهم بكثير من الازدراء ـ لإرسال ممثليهم إلى روما، وذلك في موعد محدد وقريب نسبياً؛ وهناك كان عليهم عرض آرائهم فيما يخص قضية مارسيلوس وأثناسيوس.

توجه اثنان من مشايخ كنيسة روما إلى إنطاكية في مطلع ربيع سنة ٣٤٠ حاملين معهم رسالة بهذا المعنى. ولكن في تلك المرحلة بالذات حدثت تغيرات سياسية بالغة الأهمية داخل الإمبراطورية.

أوحال نهر ألسا

كان الجزء الأوسط من الإمبراطورية من نصيب قسطنطس، أصغر أبناء قسطنطين الكبير؛ وقد حدث هذا تلبية لرغبة الأب التي تمَّ تنفيذها بموجب الاتفاق بين الأبناء سنة ٣٣٧. وهو من حكم إيطاليا، وأفريقيا، والمقاطعات الألبية، وكامل البلقان على وجه التقريب. لكنه بقي من الناحية الشكلية تحت وصاية قسطنطين الثاني بسبب صغر سنِّه. غالباً ما أقام على مجرى الدانوب الأوسط وصدَّ بنجاح هجمات البرابرة القادمين من الشمال، ومن وراء النهر الحدودي الكبير. شجعته هذه النجاحات على أن يمنح نفسه لقب «سرماتيكوس» لأنه هزم القبائل التي عُرفت بالسرماتية، وعبَّر عن ميل شديد للاستقلال فيما يخص السياسة الداخلية. أقلق هذا الشيء الأخ الأكبر الذي أقام بصورة دائمة فيما وراء جبال الألب، في غالة، والذي أعلن بغتة أنه تعرض للغبن أثناء تقسيم مقاطعات الإمبراطورية، وأن إيطاليا وأفريقيا يجب أن تكونا من نصيبه.

تلقى قسطنطس نبأ هذه المطالبة في مقر إقامته في آذار من سنة ٣٤٠ ومعه أخبار تنذر بالخطر: اجتاز قسطنضين جبال الألب دون أن يأبه بمخاطر الطريق في تلك الفترة المبكرة من السنة، وزحف بسرعة نحو الشرق عبر

إيطاليا! وقد قيل أن الغازي حاول أن يراوغ، وادعى بأنه يقود جيوشه ليقدم المساعدة لقسطنطينوس الذي كان يخوض معارك ضارية ضد الفرس.

أقام قسطنطس آنذاك في مدينة نايسوس، أي نيش اليوغسلافية حالياً. ولقطع الطريق على أخيه كان مرغماً على نقل الجزء الأكبر من الجيش عبر جبال الألب الشرقية على الفور؛ وبما أن هذا الشيء بدا غير قابل للتنفيذ، اقتصر على إرسال وحدات الحراسة الأمامية المتمرسة في الأعمال القتالية.. بينما تابع قسطنطين الثاني زحفه إلى الأمام دون أن يواجه مقاومة في أي مكان، وكان على قناعة تامة بأن أحداً لن يعترض طريقه. بدا المخطط غاية في البساطة : أراد السيطرة على وادي نهر الباد ليعزل بذلك أخاه عمّا تبقى من إيطاليا وأفريقيا؛ ويبقيه فقط في البلاد التي كان له أن يتكرم بها عليه كغازٍ، أي في المقاطعات البلقانية.

كانت جيوش قسطنطين قد اقتربت من أكويليا، أي من منطقة تريست الحالية، وهناك اصطدمت مع الوحدات التي سيَّرها قسطنطس. انهارت الأخيرة وتشتتت على الفور. فطاردها جنود قسطنطين الثاني دون أي نظام والبهجة تغمر قلوبهم. لكن الفارين توقفوا بغتة، وعادوا لخوض المعركة من جديد ! وفي اللحظة ذاتها تعالت صيحات مرعبة خلف المطاردين؛ حيث بدأ رجال قسطنطس الذين نصبوا الكمين هجومهم.

هكذا وجد المنتصرون المزعومون أنفسهم محاصرين من الجانبين، فأرعبهم مجرى الأحداث غير المتوقع، ولم يبدوا أي أثر للمقاومة. وسقط في المعركة قسطنطين الثاني نفسه. أصيب أحد جياد مركبته بسهم أو طعن برمح، فانتفض مما أدى إلى سقوط القيصر الذي كان جريحاً أيضاً على الأرجح في مياه نهر ألسا الموحلة. عثر على جثته فيما بعد وسط الأوحال المتجمعة على الضفة. عندما قتِل في الحرب التي أضرم نارها بنفسه بين الأخوة لم يكن قد بلغ الثلاثين من العمر بعد.

سيد الغرب الجديد

وصل قسطنطس إلى الأراضي الإيطالية، إلى أكويليا، وبعد انتهاء المعركة. وصف في أحد مراسيمه الأولى التي أصدرها في هذه المدينة أخاه بالعدو «عدوّنا وعدوّ الشعب» فحتى اسم قسطنطين الثاني تعرض للمحو الرسمي من الذاكرة؛ حيث شطب رسمياً من كل المدوَّنات. إنه المصير الطبيعي لجميع المهزومين في الإمبراطورية الرومانية ! وعلى أي حال، أدين قسطنطين الثاني بعنف وعلى نطاق عام، ورأى الجميع أنه نال جزاءه العادل عن الحرب التي أثارها.

وهكذا أصبح للإمبراطورية منذ عام ٣٤٠ حاكمان فقط. لكن السلطات الممنوحة لكل منهما كانت متباينة إلى أقصى الحدود فقسطنطينوس، الأكبر سناً، بقي في شرقه، لم يحقق أية مكاسب من جراء رحيل أخيه، لكنه وجد نفسه مرغماً على الاستمرار في محاربة الفرس. أما قسطنطس الذي لم يكد أن يبلغ العشرين من عمره، فقد بسط نفوذه على ثلثي الإمبراطورية، وتحديداً على كافة البلدان التي تكلمت اللاتينية، بالإضافة إلى بعض المقاطعات الإغريقية الأصيلة في شبه جزيرة البلقان.

لم تنقل المصادر القديمة أية سمات لقسطنطين الثاني، فهو لم يحكم إلا فترة وجيزة. لكنها رسمت صورة قسطنطس بوضوح. كان رجلاً نشيطاً. لم

يتوقف عن التجوال في مناطق واسعة من المقاطعات الخاضعة له، وفرض النظام على الجيش بيد صلبة. كما كان مسيحياً شديد الحماس، وشديد الكرم في تقديم الهبات للكنائس، ومصمماً على الحدّ من العبادات الوثنية. وهو الوحيد بين اخوته الذي تقبل سرّ المعمودية. ففي تلك الأيام، غالباً ما خضع الحكام لهذه الطقوس مع دنوّ الأجل، لاعتقادهم بأن المعمودية تغسل كافة الذنوب مهما عظمت، وكلّ الآثام التي اقترفت حتى لحظة تقبل هذا السر؛ رأي وممارسة ملائمان تماماً، وخاصة للسياسيين. لكن قسطنطس تعمّد في مرحلة مبكرة نسبياً.

لكن قناعات القيصر الشاب الدينية، الصادقة بلا ريب، عمّقت في داخله أغلب الظن حالة الصراع النفسي والأخلاقي الأليمة. فقسطنطس كان لوطياً. وكانت المسيحية تدين بحدة مطلقة كل مظاهر الشذوذ الجنسي، لتضع بذلك نهاية لما أبداه الوثنيون من تسامح في معالجة قضايا الجنس، حتى الشاذ منها. وهكذا كانت مراسيم قسطنطس عاصفة في مناهضتها للشذوذ الجنسي، وأُحاط نفسه في الوقت ذاته بلفيف من أجمل الفتية وأكثرهم وسامة، حيث جاء بهم من مختلف البلدان؛ كان مغرماً بشكل خاص بالصبية الجرمان المرسلين من المناطق الواقعة خلف نهر الراين بصفة رهائن. لكنه لم يتمكن أبداً من اتخاذ القرار بالزواج من أولمبيا ابنة أبلابيوس مدير الإدارة المدنية في عهد قسطنطين الكبير الذي قتل غدراً بأمر من قسطنطينوس سنة ٣٣٧ بعد رحيل قسطنطين الكبير بفترة وجيزة. احتفظ بها قسطنطس لأعوام في بلاطه بصفة خطيبة. لا ريب في أنه حاول في البداية أن يعزو الأمر لأسباب سياسية، أو الإعلان بأن الفتاة لا تزال صغيرة السن. ولكن الأسباب الحقيقية لتأجيل الزفاف أضحت جلية للجميع فيما بعد. وبقي أقرب أصدقاء قسطنطس من الكهنة وحدهم يحاولون إقناع المؤمنين بأن محبة القيصر للفضيلة والعفة بلغت حداً يمنعه من الاقتراب حتى من خطيبته.

لا شك في أن التناقض الصارخ بين القناعات الدينية والمتع اليومية الجارية لم يكن يسهّل على قسطنطس المحافظة على التوازن والهدوء

الداخليين. كما عانى أيضاً من أمراض مختلفة دوماً، رأى فيها هذا وذاك ــ ربما هو نفسه ــ عقاباً سماوياً على نمط حياته غير السويّ؛ فقد تعرض لآلام حادة في المفاصل ازدادت قوة بمرور السنين حتى كادت أن تقعده تماماً.

أثناسيوس وموت قسطنطين الثاني

قبل أعوام ثلاثة، في عام ٣٣٧ حرر قسطنطين الثاني فور وفاة والده أثناسيوس وعدداً آخر من أساقفة الشرق المنفيين في المقاطعات الغربية؛ وسمح لهم بعطف زائد بالعودة الفورية إلى عواصمهم الأسقفية السابقة. قد يبدو أنه في ذلك الوقت، في ربيع عام ٣٤٠ تعرض أثناسيوس المنفي من جديد لضربة قاضية. فالقيصر الذي كان يحميه ويدعمه لم يمت فحسب، بل صنّفه المنتصر كعدو للشعب.

لكن أسقف الإسكندرية الذي أقام آنذاك في روما، لم يشعر بهذه الخسارة على نحو مؤلم. لأنه سرعان ما تبين أن نفوذه وأهميته لا يعتمدان فقط على شخص القيصر قسطنطين الثاني، وإنما على التأييد الحاسم للجماعات المسيحية في أرجاء الغرب. والأهم من ذلك، كانت الوحدة السياسية للجزء الأكبر من الإمبراطورية وتركيز القرار في يد واحدة ذا نفع كبير لقضيته، وذلك لأسباب بسيطة: وجب على حاكم الغرب بطبيعة الحال اتخاذ موقف معارض بشكل ما من حاكم الشرق، حتى لو لم يكن هذا الموقف متخذاً عن وعي وتخطيط مسبق؛ وبما أنه كان أقوى، أمكن له ممارسة تأثير جوهري على كافة مجالات حياة الإمبراطورية بأسرها؛ أما فيما يتعلق بالأمور الكنسية، فقد التزم بأمانة بنصائح أساقفته المتعاطفين مع أثناسيوس.

في سنة ٣٤٠ ـــ ربما بالتزامن مع حملة وكارثة قسطنطين الثاني ـــ وطئ اثنان من مشايخ كنيسة روما أرض إنطاكية، وسلّموا اليوسيبيوسيين رسالة يوليوس. لكنهم لم يتلقوا الإجابة سريعاً؛ انتظراها بضعة أشهر. تعمَّد حزب يوسيبيوس التصرف على هذا النحو دون أسباب موجبة لذلك. أراد أسقف روما أن تُبحَثَ قضية أثناسيوس من جديد؛ حيث كانت صفحتها في نظر الشرق قد طويت نهائياً منذ سنة ٣٣٥، أي بموجب مقررات مجمع صُور الكنسي. وفي الآونة الأخيرة كانت مشكلة خلافة أثناسيوس قد حُلَّتْ بتعيين غريغوري القبدوقي خلفاً له؛ عزَّز هناك مواقعه مع مرور كل شهر، على الرغم من أن أثناسيوس لم يدَّخر جهداً في وضع العراقيل أمامه، وذلك عن طريق الاستمرار في توجيه الرسائل إلى أنصاره في مصر، والذهاب إلى أبعد من ذلك، بتعيين أساقفة في الأبرشيات الشاغرة.

كان هناك سبب آخر يدعو للتريث في الإجابة، سبب سياسي صرف. أراد يوسيبيوس ومحازبوه معرفة الموقف الذي سيتخذه القيصر الظافر في الغرب من أثناسيوس. ولمَّا تأكدوا في نهاية المطاف بأن هذا الموقف لا ينسجم وآمالهم، قاموا بإعداد كتاب موجه ليوليوس، وسلَّموه لمشايخ كنيسة روما.

مجمعان كنسيان في روما وإنطاكية

كان الكتاب نتاج عمل عشر وبضع من أساقفة الشرق، وكان حازماً في نبرته، ولم يخلُ من بعض الإيماءات الساخرة. أشار محررو الرسالة إلى الحجج والبراهين الشكلية والمادية التي وُجه بها أثناسيوس منذ زمن طويل. رفضوا بحزم مبدأ الامتياز الذي منحه أسقف روما لنفسه بالقوة، وأعلنوا بصورة احتفالية أن مقررات المجامع الكنسية نهائية، ولا يحق لأي كان استئنافها لأية جهة أعلى.

في تلك الأثناء، وقبل أن تصل الرسالة إلى العاصمة الواقعة على ضفاف نهر التيبر، انعقد هناك مجمع كنسي ضمَّ مئة وخمسين من أساقفة إيطاليا تلبية لدعوة يوليوس الذي نفذ صبره بسبب انتظاره الطويل للرد المتوقع من الشرق. برأ المجمع كلاً من أثناسيوس ومارسيلوس من التهم الموجهة إليهما. وكان على أسقف أنقرة توقيع تصريح رسمي يؤكد فيه أرثوذكسيته. كان في وسع المحلل الدقيق أن يعترض على بعض النقاط التي وردت في التصريح، لكن الغرب لم يكن ضليعاً بعد بتلك التفاصيل اللاهوتية الرهيفة.

كان الرد على مجمع روما عقد مجمع كنسي في إنطاكية في مطلع عام ٣٤١. اجتمع أساقفة الشرق هناك لتقديس الكنيسة الرئيسة في اليوم السادس

من كانون الثاني. بوشر العمل ببنائها على مقربة من القصر الإمبراطوري داخل جزيرة وسط نهر Orontes (العاصي) في عهد قسطنطين الكبير. كان المبنى المثمن الأضلاع ضخماً تعلوه قبة عالية مذهبة؛ ولذلك أجمع على تسميته بالبيت الذهبي، على الرغم من أن اسمه الرسمي كان Homonia هومونيا، أي الوفاق. وكما هو معروف على نطاق واسع، فإن الإمبراطور الراحل كان يميل لمنح دور العبادة المسيحية أسماء عامة، ذات معان فلسفية أكثر مما هي دينية؛ تكفي الإشارة هنا إلى باسيليقا صوفيا، أي الحكمة، وإيرين، أي السلام، وكلتاهما في القسطنطينية.

شارك في أعمال المجمع ـ الذي أطلق عليه اسم التكريس ـ ما يقارب المئة أسقف من كافة أهم مدن الشرق. ترأس الجلسات القيصر قسطنطينوس شخصياً، حيث اعتاد على قضاء فصل الشتاء في إنطاكية بالذات لنيل قسط من الراحة من عناء الحرب. وبفضل وجود القيصر بدا المجمع شبيهاً بمجمع نيقيا الذي افتتح أعماله قسطنطين الكبير قبل ستة عشر عاماً. لم تُحفظ بروتوكولات الجلسات أو النصوص الكاملة للمقررات. لكننا نعرف أن المؤتمرين أدانوا سلوك أثناسيوس وتعاليم مارسيلوس الهرطقية، معلنين أيضاً القطيعة مع الآريوسيين المتطرفين. وهذا ما يستنتج من قوانين الإيمان الأربعة التي أقرَّت في إنطاكية، والتي بقيت على صـلة وثيقة بروح «قانون الإيمان» النيقي، لكنها لم تتضمن عبارة «مساوٍ للآب في الجوهر». وبدلاً من ذلك قيل أنه «شبهُ الجوهر» الإلهي. إن مجرد إقرار أربع صيغ يشير بوضوح إلى حدة النزاعات اللاهوتية ومقدار ما بذل من جهد لإيجاد صيغة ترضي الجميع.

موت يوسيبيوس واضطرابات القسطنطينية

لعب يوسيبيوس الدور الأساسي في انعقاد المجمع، لأنه كان منذ أعوام يحتل مكان الصدارة بين أساقفة الشرق؛ اتخذ في المواضيع اللاهوتية المتنازع عليها موقفاً وسطاً ما بين التفسير الضيق لقانون الإيمان النيقي والعقيدة الآريوسية، علماً أنه أبدى تعاطفاً واضحاً مع الأخيرة ــ ولو لمجرد تشعب علاقاته مع قادتها. دافع باستمرار عن هيبة المجامع الكنسية، وأصرّ دوماً على عدم جواز مخالفة مقرراتها. وعلى الرغم من النفوذ الهائل الذي تمتع به، لم يطالب أبداً لنفسه أو لأبرشيته بأية امتيازات خاصة، بعكس ما فعله أساقفة الجماعة المسيحية في روما، وفي الإسكندرية أيضاً إلى حد ما.

على صعيد الحياة الداخلية للكنيسة أصرّ على قواعد المساواة والتعاون بين جميع الأساقفة، وعارض بحزم أولوية أيٍّ كان، وعلى نحو مشابه كان يطمح بالتعاون مع السلطات المدنية دون الخضوع لها خضوعاً سلبياً، ودون محاولة خلق دولة داخل الدولة. ولهذا السبب كان موقف أثناسيوس الذي تصرف في مصر وكأنه سليل الفراعنة، ومارس سلطة مطلقة على كامل سلك الإكليروس هناك، غريب الأطوار من وجهة نظر يوسيبيوس. بينما حظي

بطريرك الإسكندرية بتفهم ودعم تامَّين من جاب أساقفة روما الذين راودتهم الأفكار والقناعات ذاتها من حيث المبدأ.

لهذه الأسباب كان موت يوسيبيوس، أمير الكنيسة الحقيقي، خسارة أليمة وغير قابلة للتعويض، لكامل المعسكر الليبرالي في مسيحية ذلك العصر – الليبرالي بالمعنى التنظيمي والإداري بطبيعة الحال؛ لكن موته يَسَّرَ في الجانب الآخر عمل أثناسيوس وحماته في الغرب. كما كان سبباً لحدوث اضطرابات عنيفة في القسطنطينية.

توفي يوسيبيوس بعد انعقاد مجمع إنطاكية ببضعة شهور، أي في أواخر سنة ٣٤١، وفي الحال بدأ الصراع على العرش البطريركي الشاغر في العاصمة الواقعة على ضفاف البوسفور. عاد إلى المدينة راعيها الأسبق بولس، كما جاء أسكيلياس أسقف غزَّة لمساعدته. بينما اتخذ أساقفة آخرون جاؤوا من المدن المجاورة قراراً بتعيين أحد المشايخ المعروف باسم مقدونيوس خلفاً ليوسيبيوس. وهكذا برز على الساحة حزبان اصطدما معاً ليس في الشوارع فحسب، بل في الكنائس أيضاً، حيث لقي كثيرون حتفهم أمام الهياكل.

كان قسطنطينوس كعادته يمضي الشتاء في إنطاكية. ولدى تلقيه نبأ الاضطرابات الخطيرة على ضفاف البوسفور، أمر قائد الفرسان هيرموجينس الذي كان في طريقه إلى الحدود على ضفاف الدانوب، بإعادة الهدوء والنظام إلى القسطنطينية، وإبعاد بولس منها. أخرج الجنود الأسقف من الكنيسة، فهاجمهم الجمهور الغاضب، واختطف راعيه من أيديهم، ثم أحرق المنزل الذي أُقام فيه هيرموجينس. حاول القائد الفرار لإنقاذ نفسه، لكنه وقع بين أيدي الغوغاء وقتل، ومُزِّقَ إلى أشلاء بشكل وحشي. كما أصيب موظف مرموق آخر هو نائب القنصل بجراح بالغة؛ لكن الأخير تمكن من مغادرة المدينة.

كان الوقت لا يزال شتاء، وهو الفصل غير الملائم للتنقلات. وعلى الرغم من ذلك غادر قسطنطينوس إنطاكية على الفور. لم تمنعه من ذلك

الطرق الموحلة، أو البرد القارس، أو الأمطار الغزيرة. وبعد فترة قصيرة نسبياً بلغ شواطئ البوسفور، ودخل المدينة بغتة. استقبله السكان بالبكاء وهم يطلبون الرأفة بإتضاع. ففي تلك اللحظة فقط، حيث أصبح السيف مسلطاً على أعناقهم، أدركوا حجم وفظاعة الجريمة التي ارتكبوها : رفعوا أيديهم على واحد من أرفع المسؤولين في الدولة وهو يقوم بمهمته بأمر صادر عن الحاكم مباشرة.

يمكن أن نتصور بأن توسل السكان قد أجدى، فقد عامل قسطنطينوس سكان المدينة التي هزّتها الاضطرابات بقدرٍ عالٍ من التفهم. فالعقوبة القصوى التي تعرض لها مجموع السكان، كانت متمثلة في تخفيض مخصصات القمح المصري التي تمَّ توزيعها على المواطنين بناء على قرارات نافذة منذ أيام قسطنطين الكبير، إلى النصف. وبطبيعة الحال أرغم بولس على مغادرة العاصمة، حيث نفي إلى حمص Emes في سوريا. كما أن القيصر لم يعتمد انتخاب وتعيين مقدونيوس، فبقيت الجماعة المسيحية دون راع روحي لعشرة سنين. لكن هذه المعاملة الوديعة نجمت عن أسباب سياسية؛ أملاها التقييم الصحيح لشؤون الساعة. توجَّب على قسطنطينوس أن يكون متروياً وحليماً وألا يلجأ إلى القسوة، لأن هذا الشيء أمكن أن يقود إلى تمرد لا تحمد عقباه بالنسبة له. فشقيقه قسطنطس كان متربصاً!.

ماكيللوم

بسبب شقيقه ذاك ارتأى قسطنطينوس ضرورة اتخاذ الاحتياطات الضرورية لتلافي حدوث أية مفاجأة عائلية. فكر بالفتيين، اللذين كانا الآن الممثلين الذكرين الوحيدين للأسرة الحاكمة إلى جانب القيصرين ـــ غالوس الذي كان قد بلغ السادسة عشرة وظلّ مقيماً في أفسس، ويوليان ذو الأعوام العشر في القسطنطينية أو نيقوميديا. كانا يسببان القلق، وأمكن لهما أن يصبحا خطرين. ففي بلاط قسطنطينوس، وتحت تأثير الانطباع الذي تركته الاضطرابات الأخيرة، بدأت تطرح مثل هذه الأفكار:

قد يفر الأميران الشابان في المستقبل القريب إلى قسطنطس. وقد يطالب بهما هو، ليضعهما في اللحظة الملائمة في مواجهة قسطنطينوس فيما لو حاول ممارسة سياسة أكثر استقلالية ـــ فيما يتعلق بالقضايا الكنسية على سبيل المثال. ولا يمكن إلغاء احتمال وقوف غالوس ويوليان على رأس حركة معارضة كبرى وهما راغبان أو مرغمان من قبل الجمهور، في حال نشوب اضطرابات جديدة. وما الذي سيفعله الجيش آنذاك، وكيف سيتصرف قسطنطس؟

أدرك مستشارو القيصر جيداً، أن الفتيين لم ينسيا مقتل والدهما، وعمهما وأبناء عمومتهما. فتساءلوا:

من يضمن أنهما لن يحمّلا قسطنطينوس بالذات مسؤولية تلك الأحداث الدامية؟ وإن لم يفعلا هذا بنفسيهما، ما هو السبيل الوقائي لمنع المفترين في المدينة الكبيرة من طرح أفكار كهذه أمامهما؟

لم يكن الأسقف يوسيبيوس في عداد الأحياء آنذاك، فربما تمكن هو، الرجل الجاد والمتنفذ، من تجنيبهما مثل هذه الصدمة القاسية التي كانت تهددهما. لا ريب في أنه كان سيقف بحرارة أكبر إلى جانب يوليان الأصغر سناً والمرتبط به بعلاقة قرابة، أما في تلك الحالة، فلم يكن هناك من يدافع عن اليتيمين.

وهكذا اتخذ القرار:

يجب إبعاد غالوس ويوليان ما أمكن عن الأوساط المدنية الكبرى التي تقيم علاقات حيوية ويسيرة مع الغرب. سينقلان إلى مكان بعيد، معزول، ومهجور.

نُفِّذَ الأمر بصرامة وعلى جناح السرعة خلال عام ٣٤٢. واضطر يوليان لهجر كل ما اعتاد عليه منذ الأشهر الأولى لحياته. ودَّع البحر، والقسطنطينية، ونيقوميديا، ومنزله، وقريته. ووجب عليه أن يفارق معلمه المحبوب مردونيوس أيضاً. وكان بعد أعوام من ذلك الحين يعترف أن فراقه سبب له ألماً خاصاً.

نُقل الأخوان إلى مكان بعيد في الشرق، إلى هضاب آسيا الصغرى، إلى بلد يدعى قبدوقية. كانت هناك ممتلكات خاصة بالإمبراطور عُرِفت باسم ماكيللوم، واقعة في منطقة رائعة الجمال، وسط الهضاب والغابات، وعلى سفح جبل أرغايوس، على بعد بضع ساعات سيراً على الأقدام من قيصرية، المدينة المزدهرة آنذاك. أحاطت بالقصر حدائق تدفقت عبرها جداول لا تجف حتى أثناء قيظ الصيف. كان تحت تصرف الفتيين خدم ومربون، وكان بوسعهما أن يتعلما، ويتدربا في الصالة الرياضية، ويمارسا رياضة الفروسية، والصيد؛ مارس ضروب هذه التسلية بشكل خاص غالوس الذي لم يبدِ في

المقابل لهفة لتكريس وقته للنشاط الذهني. استمرت الإقامة في ماكيللوم ست سنوات، أي لفترة طويلة. ما هي نظرة يوليان فيما بعد إلى هذه المرحلة؟

يوليان عن إقامته في ماكيللوم

«الشيء المعروف على أوسع نطاق أن النسب من جهة الأب واحد لي ولقسطنطينوس؛ فأبوانا كانا أخوين، كان لهما أب واحد. وإليكم كيف عاملني أنا القريب إلى هذا الحد، ذاك القيصر ذو الميول الإنسانية المزعومة: قتل ستة من أبناء عمي وعمه؛ ووالدي الذي كان عمَّه؛ وعمّاً آخر مشترك بيننا؛ وأخيراً أخي الأكبر. ثم أراد قتلي وقتل أخي الثاني، لكنه رضي أخيراً بالنفي.

«أيجب عليَّ الآن أن أسرد ــ كما يحدث في عمل مأساوي ــ جرائمه التي يتعذر وصفها فعلاً؟ أجل، يقول البعض:

«ــ القيصر نادم على كل ما حصل. يتألم كثيراً نتيجة تأنيب الضمير المؤلم. ويعتقد أن هذا هو سبب ما أصابه من تعاسة بانعدام القدرة على الإنجاب. كما يظن أن الأحداث ذاتها هي سبب فشله المستمر في الحرب مع الفرس.

«هذا ما كان يقوله رجال البلاط لي ولأخي. حاولوا إقناعنا بأن قسطنطينوس أقدم على ذلك الفعل وهو مخدوع جزئياً، ومتراجعاً أمام عنف الجيوش الهائجة وغير المنضبطة. بمثل هذه الكلمات حاولوا تخديرنا ونحن

سجينان في إحدى الممتلكات العقارية في قبدوقيا. لم يُسمح لأيٍّ كان بالاقتراب منا. من أخي الذي اختطف عنوة من دراسته، أو مني أنا الذي اختطفوني من المدرسة كصبي صغير.

«بأية كلمات اصف تلك السنوات؟ أمضيناها في ممتلكات غريبة كالسجناء الذين فُرِضت عليهم حراسة مشددة في القلاع الفارسية. لم يتمكن أيٌّ غريب من التفاهم معنا. لم يسمح لمعارفنا القدماء بالإقامة معنا. عشـــنا في عزلة عن أية علوم جادة وعن أية علاقات ثقافية. تربينا وسط حشد رائع من الخدم، وأرغمنا على ممارسة التمارين في الصالة الرياضية مع عبيدنا، وكأنهم رفاق متكافئون معنا. لأنهم لم يسمحوا لأحد من أقراننا بالدخول إلى ذلك المكان.

«وإذا كانت بعض السمات الحادة قد برزت في طبع أخي من قبل، فقد تعمقت أكثر نتيجة تربيته في الجبال. أقولها صراحة أن مسؤولية ذلك تقع كلياً على الشخص الذي فرض علينا ذلك النمط من الحياة».

رؤية شاهد محايد

في تلك الأعوام بالذات، عندما كان يوليان مقيماً في ماكيللوم، باشر الدراسة في مدارس قيصرية قبدوقيا صبي من أقرانه يدعى غريغوريوس، ولد حوالي عام ٣٣٠ في المدينة الصغيرة المجاورة «نزينز». كان والده المدعو أيضاً غريغوريوس يحتلّ منصب أسقف تلك الجماعة، أما والدته نونّا، فقد رفعت فيما بعد إلى مصاف القديسين.

وهكذا كان غريغوريوس الفتي قريباً لكل من غالــوس ويوليان لردح من الزمن، حيث لم يبعدا عن قيصرية أكثر من بضع ساعات من السير على الأقدام. فلا غرابة إذن في أنه كأي إنسان آخر في المنطقة أبدى اهتماماً بحياة ومصير شابين ينتميان إلى الأسرة الحاكمة، نفيا بأمر من الحاكم إلى مكان بعيد. لا شك في أن المعلومات كانت متوفرة، لأن ماكيللوم على الرغم من كل شيء لم تكن سجناً؛ وكان تحت تصرف الأميرين عدد كبير من الخدم، كما أنهما ظهرا علناً بين الحين والحين، وأمكن لبعض المختارين التحدث معهما.

بعد أعوام من الدراسة والترحال أضحى غريغوريوس النزينزي واحداً من أشهر اللاهوتيين، والكتّاب المسيحيين، وعدواً لدوداً ليوليان. على هذين —

الإنسانين المتقاربين في العمر، اللذين تزاملا فيما بعد لفترة من الزمن في مدارس أثينا ــ ينطبق قول الشاعر: قدِّرت لهما شهرات ومصائر مختلفة.

لرواية غريغوريوس عن إقامة الأميرين في ماكيللوم طابع خاص. فهي رواية شاهد وقريب، وتكاد أن تكون شهادة شاهد عيان، لكنها في آن واحد متحيِّزة بشكل علني ومنهجي، أي أنها مشوهة. فما أغرب فيها تقييم الأحداث الدامية لسنة ٣٣٧، وكم هي ملتوية الأساليب التي يحاول فيها تبرير أسباب وجود الأخوين في قبدوقيا! وها هي كلمات غريغوريوس نفسه: «عندما آلت السلطة إلى قسطنطينوس العظيم بعد رحيل والده، أنقذ يوليان. وبما أن الجيش رفع السلاح في وجه الحكومة، قام بانقلاب خشية حدوث الانقلاب. وهكذا أنقذه قسطنطينوس برفقة أخيه بأسلوب عجيب وبعكس كل التوقعات. أما هو، فلم يشكر الرب أو الحاكم على ذلك. وإنما العكس، حيث أثبت غياب الاستقامة والأمانة نحو كليهما معاً، بالجحود مع الأول، والتمرد على الثاني. ولكن قبل أي شيء آخر لا بد لي من القول بأن هذا القيصر الذي فاقت إنسانيته كل الحدود، اعتبرهما جديرين بحياة ملكية، وبأن يتلقيا تربية ملائمة في إحدى ممتلكاته. كما رغب القيصر في أن يبعد عن نفسه الشبهات المرتبطة بالانقلاب الذي حدث في بداية عهده؛ لأن ما حدث آنذاك كان خارج إرادته. كما أراد أن يبرهن عن شهامته باقتسام السلطة معهما. ومن ناحية ثالثة رغب في تدعيم ركائز السلطة.

تتحدث الجمل الأخيرة عن الأحداث اللاحقة بطبيعـــة الحال، أي عن منح كل من غالوس ويوليان لقب قيصر، وسوف نتحدث عن الظروف التي دفعته للقيام بذلك لاحقاً. لكن غريغوريوس كتب هذه الإشارة في روايته عن ماكيللوم على الرغم من أنها كانت تعود للمستقبل آنذاك؛ وهذه خطوة ذكية، لأن القارئ غير المطلع لا بد وأن يصل إلى نتيجة مفادها أن فترة الإقامة الجبرية في جبال قبدوقيا كانت بالنسبة للأميرين مجرد إعداد خُطِطَ له لتولي أعلى المناصب. وما أرق الأسلوب الذي أشار فيه غريغوريوس إلى التنكيل بالأسرة الإمبراطورية! فهو مجرد» انقلاب حدث في بداية توليه السلطة».

وعلى وجه العموم يجب القول أن اللاهوتي العالم يتكلم بدفء عن قسطنطينوس. قسطنطينوس الذي أيّد الآريوسيين بحماس منقطع النظير، واضطهد أثناسيوس بعناد في الوقت الذي كان غريغوريوس نفسه يحارب الآريوسيين، ويمجد أسقف الإسكندرية. يتضح من ذلك أن كراهية غريغوريوس ليوليان كانت أقوى دوافعه، حيث بهتت أمامها وفقدت أهميتها كل العواطف الأخرى، كل القناعات والأحقاد.

الإكليريكي الورع يوليان

هاكم ما تبقى من رواية غريغوريوس: «هكذا عاشا بهدوء وفي منأى. فقد كان لهما أن يمارسا السلطة فيما بعد، وهذا ما تمَّ التفكير به آنذاك؛ كانا أصغر سناً من أن تسند لهما مهام وإن كانت قليلة الشأن. وضِع هناك تحت تصرفهما أساتذة متخصصون في شتى فروع المعرفة؛ والأهم من ذلك أن القيصر شخصياً أشرف على تأهيلهما العام».

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا «القيصر الإنساني إلى أبعد الحدود «جاء (سنتحدث عن ذلك فيما بعد) إلى ماكيللوم مرة واحدة، ولفترة قصيرة فقط. فبأي أسلوب إذن اهتمَّ أو أشرف على «التأهيل العام» لقريبيه الشابين؟ ربما يقصد غريغوريوس هنا اهتمامه الشخصي باختيار المعلمين، والحراس، والمخبرين.

لكن أكثر ما يشدُّ في روايته هي الكلمات التالية: «تعمّقا أيضاً في دراسة فلسفتنا. ولم يقتصر الأمر على العقيدة فحسب بل تجاوزاها إلى الممارسات التقية. احتكا بأكثر الرجال وقاراً؛ وعمدا إلى التصرف بنبل مؤملٍ بفضائل عظيمة. لم يتوانيا في الانضمام إلى سلك الإكليروس للتمكن من قراءة الأسفار المقدسة على مسامع الناس من عامة الشعب. وأمكن لهما أن يتباهيا بورعهما كأجمل حلية».

في ضوء هذه الشهادة يبدو من المؤكد أن الأخوين مارسا بعض الوظائف الإكليريكية الدنيا، ربما كقارئين للنصوص المقدسة على مسامع الناس في الكنائس القريبة. وإذا صحَّ هذا الافتراض فلا بد وأنهما تلقيا سر المعمودية في وقت مبكر نسبياً ـــ أقله فيما يتعلق بتقاليد ذلك العصر. وهذه بدورها خطوة مفهومة تماماً، لأن الأخوين ترعرعا منذ نعومة أظفارهما في أحضان الديانة الجديدة، وقد لا تكون الضغوط الخارجية ضرورية هنا؛ فقد انخرطا طوعاً وبكل صدق في صفوف جماعة المؤمنين، متلهفين لخدمتها وفق معرفتهما. وهذا ما يمكن استنتاجه من رواية غريغوريوس اللاحقة: «برهنا عن محبتهما لتعاليم يسوع ببناء تماثيل رائعة للشهداء، وتقديم الهبات بكرم لا يعرف الحدود. كما مارسا كافة الأعمال التي تنمُّ عن مخافة الله. فها هو واحد منهما، وعلى الرغم من حدَّة الطبـــاع، ملتزم فيما يخص أمور العقيدة؛ أما الثاني، فقد استغلَّ الظروف وأخفى طبعه الغدّار تحت قناع الشرف».

صاحب الطباع الحادة، والورع في أعماقه، هو غالوس بطبيعة الحال، أما المنافق فهو يوليان. تُلقي كلمات الإطراء هذه الموجهة إلى غالوس بعض الضوء على البنية النفسية لغريغوريوس ذاته، وعلى أسلوبه في المعالجة والنقاش؛ فسرعان ما سنتأكد بشكل قاطع من الطريقة التي تجلَّت بها «حدَّة الطباع» المشار إليها بلطف هنا لدى الأخ الأكبر.

هناك حدث آخر من فترة إقامة الأخوين في ماكيللوم يشهد عليه المدافع المسيحي غريغوريوس: «أبدى كلاهما حماساً كبيراً في تكريم ذكرى الشهداء، وقد تنافسا بنبل في هذا المضمار. شيَّدا المعابد دون أن يدَّخرا جهداً أو مالاً. لكن الدوافع لعملهما هذا كانت مختلفة، ولذلك بدت ثمار العمل أيضاً مختلفة. فالأول، أي الأخ الأكبر غالوس، أنجز عمله بنجاح تام كما كان راغباً. بينما لم يتقبل ربُّ الشهداء تقدمه الثاني، نظر إليها بازدراء وكأنها ذبيحة هابيل! وعلى الرغم من أنه بنى ما بناه بالعمل المضني، فقد أزالت الأرض عن سطحها الأشياء التي تطلّب بناؤها كل ذلك الجهد. أصرَّ يوليان على تنفيذ

مخططه، لكن الأرض رفضت تقبل الأساسات التي وضعها ذلك الرجل الذي تظاهر بالورع».

يستنتج من مصادر معاصرة أخرى أن الحديث هنا يجري عن بناء ضخم شيَّده الأخوان ــ وبدقة أكبر شُيِّدَ على نفقتهما ــ تكريماً لشهيد ذاع صيته آنذاك في تلك المناطق، وعُرِفَ باسم «ماما». يبدو أن المعبد انهار أو تصدع نتيجة زلزال ضرب المنطقة، وهذا شيء يتكرر حدوثه هناك. وعلى أي حال ملأ الحدث قلب غريغوريوس فرحاً، إذ منحه فرصة مواتية لشن هجماته اللاذعة.

جيورجيوس القبدوقي

كان هناك شخص آخر شعر نحوه غريغوريوس بكراهية لا تقلُّ عمًّا شعر به نحو يوليان، وقد عُرِفَ باسم جيورجيوس، وانحدر بدوره من أصول قبدوقية؛ وتولّى منصباً كنسياً ما في إحدى مدن المنطقة آنذاك، عندما كان يوليان مقيماً في ماكيللوم. انتقل فيما بعد إلى الإسكندرية. والكلمات التي يستخدمها غريغوريوس لرسم صورة ابن بلده، لا يمكن اعتبارها بمثابة شهادة حسن سلوك لصاحبها بالذات:

«ولد هذا الوحش القبدوقي على تخوم بلادنا. انحدر من أصول وضيعة، وكان ذا طباع أكثر وضاعة، وغير حرٍّ بالمعنى التام للكلمة؛ كان مختلطاً كأحد البغال. بدأ حياته بالخدمة في منزل غريب، وكان على استعداد لبيع نفسه لقاء شطيرة من الكعكة؛ لفعل أي شيء وقول أي شيء بهدف ملء جوفه. وفي نهاية المطاف حصل على وظيفة حكومية كُلِّفَ بأحط مهمة يمكن تصورها، ألا وهي استلام الخنازير المخصصة للجيش. لكنه هناك أيضاً أقدم على بعض التجاوزات، لأنه اهتمَّ فقط بما يعود بالنفع على بطنه. وبما أنه لم يبق له شيء سوى جسده، اضطر للفرار. رحل من مدينة إلى أخرى، كما يفعل الفارّون عادة، وفي نهاية المطاف، ولسوء حظ الكنيسة قاطبة ظهر بغتة

في الإسكندرية كوباء مصيري. وهناك استقر بشكل نهائي؛ توقف عن الترحال، وبدأ بالخسَّة. وعلى أي حال، كان رجلاً عديم القيم. لم يحتك أبداً بالعلوم الإنسانية، ولم يعرف يوماً آداب الحديث، ولم يتظاهر حتى بالورع. لكنه عرف جيداً ارتكاب الشرور وحياكة المؤامرات».

كان هناك سببان للكراهية التي شعر بها غريغوريوس نحو جيورجيوس. الأول منهما هو تعاطف الأخير مع الآريوسيين؛ والثاني، معارضته لأثناسيوس، حتى أنه شغل منصبه الأسقفي في الإسكندرية. لكنَّ آراء جيورجيوس الدينية بالذات، وحذقه في السعي وراء عطف البلاط، جعلت قسطنطينوس يوافق على اتصاله بالشابين المقيمين في ماكيللوم.

لم يترك هذا الرجل انطباعاً حسناً لدى يوليان الذي ذكره في أعوام لاحقة بنفور واضح. وعلى الرغم من ذلك فإن الأمير الشاب حقق فائدة عظيمة من هذه المعرفة في مرحلة نفيه الحزينة. تبين أن جيورجيوس يملك مكتبة قيِّمة؛ أي أن العلوم لم تكن غريبة عنه تماماً كما يقول عنه خصمه غريغوريوس.

كتب يوليان بعد أعوام قائلاً : «كانت مكتبة جيورجيوس كبيرة وجادة. ضمت أعمال الكثيرين من الفلاسفة والنقّاد، ولم تفتقر إلى كثير من كتب الجليليين».

أطلق يوليان لسم الجليليين على المسيحيين. وبعد موت جيورجيوس راودته الرغبة في البحث عن هذه المجموعة من الكتب واقتنائها:

«يحب البعض الجياد، والبعض الآخر الطيور، وآخرون مختلف أنواع الحيوانات. أما أنا، فقد تملكتني منذ الصغر شهوة اقتناء الكتب. سيكون أمراً شديد الغرابة لو تطلعت لا مبالياً إلى أولئك الذين يقتنونها وهم غير قادرين على إشباع شهوتهم في الإثراء واقتناء الذهب، ويظنون أنهم سيحصلون على الكتب دون جهد! تكرَّم عليَّ إذن واعثر لي على جميع كتب جيورجيوس. كان في حوزته الكثير من الأعمال الفلسفية، وكتب البلاغة، وتعاليم الجليليين الكفّار. الحقيقة أنني راغب في اختفاء الأخيرة كلياً، ولكن بما أن احتمال

ضياع الأخرى، النافعة معها قائم، يجب البحث بجد عنها جميعاً. أعرف كتب جيورجيوس جيداً؛ إن لم يكن جميعها، فالكثير منها على كل حال. فعندما كنت مقيماً في قبدوقيا، أعطاني بعضها لنسخها، لكنه استعادها فيما بعد».

أثناسيوس وقضية المجمع الجديد

قلّما احتكّ الأميران المحتجزان في ماكيللوم وسط جبال وغابات المقاطعة الشرقية البعيدة بأشخاص محايدين، ولم تصلهما أخبار الأحداث الهامة في حياة الإمبراطورية إلا في وقت متأخر. وكانت السنوات الست التي أمضياها هناك زاخرة بأحداث بالغة الأهمية، وخاصة في القضايا الكنسية.

ففي سنة ٣٤٢ بالذات، حيث أرغم غالوس ويوليان على التوجه نحو الشرق، سار أربعة أساقفة من أنصار يوسيبيوس المتوفى قبل حين في الاتجاه المعاكس، نحو الغرب، ليمثلوا بين يدي القيصر قسطنطس في مقر إقامته في ترِيير على ضفاف نهر Mozele. يصعب تحديد الهدف الحقيقي لمهمتهم. يحتمل أنهم أمام خطر الانشقاق الذي هدد الكنيسة حاولوا نيل موافقة الحاكم على اعتماد إحدى صيغ قانون الإيمان التي أقرت مؤخراً في إنطاكية، وعرض وجهة نظرهم فيما يخص قضية أثناسيوس. أعلن الأخير فيما بعد أن الأساقفة الأربعة طلبوا من قسطنطس توجيه الدعوة لانعقاد مجمع كنسي جديد، ولكن يصعب تصديق ذلك. فما النفع الذي كان سيعود به المجمع على الكنيسة الشرقية التي اتخذت دوماً موقفاً صلباً رافضاً لبحث قضية أثناسيوس من جديد، وبعد أن تمت معالجتها بشكل نهائي ؟ تجدر الإشارة أيضاً إلى

أسقف ترير الواسع النفوذ مكسيمين، حليف أثناسيوس المتحمس منذ أعوام، رفض مقابلة أساقفة الشرق؛ وهذا ما يشير إلى أنه لم يؤيد المطالب التي أرادوا طرحها.

أساقفة الغرب وحدهم رغبوا في عقد مجمع كنسي موسع. وكان قسطنطس دوماً واقعاً تحت تأثيرهم؛ وقد تفوق سياسياً على أخيه بحكم فرض سيطرته على ثلثي الإمبراطورية، وفي الآونة الأخيرة، وبدءاً من مطلع عام ٣٤٢، أرغم الفرنكونيين على ضفاف الراين السفلي على عقد معاهدة سلم في صالح روما؛ ترددت أصداء هذا النجاح في أرجاء الإمبراطورية وعززت مواقع قسطنطس أكثر فأكثر. وهكذا وجد قسطنطينوس الأضعف، والمتورط منذ أعوام في حرب يائسة مع الفرس، نفسه مرغماً على الموافقة على انعقاد مجمع جديد، على الرغم من أن هذا كان خسارة معنوية كبيرة بالنسبة له.

بعد عشرة وبضع من السنين حاول أثناسيوس تبرئة نفسه من تهمة ممارسة أي نشاط بهدف الدعوة لانعقاد المجمع. وهكذا قال في رسالته الموجهة إلى قسطنطينوس، والتي اتخذت صيغة الدفاع عن النفس، أنه في ذلك الحين لم يكن مطلعاً على أي شيء على الإطلاق. فكل شيء حدث دون علمه، ولم يتلق أية معلومات إلا بعد أن اتُّخِذَ القرار. وها هي كلمات أثناسيوس:

«بما أنني أدوّن كلمات الدفاع عن نفسي، فمن اللائق أن أعرض الحقيقة وحدها على شخصكم التقي. مرَّت ثلاث سنوات على نفيي إلى روما، وإذا بقسطنطس يكتب لي، ويأمرني بالمثول أمامه؛ كان آنذاك في ميلانو. بدأت بالتساؤل عن سبب تلك الدعوة، ويشهد الرب أنني لم أكن أعرفه! قيل لي، أن أساقفة كانوا عند قسطنطس وتوسلوا إليه بأن يتكرم بالكتابة لشخصكم التقي بشأن الدعوة لانعقاد مجمع كنسي. صدقني أيها القيصر، هذا ما حدث، وأنا لا أكذب.

جئت إذن إلى ميلانو وفوجئت باستقبال حار. وافق قسطنطس على مقابلتي وأخبرني بأنه قد كتب لك بشأن الدعوة لانعقاد المجمع. بقيت في المدينة، ثم استدعاني إلى غالة. وجاء الأب هوزيوس أيضاً فيما بعد. ومن هناك كان لنا أن نتوجه إلى سرديكا». سرديكا هي صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية.

وعلى الرغم من تأكيدات أثناسيوس وقسمه يصعب تصديق عدم اهتمامه التام بقضية على هذا القدر من الأهمية بالنسبة له شخصياً، وعدم إطلاعه على مجرى المفاوضات. أجل، نوافق دون تردد على أن لقاءه الأول مع قسطنطس تمَّ في ميلانو سنة ٣٤٢. لكننا نتوقع أن الأسقف المنفي كان على اتصال دائم مع يوليوس أسقف روما ومع مكسيمين أسقف ترير، ولذلك لا بد وأنه كان حسن الاطلاع على تطور الأحداث.

تمت الدعوة لانعقاد المجمع سنة ٣٤٣.

انشقاق في سرديكا (صوفيا)

تمَّ الاتفاق على تحديد سرديكا (صوفيا الحالية) مكاناً للمداولات. كان الاختيار مبرراً سياسياً، لأن المدينة كانت واقعة على حدود شطري الإمبراطورية: تحت سلطة قسطنطس، ولكن على مقربة من تراقيا، البلد الوحيد في شبه جزيرة البلقان الخاضع لقسطنطينوس. وهكذا التقى أساقفة الشرق والغرب في المكان الذي اضطر معظمهم للسفر إليه من أمكنة بعيدة؛ وبذلك قدموا لبعضهم التنازلات وأظهروا الاحترام. كما تمت المحافظة على هيبة القيصرين ، الذين لم يحضرا شخصياً إلى سرديكا .جاء من الغرب ما يقارب التسعين أسقفاً. نصفهم من المقاطعات البلقانية، وعشر من إيطاليا، ستة من إسبانيا. مثّل يوليوس في المجمع اثنان من مشايخ كنيســته وشماس واحد. ومن الشرق سافر ثمانون أسقفاً معاً يرافقهم اثنان من الموظفين الكبار في إدارة قسطنطينوس؛ كان لهما أن يحرصا على ضمان ولاء مسؤولي الكنيسة والتزامهم بسياسة القيصر.

قبل بدء الجلسات الفعلية طالب أساقفة الشرق بعدم مشاركة أثناسيوس، ومارسيلوس وأسكليباس في المداولات. حاول هوزيوس ــ الشيخ الطاعن في السن، مستشار قسطنطين الكبير ــ التوصل إلى حل وسط. ولكن دون

جدوى. غادر أساقفة الشرق الذين تصرفوا بلا شك بموجب تعليمات قيصرهم، سرديكا خلسة في الليل. انتقلوا إلى مدينة فيليبوبوليس، أي مدينة بلوفيديف الحالية في بلغاريا؛ كانت المدينة قريبة نسبياً من سرديكا، لكنها داخل حدود تراقيا، أي أنها خاضعة لسلطة قسطنطينوس.

على الرغم من العجالة التي غادر فيها أساقفة الشرق سرديكا، تمكنوا قبل ذلك من صياغة منشور ناقشوا فيه بالتفصيل آراء مارسيلوس الهرطقية، وتصرفات أثناسيوس وأسكليباس غير اللائقة من وجهة نظرهم؛ رافضين محاولات أساقفة الغرب ـــ غير المطلعين بالقدر الكافي ـــ الرامية لإعادة الاعتبار لأولئك الأشخاص؛ اعترضوا بعنف على مشاركتهم في المداولات؛ وألقوا بكامل مسؤولية حدوث انشقاق في الكنيسة على أساقفة الغرب الذين بدفاعهم عن عدد من التعساء يعرضون قضية الوحدة لأضرار بالغة؛ أقرّوا من جديد الأحكام الصادرة عن المجامع الشرقية السابقة والمتعلقة بعزل كلٍ من أثناسيوس، ومارسيلوس، وأسكليباس من مناصبهم؛ وعلاوة على ذلك قاموا الآن بأنفسهم بعزل عدد من أساقفة الغرب من مناصبهم وإبعادهم عن الجماعة المسيحية، وهم: يوليوس أسقف روما، هوزيوس أسقف قرطبة، بروتوجينس أسقف سرديكا، غاودينسيوس أسقف نايسوس، ومكسيمين أسقف ترير. تضمن المنشور بطبيعة الحال كلمات تعبر عن أحر التمنيات، والصلوات، من أجل الحفاظ على وحدة الكنيسة ونقاء التعاليم..

مقررات مجمع سرديكا

تجاهل أساقفة الغرب مغادرة رفاقهم ومنشورهم بصمت مفعم بالازدراء. وتابعوا مداولاتهم في سرديكا، وكأن شيئاً لم يكن. بحثوا قضية كل من أثناسيوس، ومارسيلوس، وأسكليباس؛ وقاموا بتبرئة الثلاثة من جميع التهم الموجهة إليهم وأعيدت لهم مراكزهم السابقة. كما عزلوا وألقوا الحرم الكنسي على الكثيرين من مسؤولي الكنيسة الشرقيين، وفي مقدمتهم أساقفة الإسكندرية، وأنقرة، وغزة الحاليين، لأنهم احتلوا مراكز أثناسيوس، ومارسيلوس، وأسكليباس بصورة غير شرعية. ثم جاء دور كل الشخصيات المرموقة في ذلك الشطر: اسطيفان أسقف إنطاكية، وأكاسيوس أسقف قيصرية الفلسطينية، وفالنس أسقف مورسا (أوشيك الحالية في يوغسلافيا)، وأورساسيوس أسقف سينغيدونوم (بلغراد الحالية)، وآخرين غيرهم.

كما جرت في سرديكا محاولة لوضع صيغة جديدة لقانون الإيمان. لكن أساقفة الغرب كما أسلفنا، افتقروا للإعداد الفلسفي ولمعرفة المصطلحات اللاهوتية الإغريقية. ولذلك جاءت الصيغ المقترحة لقانون الإيمان مشوهة وغير دقيقة، بحيث اعترض عليها أثناسيوس نفسه. فعل هذا بصورة غير

مباشرة بطبيعة الحال، مؤكداً على أن قانون الإيمان النيقي الذي صيغ وأقرَّ قبل ثمانية عشر عاماً يلبي احتياجات الكنيسة تماماً.

ثم عالج المجمع موضوع الانضباط، وأقرَّ سلسلة من القوانين بهذا الخصوص. حُظِّرَ على الأساقفة الانتقال من مدينة إلى أخرى. أدين التردد المتكرر على البلاط الإمبراطوري؛ وكان المقصود هنا بلاط قسطنطينوس. كما أُقرَّتْ توصية بعدم مغادرة الرعاة لأبرشياتهم لفترات تزيد عن الثلاثة أسابيع. وتقرر أيضاً أن محاكمة الأسقف يجب أن تتم فقط من قبل مجمع مقاطعته، ولا يجوز استئناف قرار هذا المجمع إلى أسقف روما؛ ويحق للأخير اعتماد قرار المجمع أو إحالته إلى أساقفة المقاطعة المجاورة لإعادة النظر فيه.

وفي نهاية المطاف تمَّ توجيه رسالة إلى القيصر قسطنطينوس ناشده فيها المشاركون في أعمال المجمع وضع حد للصراعات الدائرة في أحضان الجماعات المسيحية في الشطر الخاضع له من الإمبراطورية، ومنع الموظفين العلمانيين من التدخل في الشؤون الداخلية للكنيسة. كما أحيط يوليوس أسقف روما علماً بمجريات ونتائج المداولات عن طريق رسالة خاصة موجهة إليه.

أما فيما يخص النتائج، فلا بدَّ من القول صراحة أنها كادت أن تكون معدومة. والأسوأ من ذلك: بدلاً من تخفيف حدة التناقضات القائمة، قام الجميع بتعميقها وإبرازها بوضوح أمام العالم. فقواعد الانضباط لم تطبَّق عملياً في الشرق ــ وهذا ما كان متوقعاً! ــ كما لم يتقيد بها أحد في الغرب. والأساقفة الثلاثة الذين اعتُبِروا أبرياء تماماً ومضطَهدين دون مبرر في سرديكا، لم يتمكنوا من العودة إلى مراكزهم.

أسقف إنطاكية الجديد

عبَّر قسطنطينوس على الفور وبصورة علنية عمَّا فكَّر به بخصوص مقررات المجمع. أصدر أوامر صارمة بحراسة بوابات الإسكندرية، وأنقرة وغزَّة، والطرق المؤدية إليها. كما أوصى الموظفين، وخاصة في مصر باللجوء إلى أقسى العقوبات في حال إلقاء القبض على أي من أولئك الأساقفة أو الكهنة الموالين لهم. وقد تعرض العدد القليل من أساقفة الشرق الذين تجرأوا على البقاء في سرديكا، والمشاركة في أعمال المجمع مع ممثلي الغرب، لقمع شديد.

وفي فترة عيد الفصح من سنة ٣٤٤ جاء إلى إنطاكية رسل قسطنطس. وقد رافق الضابط الكبير سالينوس أسقفان هما فنسنت من كابوا، ويوفراتس من كولونيا. وعرضوا الرسالة التي طلب فيها سيدهم من أخيه التلطف بتمكين الأساقفة الثلاثة الذين أعيد لهم الاعتبار في سرديكا من العودة إلى عواصمهم الأسقفية، وتسلم مهامهم. تمت دراسة هذا الطلب المحرج في المجلس الإمبراطوري مطولاً، وبعناية فائقة ـ وفي تلك الأثناء تعرض الضيوف القادمون من الغرب لمغامرة غريبة.

أقام الأسقفان الضيفان في مبنى بعيد نسبياً عن مركز المدينة. وفي إحدى الليالي دلفت إلى مخدع أسقف كولونيا النائم فتاة شبه عارية، وفي تلك اللحظة اقتحم المنزل بعض الناس من الشارع. وبغتة بدأت الفتاة تصرخ بصورة مرعبة. تمكن السكان الذين استيقظوا من إغلاق البوابات، واحتجاز المتطفلين. اعترفت الفتاة على الفور بالسبب الذي دفعها للصراخ: طُلِبت لقضاء الليل مع رجل شاب، لكنها وجدت في السرير شيخاً طاعناً في السن! خمَّن الناس الهدف من اقتحام الغرباء للمنزل، كان لهم أن يشهدوا فيما بعد كيف كان يوفراتس التقي يمضي لياليه.

جاء سالينوس الذي كان يقيم في حي آخر من المدينة في الصباح، ولدى إعلامه بالمشكلة هرع إلى القصر وتقدم بشكوى رسمية. أثبتت التحقيقات أن الفتاة استؤجرت فعلاً في أحد المواخير، واعترف صاحبه بلقائه مع رجال تمَّ تحديد هوياتهم وارتباطهم باسطيفان أسقف إنطاكية. أغضبت المؤامرة الدنيئة قسطنطينوس، فوجه على الفور دعوات إلى أساقفة المدن المجاورة؛ عزل اسطيفان من منصبه، وانتُخب ليونتيوس خلفاً له.

لكن هذا التغير لم يكن مرضياً للغرب. لأن ليونتيوس كان شأنه شأن سلفه متعاطفاً مع الآريوسية، وتفوق عليه بذكائه وموهبته في الشؤون الإدارية. وسرعان ما تمكن من تهدئة الأوضاع في أوساط الجماعة المتخاصمة في إنطاكية. أما خصومه، وعلى رأسهم أثناسيوس، فقد أعلنوا بأنه لا يحق له أصلاً أن يتولى أية مناصب كنسية، لأنه قام بخصي نفسه بنفسه ــ وذلك ليتمكن من العيش في منزل واحد مع فتاة تدعى يوستوليون. لكن بعض الإشارات في مراجع معاصرة تؤكد أن ليونتيوس كان رجلاً خلوقاً إلى أقصى الحدود. أما عملية الخصي التي يبدو أنه نفذها فعلاً بنفسه، فلم تكن آنذاك شيئاً استثنائياً في أوساط المتزمتين من معتنقي العقيدة الجديدة؛ ويبدو أن الدافع لها في هذه الحالة كانت الرغبة في العيش بطهارة مطلقة مع امرأة محبوبة؛ وأراد ليونتيوس بذلك إبعاد كل الشبهات والأقاويل عن نفسه.

أرغمت فضيحة إدخال الفتاة خلسة إلى مخدع أسقف كولونيا القيصر قسطنطينوس على تقديم بعض التنازلات لأخيه. فأصدر أوامره بإعادة عدد من الكهنة الموالين لأثناسيوس من المنفى ، كما أمر بوقف اضطهاد أتباعه في مصر، أما عن عودة الأسقف نفسه فلم يكن هناك أي مجال للحديث. وهكذا غادر رسل الغرب إنطاكية دون تحقيق الهدف الأهم.

انتصار أثناسيوس

لم تتبدل الأوضاع إلا بعد مرور عشرة أشهر، وذلك في حزيران عام ٣٤٥، عندما توفي غريغوريوس أسقف الإسكندرية نتيجة مرض مديد. لم يكن في وسع قسطنطينوس فعل أي شيء بشأن أثناسيوس دون أن يعرِّض هيبته للاهتزاز طيلة بقاء غريغوريوس على قيد الحياة. لكن رحيل الأخير سمح في نهاية المطاف بحل وسط يحفظ ماء الوجه: لم يوافق حاكم الشرق على انتخاب متروبوليت (رئيس أساقفة) جديد، بل طلب إلى أثناسيوس تولي منصبه القديم في عاصمة مصر؛ وهكذا أُظهر أنه سيتولى المنصب الكنسي بناء على أمر القيصر الذي نفذ في الآن ذاته رغبة أخيه. لكن الأسقف الذي كان آنذاك مقيماً في أكويليا لم يكلّف نفسه مجرد عناء الرد على رسالة القيصر! أراد أن يُطلَب منه تولي المنصب علناً! كان على الإمبراطورية بأسرها أن تعلم بأنه هو مَنْ يعطف على القيصر، وليس العكس. ففي أحاديثه مع العديد من الأشخاص تذرع بأنه ليس واثقاً من إمكانية دخول المقاطعات الخاضعة لقسطنطينوس بأمان؛ ألا يعقل أن تكون الدعوة مجرد كمين؟

استمرت المفاوضات طويلاً. بعث قسطنطينوس برسالتين أخريين للأسقف المتغطرس؛ ثم بعث إليه ببعض مشايخ الإسكندرية الوقورين، ثم طلب وساطة أخيه؛ كما استغلّ خدمات كبار مسؤولي الدولة. أما أثناسيوس، فقد تظاهر بالتردد وهو لا يكف عن تغيير مكان إقامته، ويستشير مختلف

الشخصيات. فمن أكويليا توجه إلى غالة فيما وراء الألب، حيث تشرّف بلقاء قسطنطس.ثم انتقل إلى روما؛ وهنا تسلّم من الأسقف يوليوس رسائل موجهة إلى الجماعة في الإسكندرية. وفي نهاية المطاف جاء إلى إنطاكية في خريف عام ٣٤٦. قابل قسطنطينوس الذي سلّمه ثلاث رسائل توصية: واحدة إلى أساقفة وكهنة مصر، والثانية إلى المؤمنين في الإسكندرية، والثالثة إلى الوالي هناك. كما طالبت مستشارية القيصر أرشيف الوالي بإعادة كافة المراسلات الخاصة بقضية أثناسيوس. كانت هذه التوصية بمثابة إلغاء للنزاع كاملاً، وحذفه ــ إن صح القول ــ من الذاكرة الوظيفية. لكن المستشارية، ومن باب الاحتياط، لم تتلف الوثائق المتعلقة بالنزاع الذي امتدّ لأعوام .

أثناء مقابلة القيصر طالب الأسقف مواجهة مع المفترين، والسماح له بإثبات بطلان اتهاماتهم. لكن قسطنطينوس لم يوافق على ذلك، بينما ــ إن صدق أثناسيوس ــ أكد أنه:

ــ لن أصغي بعد الآن إلى أية اتهامات كاذبة. وقراري حازم ونهائي. وسوف تُتلف كافة الوثائق المتسمة بطابع القدح على الفور.

غادر أثناسيوس الذي طمأنه هذا التصريح إنطاكية. وفي مصر، استقبل بحفاوة من قبل غالبية أساقفة البلد اجتاز حدود مصر في تشرين الأول من سنة ٣٤٦، ووصل إلى لإسكندرية في اليوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه. يورد غريغوريوس النزينزي في إحدى خطبه سرداً موسعاً لأحداث عودة الأسقف المظفرة؛ الحقيقة أن غريغوريوس كان لا يزال آنذاك في موطنه، في قبدوقيا، لكنه قابل فيما بعد الكثيرين ممن شهدوا الحدث الذي انطبع لأعوام في ذاكرة مَنْ عاصره.

خرج السكان للقاء راعيهم موزعين وفق الجنس، والسن، والمهن. هكذا كانت العادات المحلية القديمة لاستقبال الشخصيات المرموقة. تدفق سيل المستقبلين من أسوار المدينة وامتد إلى ممتلكات شخص يدعى خيرياس، أي لمسافة تعادل السير على الأقدام ليوم كامل. عاد أثناسيوس بتواضع وهو

يركب حماراً. منحت هذه الواقعة العالِمَ اللاهوتي فرصة مقارنة دخول الإسكندرية بما شهدته أورشليم قبل قرون، أثناء استقبال المسيح. لوَّحت الجماهير بالأغصان الخضراء. وعلى الطريق فُرِشَتْ أثواب زاهية الألوان ومطرزة، دون أية مبالاة بقيمتها أو ثمنها؛ خطا فوقها حمار الأسقف. تقدمت أثناسيوس مجموعات ترقص، وتغني، تحاول كل منها أن تطغى على الآخرين بأصواتها وتشد انتباه الآخرين. وفي كل مكان صفق الناس وأطلقوا الصيحات وهم لا يكفّون عن رش الطريق بالعطور الثمينة والفاخرة. ولمَّا هبط الليل أنيرت المدينة بأسرها، وجابت شوارعها مواكب الفرح، وأقيمت الولائم الفخمة في العديد من المنازل.

كان هذا نصراً حقيقياً. ليس لأثناسيوس وحده، وإنما للمدينة والدولة بالقدر ذاته. استقبل السكان الرجل الذي عبَّر عن شعورهم بالتمايز. تماماً كما حدث في أمكنة أخرى آنذاك وفيما بعد عبر القرون، برز التمايز العرقي والثقافي الذي لم يكن مُدْرَكاً تماماً بعد، وعبَّر عن نفسه في التعلق المتعصب بقضايا وظواهر الحياة الدينية.

وهكذا أُنهي، ولو لحين، الصراع الكنسي الدائر حول شخص أثناسيوس، وترافق هذا بتخفيف حدَّة التوتر السياسي بين كلا القيصرين. الحقيقة أن التوتر لم يتخذ أشكالاً حادة وعنيفة؛ لأن قسطنطس على الرغم من تعاطفه مع أثناسيوس، لم يجرؤ على مواجهة علنية مع أخيه وشريكه في الحكم. لكن بعض الأوساط أكدت آنذاك أن قسطنطس كان على استعداد للتدخل حتى بقوة السلاح دفاعاً عن المتروبوليت المنفي. وعلى الرغم من أن الأمور لم تبدُ على هذا القدر من السوء، أسفرت في كلا الجانبين عن الكثير من الشكوك والنفور.

أشرنا من قبل إلى أن قسطنطينوس أرسل سنة ٣٤٢ كلاً من يوليان وغالوس إلى ماكيللوم البعيدة، وذلك بسبب المخاوف السياسية التي أثارتها بدورها أوضاع الكنيسة. أما الآن، فكان للصفاء الذي لاح في الأفق أن يحدث تبدلاً جديداً في حياة الأميرين أيضاً.

وداع ماكيللوم

صدف أن مرَّ القيصر قسطنطينوس في إحدى رحلاته عبر قبدوقيا بالقرب من ماكيللوم، وذلك في ربيع سنة ٣٤٧، أي بعد بضعة أشهر من دخول أثناسيوس ظافراً إلى الإسكندرية، فخطر له أن يمضي بعض الوقت في الصيد في تلك المنطقة الغنية بثروتها من الحيوانات البرية. أو ربما كانت الحيوانات والصيد مجرد ذريعة؟ ربما رغب القيصر أن يتأكد بنفسه ويعرف كيف يبدو الأميران الشابان اللذان كانا محتجزين هناك منذ أعوام؟

آنذاك، وللمرة الأولى في حياته، رأى يوليان ابن عمه الأكبر سناً وجهاً لوجه؛ ولا يستبعد أن يكون قد تبادل معه بضع كلمات أثناء اللقاء وهو يجيب على الأسئلة التي تكرم بطرحها عليه. تذكر هذا الشيء بعد أعوام. يُرَجَّحُ ألا يكون قسطنطينوس قد ترك انطباعاً حسناً لدى الفتى؛ فمن اليسر أن نتوقع بأن القيصر قد تصرف كعادته دوماً، أي بجفاء احتفالي، حيث ترك مظهر عينيه الجاحظتين بعض الشيء انطباعاً سيئاً. لكن الكفاءة العالية التي تعامل بها الضيف الكبير مع السلاح تركت انطباعاً حسناً في نفسه بلا ريب؛ أمكن له أن يُعْجَبَ به وهو يشارك في رحلات الصيد. وقد ذكر هذا الشيء بعد أعوام وهو يكتب رسالة مديح وإطراء إلى قسطنطينوس: «رأيت أيها الحاكم الحبيب كيف قتلت الدببة، والأســود، والنمور، وأنت ترشقها بالنبال. تتعامل مع

القوس وكأنه أداة تسلية حتى وأنت تصيد؛ كما لو أنك تقف للمعركة مسلحاً، تحمل الترس، والخوذة، والدرع».

يمكن التوقع بأن غالوس الذي أحب منذ نعومة أظفاره الجياد، والكلاب، والصيد، وازدرى الكتب، كشف أثناء الصيد عن مهارة أكبر في الفروسية والرماية. ولذلك أُعجب به القيصر أكثر. أما فيما يتعلق بالموقف من الديانة الجديدة، العزيزة على قلب قسطنطينوس، فقد بدا الأميرين ورعين بالقدر ذاته؛ إذ كان بوسعهما أن يتباهيا ببناء معبد مكرس لذكرى شهيد.

كانت زيارة القيصر بمثابة حدث بالغ الأهمية في حياة الأميرين المنفيين، فقد قطعت رتابة عزلتهما، والأهم من ذلك أنها أحيت فيهما الأمل بأنهما لم يُنسيا، وأن التبدل البهيج والعودة إلى المدينة والعالم الفسيح آتيان عمَّا قريب. ولكن مع رحيل قسطنطينوس انتهت أيام النشاط، والصيد، والمقابلات. بدا المقر الريفي مهجوراً وغرق في عزلته الهادئة، والأسوأ من ذلك، مرَّت أيام وشهور، ولم تصل إلى ماكيللوم أية أوامر، أو أية أنباء بهيجة! بدا الأمر وكأن الأخوين قد حُكِمَ عليهما بالدفن أحياء في ذلك المكان المهجور من قبدوقيا.

في عام ٣٤٨، وعلى نحو غير متوقع، استدعيَ غالوس إلى إنطاكية للمثول بين يدي القيصر مباشرة، وكان له منذ ذلك الحين أن يبقى ملازماً له على الدوام. لكنه سرعان ما تأكد من أن هذا لا يعني بعد إلغاء نظام الرقابة الصارمة الذي كان خاضعاً له حتى ذلك الحين، وإنما العكس، إذ شُدِّدت عليه الرقابة. ففي ماكيللوم، المكان البعيد والمعزول، لم تكن هناك ضرورة للاهتمام الخاص بكل خطوة أو كلمة للشخص المشبوه، أما في إنطاكية، في مركز السلطة، لم يكن لأي حديث أو إيماءة أن يكون محايداً وعديم الأهمية؛ ولذلك نقل المخبرون كل شيء. ولكن بعد مضي ست سنوات من النفي، بدا أيُّ تبدل مرغوباً ومؤملاً بمستقبل أفضل.

سُمِح ليوليان أيضاً بمغادرة ماكيللوم، وحدث هذا بشيء من التأخير، ولكن في العام ٣٤٨ نفسه على الأرجح. حصل مباشرة على حرية أكبر في

تحركاته، وكأنه مكافأة له على انتظاره لفترة أطول. وهكذا أمكنه التوجه إلى حيث شدَّه القلب ــ إلى القسطنطينية.

لِما قرر قسطنطينوس بعد مرور تلك السنين كلها إطلاق سراح الأخوين؟ ربما حدث هذا تحت تأثير ليونتيوس أسقف إنطاكية والناسك الوقور ثيوفيلوس. يُرَجَّحُ أنهما لفتا نظر القيصر إلى أنه يرتكب خطأً فادحاً بعزل الوريثين الذكرين الوحيدين الباقيين على قيد الحياة للأسرة الحاكمة؛ والأجدى هو أن يتم تعريفهما بالحياة السياسية، وتأهيلهما لتحمل جزء من المسؤولية عن مصير الإمبراطورية! لا ريب في أن مثل هذه الكلمات قد تركت انطباعاً قوياً لدى قسطنطينوس الذي كان لا يزال بلا وريث من صلبه للعرش؛ حيث اعتقد أنه رأى في ذلك عقاباً سماوياً على سماحه بقتل أقرب أفراد أسرته. وهكذا أمكن لإعادة الاعتبار للأميرين الشابين الذين سلما من مجزرة سنة ٣٣٧ أن يكون بمثابة كفارة عن تلك الجريمة.

ليبانيوس

توجد شهادة واحدة فقط تتحدث عن نمط حياة يوليان ودراسته في هذه المرحلة؛ وهي رواية ليبانيوس، أستاذ البلاغة الخاص في كل من نيقوميديا والقسطنطينية. الشخصية ذات الأهمية البالغة في ثقافة القرن الرابع، والشديدة الارتباط بشخص يوليان، وخاصة في الأعوام اللاحقة.

رأى ليبانيوس النور في إنطاكية السورية سنة ٣١٤. كانت أسرته قد استقرت هناك منذ أجيال، وصنِّفت في عداد الأرقى والأكثر ثراء. لكنها تعرضت لضربات موجعة في عهد الإمبراطور ديوقلتيانس؛ حيث حُكِم على اثنين من أفرادها بالموت، بينهما جد ليبانيوس، إبَّان الاضطرابات التي اجتاحت المدينة، كما صودرت ممتلكاتها. ولمَّا بلغ ليبانيوس الحادية عشرة من عمره توفي والده؛ فكرست الأم كل طاقاتها لتضمن لأطفالها أفضل تعليم. والأديب الكبير يعترف بنفسه أنه لم يُبْدِ اهتماماً يذكر بالعلم وهو في حداثته؛ وفضل العدو مع أترابه في الشوارع والحقول، بينما نظرت أمه إلى ذلك اللهو بعين الشفقة.

جاء التغير العنيف تلقائياً عندما بلغ الفتى الخامسة عشرة من عمره. بدأ الكتاب يحظى باهتمام بالغ من قبله. نسي رفاقه، ولم يتردد في بيع طيور

الحمام التي اقتناها. لم تعد تثيره سباقات المركبات، لم يتردد على المسارح، ولم يطلق صيحات الإعجاب أثناء صراع المجالدين (المصارعين)؛ لم يتصور معارفه إمكانية التعامل مع هذه المباريات بذلك القدر من اللامبالاة. ومنذ ذلك الحين شدَّت ليبانيوس روائع الأدب الكلاسيكي، حيث أمضى الأيام والليالي وهو غارق في قراءة مجلدات الخطباء والمؤرخين الإغريق.

درس البلاغة في إنطاكية حتى بلغ العشرين من عمره. وآنذاك، تمكن من تحقيق حلمه، متغلباً على مخاوف والدته ومعارضتها: سافر إلى أثينا لمتابعة الدراسة، إلى المدينة التي كانت لا تزال محراب العلم، ومقرَّ المدارس الفلسفية الذائعة الصيت، وموطن كليات البلاغة.

كانت البلاغة ـــ كما أشرنا من قبل ـــ في عزٍّ ازدهارها، واعتُبرت ملكة العلوم كافة. توجب على الخطيب البارع الإطلاع على كامل الإرث الثقافي للماضي، أي أعمال الشعراء، ومقالات الفلاسفة والمؤرخين، فمن هذه الينابيع ينهل أسمى الأفكار وأروع الأمثلة التي توجه ذهن المستمع نحو محبة مفاهيم الجمال، والخير، والحقيقة. ولذلك غالباً ما عُرِف الخطباء بالصوفيين، أي بأساتذة الحكمة. نظر ليبانيوس بجدية تامة إلى مهمته؛ فكانت القطيعة دوماً بينه وبين الخطباء الذين أولوا اهتماماً أكبر لبراعة استخدام التراكيب التخطيطية، وأسلوب الإلقاء، أما الموضوع، فقد أُهمِل، وكأنه شيء ثانوي وعديم الأهمية.

سنجد فرصة أخرى للعودة إلى مناقشة أوضاع وشؤون الحياة الجامعية في أثينا ذلك العصر. ولكن قد يكون من المفيد أن نلاحظ الآن، أنه في هذه المدينة الهادئة، في محراب الثقافة والعلوم ذاك، دارت على الدوام رحى معارك وحروب لا دموية بين الأساتذة الذين آزرهم طلابهم. أما أسباب تلك النزاعات، فقد كانت دنيوية، لا علمية، غير مرتبطة بالإيديولوجيا أو الدين. فكل واحد من الأساتذة أراد ببساطة إحاطة نفسه بأكبر عدد من الطلاب والمستمعين، حيث اعتمدت مواردهم جزئياً على هذا الشيء. ومن الناحية الثانية قام كل أستاذ بدفع نسبة مما حصل عليه من عائدات الطلاب الجدد

حتى لو تم جرُّهم عنوة لأجدر العناصر وأكثرهم كفاءة في تجنيد الطلاب والمستمعين. وعلى الرغم من أن التنافس بين أعضاء الهيئة التدريسية كان حاداً، أثبت ليبانيوس بعد فترة وجيزة أنه شخص فذ وموهوب؛ ولذلك لم تمض على إقامته هناك سوى بضع سنوات عندما تلقى عرضاً مشرِّفاً بترأس الكلية، لكنه رفض العرض بعد قليل من التفكير. فقد توقع بأن يواجه صعوبات مضاعفة في حياته كرجل غريب في أثينا.

بعد زيارة كامل بلاد الإغريق والبلدان المجاورة لها، انتقل ليبانيوس إلى القسطنطينية على الأرجح. فهذه المدينة التي تطورت وازدهرت بسرعة البرق منحت آنذاك أفضل الفرص للنجاح في أية مهنة. أسس الإنطاكي الشاب مدرسة جديدة لتعليم البلاغة، وحقق نجاحاً باهراً: توقع قدوم ما لا يزيد عن أربعين طالباً، لكنه ما أن باشر العمل فيها لاحظ بأن عددهم أصبح ثمانين! وبطبيعة الحال أثار هذا النجاح الغيرة في صفوف رفاقه، وبنتيجة مختلف الدسائس غادر ليبانيوس القسطنطينية. انتقل إلى الشاطئ الآخر، الآسيوي، إلى نيقيا أولاً، ومن ثم إلى نيقوميديا. أمضى هناك بضعة أعوام كمدرس كانت من أجمل سني حياته، حيث تذكرها حتى آخر أيامه بكثير من الحنين. وفيما بعد أُرغِم بموجب مرسوم إمبراطوري على إعادة فتح المدرسة في القسطنطينية؛ لأن قسطنطينوس كما أسلفنا اهتم فعلاً بتطور العلوم ودعم الخطباء. لكن النجاح القديم لم يعد. شعر ليبانيوس بالضيق من المدن والبلدان الغريبة، فأقفل عائداً إلى مدينته إنطاكية سنة ٣٥٤، وهناك عاش حتى النهاية وهو يحظى بتقدير متزايد.

ليبانيوس عن يوليان

كان الخطيب الشهير، عاشق الأدب الكلاسيكي، وثنياً، وهكذا بقي حتى آخر أيامه. ولهذا السبب لم يتمكن شخصياً من تعليم يوليان المسيحي ــ أحد أفراد الأسرة المالكة التي قدمت الدعم الحاسم للديانة الجديدة. تفسر هذه الملاحظة بعض العبارات فيما كتبه ليبانيوس عن فتوّة الأمير. وما يصدمنا للوهلة الأولى في هذه الشهادة ــ سنوردها فيما يلي _ أنها تغفل تماماً إقامة يوليان في ماكيللوم؛ ربما يتعلق الجزء الأول بأعوام فتوّة الأمير، قبيل النفي إلى قبدوقيا، بينما يستعرض الثاني المرحلة اللاحقة أثناء دراسة البلاغة في القسطنطينية ونيقوميديا. يمكن إلى حد ما تبرير تجاهل موضوع الإقامة في ماكيللوم، وكذلك بعض الغموض في تسلسل الأحداث تاريخياً. فليبانيوس لم يكن مؤرخاً وإنما خطيباً. وكان هدفه رسم صورة مثالية، وليس سرد الوقائع التاريخية بدقة. وهو يكتب:

«أيقظت الآلهة الحارسة حب العلم في نفس يوليان. تلقاه في المدينة الأكبر بعد روما، مواظباً على الدراسة هناك. وهو حفيد القيصر، وابن شقيق القيصر، وابن عم القيصر! لم يتغطرس. لم يسبب ضيقاً لأحد. لم يرغب في إثارة الإعجاب بكثرة الأصدقاء وما ينجم عن ذلك من جلبة. رافقه خصي

واحد كان خير ممثل للاعتدال، بالإضافة إلى مربٍ آخر حسن الإعداد. ارتدى أثواباً عادية ولم يتعالَ على أحد. بادر بنفسه لإلقاء التحية، ولم يزدرِ الفقراء. استجاب على الفور كلما استدعي؛ وقبل أن يُستدعى، انتظر هناك حيث وجب أن يقف الفتية الآخرون. أصغى لِما أصغى إليه الطلاب الآخرون. خرج برفقة الآخرين دون أن يحاول التميز عنهم بشيء. ولو جاء أحد من الخارج لإلقاء نظرة على حشد الشبّان دون أن يعرف مَنْ هم وأبناء من يكونون، لَما تمكن من رؤية أية علامات فارقه يخمِّن منها تفوق يوليان على الآخرين بنبل أصله.

لكنَّ مقارنته بالطلاب الآخرين لم تكن ممكنة من وجهات النظر كلها. فقد فاق الآخرين ذكاء، وقدرة على استيعاب وتذكر المحاضرات، ومواظبة على العمل. تألمتُ وأنا أراقب مواهبه لأنني لم أكن مَنْ يزرع البذرة في تلك الروح النبيلة. كوفئ أحد الحكماء المسنين ممن أهانوا الآلهة بأن أوكلت إليه تربية ذلك الشاب، حيث غرس في ذهنه آراءه الخاصة. فاضطر يوليان لتحمل سلطات معلمه لمجرد أن الأخير حارب الآلهة!».

نعرف من مصادر أخرى أن الخليب الذي أشار إليه ليبانيوس كان يدعى هيكيبوليوس وكان بطبيعة الحال مسيحياً راسخ الإيمان ـــ أقلَّه ظاهرياً. ولذلك حظي بثقة البلاط التامَّة. لكن السمة الأساسية التي ميزته كانت الانتهازية، وهي الصفة المميزة للمثقفين في مراحل التحولات الاجتماعية والسياسية العنيفة. ولذلك عندما آن أوان الردَّة الوثنية بعد مرور عشرة وبضع من السنين، بدأ هيكيبوليوس بخدمة الآلهة القديمة بحماس منقطع النظير؛ أراد بذلك مداهنة السلطة الجديدة. لكن انتصار وظفر الوثنية كان قصير الأمد. ولذلك بدَّل هيكيبوليوس قناعاته من جديد وكفَّر عن خطيئة الارتداد عن الدين: استلقى وسط تراب الشارع أمام باب الكنيسة.

نقرأ في رواية ليبانيوس

«في هذه الأثناء كَبُرَ يوليان وأصبح شاباً، وغالباً ما تجلت طباعه الملكية بأبهى صورها. وهذا بالذات ما طرد النوم من عيني قسطنطينوس. خشي القيصر أن تُعجب المدينة العظيمة، المماثلة لروما في كل شيء، والعظيمة الشأن، بالرجل الشاب ذو الخصال الحميدة؛ ولو اتخذت الأمور مثل هذا المجرى، لخلقت الكثير من المتاعب للقيصر قسطنطينوس. لهذا السبب أرسل يوليان إلى نيقوميديا، متوقعاً أنها لا تثير مثل هذه المخاوف. ومنحه الموافقة على متابعة الدراسة.

الحقيقة أن يوليان أثناء إقامته في هذه المدينة لم يأت إلى مدرستي التي كنت أديرها ـ قمت باختيار هذه المدينة الهادئة لإقامتي، عوضاً عن تلك المليئة بالمخاطر ـ لكنه كان يتعرف عليَّ باستمرار، وذلك بشراء نصوص خطبي.

وهاكم السبب الذي دفعه لتحاشي الاحتكاك بي، على الرغم من إعجابه بخطبي! ألزمه الحكيم القدير هيكيبوليوس بالقسم والأيمان الغليظة، بألا يصبح من تلامذتي؛ وألا يقول عن نفسه هذا الشيء؛ وألا يدوِّن اسمه في عداد المستمعين لمحاضراتي. أما هو، فقد غضب من الرجل الذي قيَّده بمثل هذا القسم، لكنه لم يحنث بقسمه. لكن رغبته في الاتصال بي دفعته لابتكار أسلوب

يمكّنه من التعرف على نتاجي دون أن يحنث بالقسم: عثر على شخص نقل له المحاضرات التي ألقيتها يومياً، وذلك لقاء هبات كبيرة. وبهذه المناسبة تجلّت عظمة مواهبه الموروثة. فعلى الرغم من عدم مشاركته في محاضراتي، استطاع تقليد أسلوبي في الخطابة على نحو أفضل ممن شاركوا فيها باستمرار».

أنهى ليبانيوس هذا المقطع بعبارات تنضح بمشاعر الفخر والاعتزاز:

«ربما لهذا السبب نجد في خطبه اللاحقة شيئاً من أسلوبي. وهذا ما ترك انطباعاً بأنه كان من تلامذتي».

عن ضرورة اضطهاد الوثنيين

تُعلِّمنا دروس التاريخ أن فترات التحولات الإيديولوجية العنيفة، مواتية قبل أي شيء آخر لظهور زرافات من الانتهازيين من أمثال هيكيبوليوس. ولكن من هذه العشبة الوضيعة، التي تنحني بخنوع أمام كل نسمة تهب من ذرى السلطة، تنمو هنا وهناك ورود نضرة ومتألقة تمثل الاندفاع والحماس المتعصب.

ففي تلك الأعوام بالذات، عندما كان يوليان يدرس قواعد البلاغة الإغريقية في الشرق بإشراف مدرس منافق وموالٍ أساساً لكل سلطة مهما كانت، ظهر في الغرب عمل مفعم بالكراهية والتعصب المفرط. كان مؤلفه فيرميكوس ماتيرنوس ينحدر من أصول سيراقوزية. نشر في الأعوام ٣٣٤ ــ ٣٣٧ مقالة موسعة مكرسة لشرح قواعد علم التنجيم والدفاع عنه؛ الشيء الذي يثبت أنه كان وثنياً آنذاك. واعتنق الديانة الجديدة بعد ذلك الحين بقليل؛ لكنه بالمقابل خدمها باندفاع منقطع النظير. وهذا ما تثبته مقالته المنشورة تحت عنوان «عن أخطاء الديانة الوثنية» De errore profanarum religionum. كتبت باللغة اللاتينية، ويستبعد أن تكون قد وقعت بين يدي يوليان، لأن اهتمامه انصبَّ آنذاك على الأدب الإغريقي الكلاسيكي، وكاد ألا يقرأ أو يتكلم باللاتينية؛ إذ أنه لم يتعرف على هذه اللغة جيداً إلا بعد مرور بضعة أعوام

أخرى. ولكن يصعب تجاهل هذه المقالة ذات الدلالة بالنسبة لأجواء وتيارات العصر، وخاصة بالنسبة لموقف بعض الدوائر المسيطرة في الكنيسة.

فيما مضى، في مرحلة الاضطهادات، طالب المسيحيون بالتسامح الديني فقط ــ لأنفسهم وللآخرين. وقالوا آنذاك:

«ليمجد أحدهم الله، والآخر جوبيتر، وليرفع هذا يديه إلى السماء متوسلاً، وذاك نحو مذبح فيدس؛ ليحصي أحدهم الغيوم أثناء الصلاة، والثاني سطوح المنازل، وليكرس هذا روحه لله، وذاك للتيس. تأملوا، ألا يقود الأمر إلى الإلحاد إذا ما ألغيت حرية اختيار الإله، بحيث أُمنَع من تمجيد من أريد وأُرْغَم على تمجيد مَنْ لا أريد. فلا أحد يريد أن يُمَجَّدَ من قبل شخص يقوم بذلك دون رغبة منه، حتى الإنسان».

كان هذا فيما مضى. لكن أوضاع الكنيسة تبدلت، ومعها آراء أتباعها. وخير مثال على ذلك كلمات فيرميكوس.

أهدى مقالته لكلا الحاكمين الشريكين في الحكم، قسطنطينوس وقسطنطس. خاطبهما بضع مرات مباشرة شارحاً أسباب ووسيلة تصفية الحساب مع الوثنية بشكل نهائي. اختير هذا الكتيِّب إذن كمرجع خاص، مرجع الكراهية الذي يجب أن يكون مصدر إلهام السلطة.

لجأ فيرميكوس إلى العديد من الأمثلة المختارة بعناية لمحاولة إثبات غرابة، وانحراف وضرر المعتقدات والعبادات الوثنية، وخطورة آلهتها إلى جانب كون هذه الآلهة كائنات آثمة ومنحرفة. وهو لا ينكر الوجود الفعلي لهذه الآلهة! وإنما يؤكد على أنها عفاريت شريرة يمكنها أن تتملّك جسد الإنسان، ولا تتراجع إلا أمام الرقى والتعاويذ المسيحية. ولذلك يدعو إلى:

«أيها القيصر الجليل! يجب أن تُقتلع الممارسات الوثنية من الجذور وتُستأصل تماماً. يجب أن تتعرض لأقسى العقوبات بموجب مراسيم صارمة. وذلك بهدف منع خطأ الحكم السلفي الكئيب من الاستمرار في تلويث العالم الروماني؛ ومنع نذالة العلوم الموبوءة من تعزيز قواها؛ وتلافي تعميق سيطرة

ما يحاول تدمير إنسان الله. يتعطش البعض للضلال، فيرفضون الخلاص ويقاومون. وعلى الرغم من ذلك مُدّوا يد العون للتعساء، وأنقذوا الضالّين! فالرب الأعلى منحكم السلطة لتعالجوا وتشفوا هذا الجرح النازف».

ويقول فيما بعد، أن إعتاق الوثنيين من الخطأ وإن لم يرغبوا في ذلك، أفضل من السماح لهم بالسير طوعاً نحو الضلال.

فالعلاج القسري في نظر فيرميكوس مبرر تماماً. فالجميع يعرفون أنّ «المرضى مغرمون بما يضرُّ الصحة. فعندما يلمُّ المرض بالجسم، يطالب المتألمون بما هو ضار بالذات، وهذا ما يتناقض وخيرهم. والعقل الممسوس والملوث بالضعف يطالب بشقاء أكبر. يزدري بالعقاقير المقترحة من قبل العارفين. يرفض وسائل العلاج الطبية. يمضي إلى حتفه بشهوة عارمة. وعندما يستفحل المرض فيما بعد، لا بد من اللجوء إلى وسائل أكثر فعالية، لإنقاذ الحياة التي يتهددها الخطر، تستخدم أدوية ذات مفعول أقوى. فيعطى المرضى على الرغم مما يبدون من اعتراض ومقاومة، المزعج من الطعام، والمرّ من الشراب. ويكوى الجسم بالنار، أو تبتر أعضاء منه بالحديد. وما أن يستعيد المريض صحته، يعترف بأن كلّ ما تعرَّض له من معاناة قسرية، كان لخيره».

كان المستقبل الباهر بانتظار هذه الأفكار. فقد لعبت دوراً بالغ الأهمية كأساس لكافة الاضطهادات، ولكل ضروب الفرض القسري للمعتقدات. تم ترديدها دوماً بصيغ متجددة، ولغات مختلفة، كما قامت بنشرها وتبريرها أجيال المتزمتين المتتالية ـ على الرغم من أن أياً منهم لم يكن يعرف مَنْ الذي كان البادئ بصياغة هذه الشعارات وطرحها.

وفيما يخص اتخاذ تدابير محددة ضد الوثنيين طالب فيرميكوس بنهب المعابد قبل أي شيء آخر:

«انزعوا زينتها بسكينة تامة. ولْتصهر نيران دور الصك أو لهب ورش التعدين تماثيل الآلهة. وحَوِّلوا جميع تقدمات النذور إلى ما يعود بالنفع عليكم».

وهو يستشهد في هذا المكان بمخطوط يأمر بمعاقبة جريمة عبادة الأوثان بلا رحمة. فيقول:

«يأمر الله إذن، بألا يفوت العقاب الابن أو الأخ، وبأن يقطع سيف الانتقام أعضاء جسم الزوج. ويجب اضطهاد الصديق أيضاً بالقدر ذاته من الصرامة. ليرفع الشعب كله السلاح ليمزق أجسام المجدفين. فالمدن مهددة بالفناء، إذا ما ارتكبت هذه الجريمة!».

وينهي كلماته برؤية رائعة للمستقبل: إذا ما تقيد القيصران بهذه المؤشرات، ستكافئهما الرحمة الإلهية بجزيل العطاء.

سقوط وموت قسطنطس

لكنَّ رأفة القدر شاءت أن يغادر عالم الأحياء واحد من الرجلين اللذين خُصَّا بكتاب التعصب الأعمى ذاك، وذلك بعد فترة قصيرة من استلامه. وهو قسطنطس.

حلَّت الكارثة على نحو غير متوقع ظاهرياً. بدا الأمر وكأن سلطته التي استمرت عشرة من السنين منذ أيام تحقيق النصر على أخيه قسطنطين الثاني ومقتل الأخير، راسخة، وأنه يمارس الحكم بنجاح. ففي الغرب لم يخوضوا آنذاك في أي مكان حروباً معقدة كالتي خاضها قسطنطينوس دون توقف في الشرق ضد الفرس. كما لم تتعرض المقاطعات الخاضعة لقسطنطس لأية كوارث طبيعية تستحق الذكر. وإنما العكس، فالمواسم تميزت بوفرة الغلال؛ وكانت تلك المواسم موضع ذكريات طيبة حتى بعد مرور عشرة سنين. وأخيراً، لم تعصف بالغرب أية نزاعات كنسية باستثناء الانشقاق الدوناتي في أفريقيا ــ الأمر الذي كان له بالغ الأثر على سـير الأمور. ولكن على الرغم من مظاهر الألق والنجاح تلك، التي خففت من يقظة وحذر قسطنطس، لم تجر الأمور في سلطته على ما يرام.

فبادئ ذي بدء لم يكن الجيش راضياً. فرض القيصر عليه انضباطاً صارماً وعامل الجنود بشيء من الاحتقار؛ أمكن له السماح لنفسه بالقيام بذلك،

طيلة بقاء الهدوء سائداً على الحدود. بدت الأمور في غاية السوء في الإدارة المدنية أيضاً، وإن كان لأسباب مختلفة تماماً؛ فقسطنطس الجشع والمتلهف للحصول على كل قرش، قام ببساطة ببيع الوظائف، وحاول الذين اشتروا الألقاب والمناصب، استعادة أموالهم مضاعفة، وهذا ما أدى إلى النهب، والاستغلال، والرشوة، والفساد. كادت الرقابة على الإدارة أن تكون معدومة؛ فبعد تحقيق النصر على أخيه، بدا القيصر شديد الثقة بنفسه، ومقتنعاً بتألق نجمه. ولم يتوقع للحظة إمكانية قيام أيٍّ كان بالتمرد على هيبة جلاله المقدسة. أما في واقع الأمر، فقد كان محاطاً بالأعداء وحدهم. فعلى الرغم من حداثة السن، كان مريضاً ومعاقاً تقريباً، غير سليم من العقد والأمراض النفسية، ومسبباً للضيق في الحياة اليومية، ذو سمعة سيئة كخليع ومغوٍ للصبية؛ فنفر منه الجميع.

ملابسات الانقلاب معروفة بصورة حسنة. حيكـت المؤامرة في المحيط الأقرب للقيصر. وكـان أحد قادته مارسـيلينوس، يشغل وظيفة تماثل وزارة المالية « Comes reiprivatae». في الثامن عشر من كانون الثاني عام ٣٥٠ دعا الكثيرين من أرفع مسؤولي الدولة شأناً مدنيين وعسكريين، إلى منزله في أوغوستودونوم، أي في أوتون Autun للاحتفال بعيد ميلاد ابنه. واستمر الجلوس إلى المائدة حتى ساعات الليل المتأخرة.

وفي إحدى اللحظات، غادر أحد المدعوين، وهو ضابط برتبة عالية يدعى مغنينسيوس القاعة قائلاً للجالسين قربه:

ـ يجب أن أريح معدتي.

لكنه بعد لحظات اقتحم القاعة ملفعاً بمعطف إمبراطوري أرجواني، ومحاطاً بفصيل من الحراس المسلحين، لم تدم لحظات الذعر سوى فترة قصيرة. وعلى الفور انطلقت هنا وهناك صيحات التهنئة للقيصر الجديد. تزايدت أكثر فأكثر، وأضحت أقوى. اقتصرت في البدء على المتآمرين. ثم دفع الخوف من السيوف الممشوقة في أيدي الجنود المدعوين غير المطلعين،

القادمين للاحتفال بعيد الميلاد، للانضمام إليهم. وبهذا الأسلوب أصبح جميع الموجودين في منزل مارسيلينوس، بمن فيهم الضيوف الذين جاؤوا مصادفة، شركاء في الانقلاب. وأرغم الجميع بدءاً بتلك اللحظة على السير على طريق التمرد كنتيجة لِما حدث.

وفي اليوم التالي عبَّر سكان المدينة والمناطق المحيطة بها عن فرحهم باستقبال الحاكم. وكانت مشاعر البهجة صادقة. ليس بسبب كراهية السكان هناك، شأنهم شأن الآخرين في غالة كلها، لقسطنطس وعصابة موظفيه المرتشين فحسب. فقد كان لدى سكان أوغوستودونوم سبباً وجيهاً آخر للوقوف إلى جانب عملية الاستيلاء على السلطة. حيث توقعوا من الحاكم الجديد الذي ارتدى الأرجوان الإمبراطوري للمرة الأولى على أرضهم، أن يمنح مدينتهم موقعاً استثنائياً، وامتيازات لم تحظ بها في غالة حتى الآن سوى مدينة ترريير، المدينة المفضلة لدى أسرة قسطنطين الكبير. لم يُخفِ سكان أوغوستودونوم أبداً غيرتهم من تلك المدينة الواقعة على ضفاف نهر Mozeele، من أهميتها، وازدهارها، وثرائها.

لكن الموضوع الأهم بالنسبة لمغنينسيوس لم يكن موقف السكان، وإنما موقف الجيش. لا ريب في أنه قد تم ترتيب الأمور جيداً من قبل، وسقطت بذرة الانقلاب في أرض خصبة، ما دامت كافة وحدات الجيش وتشكيلاته قد أعلنت عن تأييدها للمغتصب على الفور.

كان قسطنطس في هذه الأثناء في رحلة صيد! في منطقة أوغوستودونوم بالذات. كان شديد اللهفة للصيد. الحقيقة أن البعض أشاع بأنه يلجأ إلى الغابات بهدف واحد فقط، ألا وهو ممارسة نزوته الشاذة والمخجلة مع الصبية الذين رافقوه في كل مكان. والشيء الذي عرَّض القيصر للضياع النهائي كان انقطاعه التام عن العالم لبضعة أيام، حيث وجد التمرد الوقت الكافي للانتشار بحرية. ولمَّا غادر أخيراً أعماق الغابة المهجورة وبلغه نبأ التمرد، اضطر مرغماً للاعتراف بأن الوقت قد تأخر. بقي أمامه شيء واحد فقط: أن يلوذ

بالفرار لينجو بجلده. ولذلك، ودون ضياع للوقت، توجه برفقة أقرب أفراد حاشيته نحو الجنوب، إلى إسبانيا.

انقضَّ عليه المطاردون في مدينة هيلينا الصغيرة، إيلن الحالية Elne، على سفوح جبال البيرينيه الشرقية. وفي اللحظة الأخيرة لجأ قسطنطس هناك إلى الكنيسة الصغيرة وألقى بشارات السلطة على الأرض؛ لكن الجنود بقيادة ضابط جرماني قاموا بجرِّه عنوة وأبعدوه عن الهيكل، ثم قتلوه.

أعطى اسم هذه المدينة أساساً للحكاية التالية:

بعد ولادة قسطنطس مباشرة، طلب والده من المنجمين تحديد برج الصبي وقراءة طالعه. فقال هؤلاء بأنه سيموت في أحضان جدته، أي هيلينا؛ لكنَّ الجدة توفيت وهو لا يزال طفلاً. ومنذ ذلك الحين لم يفوِّت قسطنطس فرصة واحدة للتهكم والسخرية من المنجمين. وكان يردد بلهجة المنتصر:

ـ كان لي أن أموت في أحضان هيلينا التي ماتت منذ أعوام!

مغنينسيوس

يجب أن يثير الدهشة تخلّي سكان غالة عن القيصر الشرعي بهذه السرعة وبهذا القدر من الجاهزية؛ وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أسرة قسطنطس حكمت هذه البلاد لما يزيد عن نصف قرن! ففي البدء تولّى السلطة هناك قسطنطينوس كلوروس، ومن ثم ابنه قسطنطين الكبير، ومن بعده ابنه قسطنطين الثاني، وأخيراً ومنذ عشرة سنوات قسطنطس بنفسه. بفضل شهادات مختلف المراجع نعرف أن الاثنين الأولين منهما تركا أفضل انطباع في ذهن وذاكرة رعاياهما. يبدو أن حكم قسطنطس أضحى محطّ كراهية الجميع في غالة، ما دامت مشاعر الولاء للأسرة لم تفصح عن ذاتها في أي مكان؛ ربما باستثناء ترير.

الشيء الثاني الذي لعب دوراً في سقوط قسطنطس كان بطبيعة الحال، الميول الانفصالية القوية التي عبّرت عن نفسها منذ أمد بعيد في هذا الإقليم، وعلى نحو خاص في القرن الثالث: استيقظت هذه الميول نتيجة سوء تصرفات قسطنطس السياسية، وتشابكت خيوطها حول شخص مغنينسيوس.

تبدو حياة ومصير الأخير على قدر كبير من الغرابة، فخارج نطاق الجيش لم يكن شخصية معروفة أو مأخوذة على محمل الجد. انحدر من أسرة بربرية كما قيل آنذاك، من القاع الاجتماعي. أجل، لقد وُلِدَ في غالة، في مدينة

أمينز Amiens الحالية، لكن والداه كانا وافدين. فوالده، كما يبدو، هاجر أو هُجِّرَ قسراً من بريطانيا. فمن المعروف أن قسطنطينوس كلوروس نقل آلاف الناس من الجزيرة إلى القارَّة، وخاصة الحرفيين؛ وأراد بذلك إحياء وتنشيط مدن غالة التي دمَّرتها غزوات البرابرة. أما والدة مغتصب العرش، فكانت من أصول فرنكونية، الشعب الذي خاض الرومان معه معارك دموية ضارية على ضفاف الراين السفلي. يُرَجَّحُ أنها كانت سبيَّة. وقد رافقت ابنها حتى آخر لحظات حياته، وأظهر بدوره نحوها مودة قلبية حتى في الوقت الذي كان فيه قيصراً.

على الرغم من محاولة الأعداء تذكير الحاكم الجديد بانحداره من أصول غريبة، فقد شعر هو بأنه روماني. وعلى أي حال كان رجلاً متعلماً إلى حد ما، ولكن بأسلوب الهواة؛ قرأ الكتب بنهم، وألقى الخطب بصورة رائعة. تميز على ما يقال بالغطرسة والجبن، وحاول تقنيع السمة الأخيرة بالإقدام على المجازفات الخطرة. تمكن بفضل مواهبه وبنية جسمه الرياضية من الصعود السريع في سلَّم المراتب العسكرية، حتى تولَّى قيادة فيلقي اقتحام دخلا في عداد الجيش الخاص المرافق للقيصر. ولمَّا قام بعملية الانقلاب، كان على مشارف العقد الخامس من عمره.

ما هي الشعارات التي طرحتها حكومته من الجانب الدعائي؟ تسلط الكتابات المعاصرة بعض الأضواء على الموضوع. فهي تمجد مغنينسيوس وتصفه بأنه «محرر العالم الروماني، مجدد الحرية والدولة، شفيع الجنود والسكان المهملين». يُرَجَّح أن يكون الحاكم الجديد قد عزل الكثيرين من كبار المسؤولين السابقين، وكذلك بعض المتآمرين، بهدف تحقيق هذه الأفكار السامية. ومن ناحية ثانية كان لتصفية الحساب الصارم مع ممثلي النظام السابق الذين كانوا محطَّ أكبر قدر من الكراهية، كبير الأثر في كسب ود وتعاطف الجماهير الواسعة من فقراء السكان، وذلك ليس في غالة وحدها. وعلى نحو مشابه رسخت قواعد حكمه سياسته الحكيمة على الصعيد الديني. لا ريب في أن مغنينسيوس نفسه كان وثنياً؛ وخير دليل على ذلك سماحه

بإقامة صلوات ليلية تكريماً للآلهة القديمة. لكنه في الآن ذاته أمر بأن تظهر على النقود التي صكّها رموز مسيحية، وتحديداً شارة الصليب بين الحرفين الإغريقيين ألفا وأوميغا؛ كما حاول الاتصال مع أثناسيوس في الإسكندرية، وأرسل إليه وفداً من رسله.

سرعان ما حظي مغنينسيوس وسلطته بالتقدير والاحترام خارج حدود غالة أيضاً، في إسبانيا وبريطانيا، وقد ساهمت في ذلك السياسة الدعائية والظروف المواتية. كما لعب مدير الإدارة المدنية الأسبق فابيوس تيتانوس دوراً بالغ الأهمية، ففي اليوم السابع والعشرين من شباط تولّى منصب والي روما. وأعلنت إيطاليا، والبلدان الألبية، وأفريقيا ولاءها للحاكم الجديد.

وفي المقاطعات البلقانية وحدها، حيث كانت خاضعة أيضاً لقسطنطس، بدت الأوضاع مختلفة.

فيترانيون

تولّى قيادة جيوش البلقان الجرارة ضابط متقدم في السن يدعى فيترانيون. وُلِدَ في تلك المناطق على أرض يوغسلافيا الحالية، في أسرة مدقعة الفقر. وعلى الرغم من أنه لم يتلقَ حتى أبسط عناصر التعليم ـــ تعلم الكتابة في أواخر أيامه ـــ تمكن من بلوغ أرفع المراتب العسكرية. حظي باحترام وتقدير كبيرين في أوساط الجنود؛ أتقن عمله جيداً، تميز بسهولة التعامل، وعرف كيف يجد لغة مشتركة مع رفاق السلاح.

استُقبلت أنباء التمرد في غالة وتطوره السريع بمشاعر الفرح في أوساط الجيوش المتمركزة في وادي الدانوب، لأن قسطنطس لم يكن محبوباً هناك أيضاً، أو ربما كان مكروهاً، مثلما كانت عليه الحال في البلدان الأخرى الخاضعة له. ولذلك لاح في الأفق خطر إعلان تلك الوحدات بدورها الولاء لمغنينسيوس. كما حدث في كافة المقاطعات الغربية. لكن فيترانيون تريث. لا ريب في أن الدافع لذلك تَمثّل في ولاء الجندي العجوز وتعلقه بالأسرة الحاكمة، فقد بدأ الخدمة في عهد قسطنطين الكبير كجندي بسيط، وله ولأبنائه يعود الفضل في كل ما حققه في حياته. استغلت قسطنطينا بأسلوب مشرف مواهبها السياسية في لحظات تردد القائد العجوز تلك.

كانت ابنة قسطنطين الكبير، شقيقة قسطنطينوس، المتزوجة من هنيباليان قبل عشرة وبضع من السنين، مقيمة آنذاك في أحد بلدان البلقان بالقرب من مركز قيادة فيترانيون الرئيس. أدركت على الفور أن قضية الأسرة الحاكمة

الشرعية ستكون خاسرة مرَّة وإلى الأبد، فيما لو اعترف القائد العجوز بسلطة المغتصب: فقسطنطينوس الذي يحكم الجزء الأصغر من الإمبراطورية، لن يتمكن من الوقوف في وجه القوى الموحدة للمقاطعات الغربية والوسطى؛ ولذلك لا بد من منع فيترانيون من إعلان الولاء لمغنينسيوس مهما بلغ الثمن. كانت فكرة قسطنطينا عبقرية في بساطتها: تمكنت من إقناع القائد بوجوب السماح للجنود بالمناداة به قيصراً؛ أيفوقه مغنينسيوس بشيء؟

وبفضل شعبية فيترانيون أنجزت المهمة على جناح السرعة ودون أدنى مقاومة من قبل أيٍّ كان في أكبر معسكرين للجيش، في سيرميوم على ضفاف نهر سافا وفي مورسا (أوشيك الحالية). وحدث هذا في اليوم الأول من آذار عام ٣٥٠. تقبل قسطنطينوس الأمر الواقع على الفور وهو يعي الأمر، وبعد أن أخبرته شقيقته سراً بلا شك. والأكثر من ذلك أنه أرسل صولجاناً إمبراطورياً لفيترانيون، أي أنه رمزياً اعترف به حاكماً كامل الحقوق.

بدأت الآن مرحلة رهافة اللعبة السياسية بين الحكام الثلاثة. تعذر على قسطنطينوس مغادرة الشرق، إذ بدأ آنذاك هجوم فارسي واسع النطاق بقيادة الملك شابور شخصياً؛ وكان يستهدف مدينة نيزيبس (نصيبين الحالية) في شمال بلاد ما بين النهرين. ولذلك اضطر قسطنطينوس لدعم فيترانيون وكسب ثقته، ولكن في السر وبطريقة غير مباشرة. فلو عَلِمَ مغنينسيوس بالأمر، لهاجم على الفور المقاطعات البلقانية. طلب فيترانيون من قسطنطينوس المال والإمدادات العسكرية مؤكداً بذلك أنه يعتبر نفسه مجرد حامٍ آني وحارس للمقاطعات الموكلة إليه. ولكن نظراً لظروف الحرب مع الفرس لم يتمكن القيصر من تلبية طلباته بالقدر الكافي. فلم يجد فيترانيون أمامه مخرجاً آخر سوى عقد معاهدة سلام مع مغنينسيوس، أي الاعتراف به سيداً على الغرب، الشيء الذي لم يكن بدوره يلائم قسطنطينوس؛ حيث أنه رفض على الفور كافة مقترحات مغنينسيوس التي صبَّت في هذا الاتجاه.

نيبوسيان

ربما كان مغنيسيوس على الرغم من كل شيء سيهاجم المحارب القديم على الفور، لولا التمرد الذي حدث في إيطاليا. فمنذ سنة ٣٥٠ ظهر هناك مطالب جديد بالعرش والأرجوان الإمبراطوري. كان هذا نيبوسيان، ابن شقيقة قسطنطين الكبير، أي أنه بحكم العلاقات الأسرية كان أحقَّ بالعرش من المغتصبين مغنينسيوس وفيترانيون. أحاط نفسه بحشود من المجالدين، وقطاع الطرق، وشتى أصناف المجرمين والطائشين. اقترب من أسوار روما وشتت السكان المسلحين. وفي اليوم الثالث من حزيران اقتحم المدينة ونودي به قيصراً. وبدءاً بهذه اللحظة، ولمدة ثمانية وعشرين يوماً جُنَّ في المدينة جنون العنف. قتل رجال نيبوسيان الناس لمجرد شهوة القتل، فامتلأت الشوارع والساحات بالجثث. وهذا ما يسَّر مهمة الجيوش التي سيَّرها مغنينسيوس على عجل بقيادة مارسيلينوس الذي أقيمت في منزله قبل بضعة شهور حفلة عيد الميلاد، حيث ظهر فيها المغتصب باللباس الأرجواني.

في الثلاثين من حزيران فرضت جيوش مغنينسيوس سيطرتها على روما بمساعدة واحد من أعضاء مجلس الشيوخ. قُتِلَ نيبوسيان؛ فَقُطِعَ رأسه، وثُبِّتَ على رمح، وجاب به الجنود شوارع المدينة ــ مثلما فعل الجنود برأس ماكسينسيوس الذي هزمه قسطنطين الكبير قبل بضع عشرات من الأعوام.

قُتِلَت والدة نيبوسيان أيضاً معه. وهكذا فقدت أسرة قسطنطين المحدودة العدد بعد مجزرة عام ٣٣٧ اثنين آخرين من أفرادها.

وبعد تحقيق النصر مباشرة اجتاحت روما موجة جديدة من العنف. وفي هذه المرَّة استُهدِف جميع الذين اشتُبِه بهم بالتعاطف مع نيبوسيان. ووقع الاختيار بشكل أساسي على الشخصيات البارزة والثرية، حيث صودرت ممتلكاتهم لصالح خزينة الدولة. فحاكم الغرب الجديد واجه منذ بداية حكمه مصاعب كبيرة على الصعيد المالي، نجمت أساساً عن كرمه الزائد مع الجيش ــ الجيش الذي رفعه إلى سدة العرش ووجب عليه التعبير له عن امتنانه. وللحصول على الموارد الضرورية بدأ بفرض نظام ضريبي بالغ القسوة. فبلغت الإتاوات تدريجياً نصف الموارد من محاصيل الأرض وهدد خطر الحكم بالموت على المتخلفين والمترددين. وتم اللجوء إلى ترغيب العبيد للإدلاء بشهاداتهم ضد سادتهم فيما لو حاولوا إخفاء مواردهم أو خداع موظفي مصلحة الضرائب. كما عُرِضت للبيع بعض الممتلكات الإمبراطورية وأُرْغِمَ على شرائها مَنْ لم يتلهفوا إلى ذلك إطلاقاً.

حصار نصيبين (نيزيبيس)

في تلك الأثناء وجد قسطنطينوس نفسه مرغماً على التصدي لواحدة من أخطر الغزوات الفارسية التي هددت حدود الإمبراطورية في أي وقت. ففي ربيع عام ٣٥٠ حشد الملك شابور جحافل لا تحصى من الجيوش استجرها من الهند. وأرغم على مرافقتها الزرّاع مع نسائهم وأطفالهم أيضاً؛ إذ خطط للاستيطان الفوري في الأراضي المستولى عليها حديثاً. نُفّذتْ مخططات ملك الملوك بنجاح في بادئ الأمر. اقتحمت جيوشه المناطق الشمالية من بلاد ما بين النهرين واحتلت العديد من الحصون والمدن الصغيرة، ثم انتقلت إلى حصار ــ للمرة الثالثة خلال عشرة وبضع من السنين ــ مدينة نيزيبيس (نصيبين الحالية) ذات الموقع الاستراتيجي الهام.

بدا الأمر وكأن شابور سيحقق هدفه في هذه المرّة. حقيقةً، فشلت الأعمال الهجومية الأولى تماماً، لأن مياه نهر ميغونيوس عرقلت الوصول إلى الأسوار. ولكن سرعان ما تبادر إلى ذهن الملك، أو ربما بمبادرة من أحد قادته، فكرة استغلال هذا النهر بالذات أثناء احتلال المدينة. ردم مجرى النهر تحت المدينة بكميات هائلة من الأتربة، مما أدى إلى انتشار المياه حول الأسوار على هيئة بحيرة ضخمة. وسرعان ما لاحت على صفحة مياهها

القوارب والمراكب الفارسية، واقتربت من التحصينات، وراحت الآلات الحربية المثبتة على متنها تمطر المدافعين بالقذائف. لكن الرومان صدّوا هذا الهجوم أيضاً بنجاح، حيث أحرقوا المراكب بنبال ناريَّة، أو هشّموها بالحجارة الثقيلة التي قذفتها المجانيق.

وفي نهاية المطاف، وبعد أن تشبعت الأساسات بالمياه، انهارت الأسوار في أحد المواقع لتشكل فجوة واسعة. دفع الملك على الفور بفرسانه نحوها. كان لهم أن يجتازوا المياه ويقتحموا القلعة. لكن الرومان تمكنوا أثناء ذلك من سدِّ الثغرة بأرتال متراصة من جنود المشاة الثقيلي التسليح، بينما صعد جميع السكان القادرين على القتال برفقة مَنْ تبقى من الجنود، فوق الأسوار المجاورة وغير المهلهلة بعد. تقدمت الجياد الفارسية ببطء وصعوبة بالغة على الأرض المغمورة بالمياه والموحلة، على الرغم من أن الجنود لم يدَّخروا جهداً في محاولة دفعها إلى الأمام بسياطهم. وفي إحدى النقاط، حيث كان الخندق فيما مضى، وبات غير مرئي الآن بسبب الغمر، بدأت الجياد تتعثر وتسقط لتجرَّ الفرسان ذوي الدروع الثقيلة، والخوذ، والتروس، في الأوحال. وعندئذ سقط من الأسوار وابل من الحجارة وتطايرت النبال. واندفع الجنود الرومان بعنف إلى الأمام إلى حيث كان ممكناً وهم يقطعون ويطعنون الفرس الذين تمرغوا في المستنقع.

كما فشل الهجوم الذي تم في ذلك المكان بالذات بواسطة الفيلة. ثم حاول الفرس منع ترميم السور، حيث أطلق رماتهم المهرة السهام على كل من حاول الظهور في الفجوة. حجب الرومان العمال بتروس المشـــاة، وبالمثابرة على العمل ليل نهار، تمكنوا من إعادة السور إلى ارتفاعه السابق.

استمرت المعارك أربعة أشهر. ولو تابع شابور حصار المدينة، لاستسلمت على الأرجح. لكن الملك تلقى آنذاك نبأ اقتحام قبائل الرحَّل القادمين من مناطق بحر قزوين للمقاطعات الشمالية، فاضطر للانسحاب من تحت أسوار نصيبين تاركاً هناك جثث عشرين ألف من جنوده القتلى.

منذ تلك اللحظة ســـاد هدوء نسبي على الحدود الشرقية للإمبراطورية لما يقارب ثماني سنوات. وتمكن قسطنطينوس أخيراً من صبٍّ كامل اهتمامه، وتسخير كل قواه لمعالجة مشاكل الغرب. فمن هناك بالذات وصلته أخبار مثيرة للقلق عن سير وتطور الأحداث.

المفاوضات وصوت السماء

في ربيع سنة ٣٥٠ عبر القيصر البوسفور، ووطئ الشواطئ الأوروبية. وهناك في هيراقليا التراقية اعترض طريقه في أحد الأيام وفد مشترك يمثل مغنيسيوس وفيترانيون. أثبت هذا الشيء صحة الأنباء الواردة من قبل، والتكهنات القائمة حول تفاهم الغاصبين، واتفاقهما على الالتزام بسياسة موحدة. لم يكن هذا مقلقاً فحسب، بل خطراً أيضاً، فالحاكم الشرعي لم يكن قادراً على مواجهة القوى المشتركة للرجلين.

عرض الرسل ـــ كانوا من أعضاء مجلس الشيوخ ومن أصحاب نفوذ آخرين ـــ مقترحات معتدلة، لا بل نافعة في بعض جوانبها. وعلى وجه التحديد: الوقف الفوري لكافة العمليات القتالية؛ الاعتراف المتبادل بين الحكام الثلاثة؛ أولوية شرف لقسطنطينوس الذي بصفته Maximus Augustus سيصبح الرأس الرمزي للإمبراطورية. وعلاوة على ذلك، وبهدف ترسيخ دعائم هذا التحالف، طلب مغنيسيوس يد قسطنطينا شقيقة قسطنطينوس للزواج، كما عرض عليه بنفسه تزويجه من ابنته.

ألقى أحد الرسل، السيناتور نونيخيوس كلمة مليئة بعبارات التهديد والوعيد، مذكراً قسطنطينوس بأن جيوشه منهكة بالحروب المديدة مع الفرس، وهتف قائلاً:

ـ سيكون تصرفك غير متزن لو أثرت حرباً ضد حاكمين وقائدين لامعين، يتصرفان بجيوش جرارة، ويعملان معاً!

كانت المقترحات كما أسلفنا معقولة، ولو أن قسطنطينوس قبل بها لَما خسر شيئاً، وإنما كان سيكسب مركز الصدارة المشرِّف. لا ريب في أن كلمات نونيخيوس كانت قاسية، لكنها كانت واقعية أيضاً. وقد أدرك القيصر هذا الشيء تماماً. كما أدرك أنه إذا ما رفض العرض السلمي، وباشر الأعمال القتالية، سيعرِّض الإمبراطورية بأسرها للخطر ولإراقة الدماء، ويعرِّض نفسه لخسارة كل شيء. فلا غرابة في أن الحاكم المتقلب والمتجهم تريث في إعطاء الإجابة إلى اليوم التالي.

ولما اجتمع المجلس في اليوم التالي، قال قسطنطينوس الذي استعاد هدوءه تماماً لمساعديه:

ـ رأيت في الليل حلماً. رأيت أبي الذي بدا وكأنه يهبط من السماء، كان يمسك بيد قسطنطس، ويشير إليه قائلاً: ها هو ابني، وشقيقك، سليل الأباطرة، لقد قُتِلَ على نحو إجرامي، فلا تهمل هذه الضربة الموجهة للدولة، والانقلاب على السلطة! لا تخف من أية تهديدات. ستخرج ظافراً من كل المخاطر. والأهم من كل ذلك هو ألا تترك أخاك دون أن تنتقم له.

وضع صوت السماء المزعوم هذا حداً لكل تردد. لم يجرؤ أي من أعضاء المجلس على الكلام، على الرغم من أن الكثيرين اعتبروا عرض المغتصبين معتدلاً، ومستحقاً الدراسة. لكنه فَقَدَ قيمته آنذاك. لأن قسطنطينوس الذي اعتمد آنذاك إرادة الأب الموحى بها، أزاح الموضوع من المستوى السياسي ليضفي عليه صبغة كادت أن تكون دينية. وأضحت الحرب واجباً مقدساً أملاه الحاكم الراحل، مثلما طالبت رسالته المزعومة التي انتزعت قبل أعوام من يده تحت المعطف الأرجواني، بتصفية الحسابات مع القتلة الذين نفذوا عملهم الخسيس في الخفاء.

أمام الوضع الجديد، لم يكن هناك مجال للحديث عن احترام حق الرسل والوفود. اعتقل رسل مغنيسيوس وفيترانيون، ولم يسمح بالمغادرة سوى لواحد منهم فقط، هو فولكاسيوس روفينوس، السيناتور، والمسؤول الرفيع الذي ربطته علاقة قرابة بالأسرة الحاكمة، كشقيق لغالا والدة غالوس. كان عليه أن يخبر الجانب الآخر بمصير رفاقه. هكذا كان رد قسطنطينوس.

كان قرار مواصلة الحرب الذي اتخذ في هيراقليا التراقية في خريف عام ٣٥٠ من أهم القرارات التي اتخذت في ذلك القرن من حيث النتائج التي أسفر عنها.

أرجوان فيترانيون

بعد أن تلقى فيترانيون تحذيرات روفينوس، نشر وحدات عسكرية حسنة التسليح فاقت قوتها ما تصرف به قسطنطينوس بكثير، لحراسة المعابر الجبلية الحدودية التي امتدت عبرها الطريق الممتدة بين فيليبو بوليس (بلوفديف) وسرديكا (صوفيا). لكنه سرعان ما بدّل موقفه أمام تصميم الأخير. فألغى من حساباته فكرة المقاومة، وقرر التحالف مع قسطنطينوس ضد مغنيسيوس! وقد تكون أسباب ذلك معنوية في المقام الأول؛ فالضابط العجوز الذي دخل الخدمة في عهد قسطنطين الكبير وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه ابنه. توجه نحو الحدود، ولكن بهدف مناقشة شروط العمل المشترك.

التقى القائدان في سرديكا. ومنها توجها إلى معسكرات الجيش الرئيسة في الغرب. يكتنف الغموض سير المحادثات، لكن الشيء الوحيد الذي يبدو مؤكداً هو أن فيترانيون وجد نفسه على الفور في وضع أسوأ أمام شريكه صاحب الخبرة والحنكة السياسية. يصف أحد المصادر التاريخية القائد العجوز بالكلمات التالية: «كان طيِّباً إلى حد الغباء» (٣٢). وفي تلك الأثناء نشط ضباط وعملاء القيصر المحنكون في أوساط الجيش دون أن يبخلوا بالوعود والذهب..

بعد هذه الأعمال التحضيرية، أقيمت المراسم غير المعهودة في معسكر نايسوس (نيش)، في الخامس والعشرين من كانون الأول لسنة ٣٥٠ التي

اقتربت من نهايتها. وقف الضباط والجنود بكامل عتادهم أمام المنصة الرئيسة التي صعد إليها القيصران اللذان ارتديا معطفيهما الأرجوانيين، واعتمرا تاجيهما. تكلم في البدء قسطنطينوس الأنبل نسباً، والأقدم في الحكم. ذكّر الجنود بأفضال والده قسطنطين الكبير، وأفضاله هو عليهم. وردد العبارات التي تفوهوا بها وهم يقسمون بكل المقدسات على أن يخدموا الأسرة والإمبراطورية بأمانة وإخلاص، وألا يخونوها أبداً. وناشدهم بألا يسمحوا بمرور جريمة قتل قســطنطس الذي حاربوا تحت أمرته لأعوام طويلة ظافرين دون عقاب.

فور انتهائه من إلقاء كلمته، انطلقت صيحة عظيمة تحيَّة لقسطنطينوس الجليل وحده؛ كان إغفال اسم فيترانيون بمثابة إصدار الحكم. ألقى العجوز بنفسه على قدمي القيصر بعد أن ألقى بالمعطف الأرجواني والتاج جانباً. مدَّ له قسطنطينوس يده، وأعانه على الوقوف، ثم عانقه بحرارة، وقال أنه يرى فيه أباً. دعاه بعدها للجلوس إلى المائدة، وكانت هذه نهاية ممارسته للسلطة الإمبراطورية التي لم تدم سوى شهرين.

يصف بعض المؤرخين والكتاب القدماء ما حدث في نايسوس بالحدث الاستثنائي الذي لا مثيل له في التاريخ، حيث تمكن القيصر الشرعي بالخطاب وحده من تهدئة الجيش، وإيقاظ روح الوفاء فيه، فقهر مغتصب العرش بســلاح الكلمة! أجل! أمكن لهذا الحدث أن يكون استثنائياً فعلاً، وجديراً بالإعجاب، ليس في تاريخ روما وحدها، لولا الظروف التي أسلفنا الإشارة إليها من قبل: لقد نشط رجال قسطنطينوس منذ البداية في أوساط الجيش لخلق الأجواء الملائمة بين الجنود. ومن المحتمل أيضاً أن يكون فيترانيون نفسه قد وافق على المشاركة في مراسم الاحتفال وهو يعرف سلفاً المجرى الذي سيتخذه مجرى الأحداث، والدور الذي سيلعبه هو فيها.

وعلى أي حال، لقي معاملة لائقة. استقر في مدينة بروسا في بيتينيا، وعاش هناك ست سنوات أخرى، حياة هادئة، حياة وفرة ونِعَم.

القيصران غالوس وديسينسيوس

بعد أن أخضع قسطنطينوس الجيوش المتمركزة في وادي الدانوب لأوامره، بلغت قوته حداً يسمح له ببدء النشاط العسكري، ومهاجمة إيطاليا التي كان المغتصب موجوداً فيها آنذاك. لكن الممرات الألبية في فصل الشتاء لم تكن صالحة للمرور، وهذا ما أرغمه على الانتظار حتى حلول فصل الربيع.

أمام احتمال شن حملة على الغرب وضرورة نقل العمليات إلى ذلك الشـــطر من الإمبراطورية، كان لا بد من التفكير بكيفية تأمين الحماية للحدود الشرقية. فقد ظل الخطر محتملاً فيما لو تمكن ملك الفرس من إخماد انتفاضة قبائل الرحل وتوجيه جحافله مجدداً نحو المقاطعات الرومانية. ولذلك ارتأى قسطنطينوس ضرورة اللجوء إلى القاعدة التقليدية السائدة في الإمبراطورية : قام بتعيين حاكم شريك يصغره سناً، ومنحه لقب قيصر، ليتحمل مسؤولية الدفاع عن الشرق. وبما أن أفراد الأسرة الحاكمة وحدهم يؤخذون بعين الاعتبار في الترشيح لمنصب كهذا، لم يكن الخيار صعباً بعد الأحداث الدامية التي أدت إلى تقليص عددهم بدءاً من عام ٣٣٧.

في الخامس عشر من آذار سنة ٣٥١، أقيم احتفال رسمي في معسكر سيرميوم على ضفاف نهر سافا. قدم قسطنطينوس خلاله ابن عمه غالوس للجنود. منحه لقب قيصر، محتفظاً لنفسه بلقب أغسطس الأكثر هيبة، كما منحه اسمه أيضاً؛ ومنذ ذلك الحين أصبح اسم الشاب الرسمي: فلافيوس كلاوديوس قسطنطينوس غالوس. ولتعزيز أواصر العلاقة العائلية تزوج الشاب قسطنطينا شقيقة قسطنطينوس، المرأة ذاتها التي كانت زوجة هانيباليان قبل أربعة عشر عاماً، والتي قدمت في الآونة الأخيرة خدمة جليلة للإمبراطورية بإقناعها فيترانيون بإعلان نفسه قيصراً، وعدم إخضاع جيوش منطقة الدانوب لأمرة مغنيسيوس. وكان من المتوقع أن تتعامل مع زوجها بحكمة، وتقوم بتوجيهه في الاتجاه الصحيح. كان غالوس آنذاك قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر، لكن خبرته في الشؤون السياسية ومعرفته بدسائس البلاط كادت أن تكون معدومة؛ فالعزلة في غابات قبدوقية، وصيد الحيوانات البرية لم يعلماه كيفية التعامل مع الناس.

في ذلك الوقت على وجه التقريب، قام مغنيسيوس بدوره بتعيين حاكم شريك لنفسه، حيث منح ديسينسيوس لقب قيصر. أوكل إليه إدارة شؤون غالة والدفاع عن حدود الراين، فقد خشي أن تستغل القبائل الجرمانية ظروف الحرب الأهلية في الإمبراطورية، وتهاجم المقاطعات الموجودة في غالة. سرت شائعات هنا وهناك بأن عملاء قسطنطينوس السريين يجوبون مناطق البرابرة ويشجعونهم على القيام بذلك.

بعد انتهاء مراسم الاحتفال في سيرميوم، توجه غالوس على الفور إلى الشرق ليحدد مكان إقامته في إنطاكية السورية. لكنه توقف وهو في طريقه إليها في نيقوميديا لفترة قصيرة، حيث التقى بأخيه الأصغر يوليان. كان القيصر الشاب الذي ارتدى الأرجوان الإمبراطوري، وأحاط نفسه بالحراس المسلحين بصورة رائعة، ومن حوله جيش من الموظفين والخدم، سيِّد حياة وموت الملايين من الناس. أما يوليان، فكان ببساطة يدرس، ولا يرغب في شيء آخر.

معارك ومفاوضات

في مطلع الربيع، ومع حلول الدفء، وما أن سمحت أحوال الجو بذلك، زحفت جيوش كل من مغنيسيوس وقسطنطينوس لتواجه بعضها وتخوض معركتها. تركز الاهتمام على اجتياز المعابر الألبية الوعرة والخطرة التي يسهل إغلاقها في وجه الخصم بعدد محدود من القوات. حقق مغنيسيوس السبق. ففي مكان ما من الوديان الجبلية، إلى الشمال من لوبلان الحالية، وقع قسم من قوات قسطنطينوس في الكمين الذي نصبته قوات مغنيسيوس، وتعرضت لخسائر فادحة. بعد أن تلقى القيصر الحذر هذا النبأ، لم يكتف بوقف التقدم فحسب، بل أمر بالانسحاب من وادي نهر سافا إلى مدينة سيسكيا أي سيساكا الحالية. كان محقاً في اتخاذ هذا القرار. فبما أنه لم يتمكن من اجتياز المعابر الألبية بالسرعة المطلوبة، وسبقه الخصم إلى ذلك، توجب عليه اعتراض طريق هذا الخصم في المناطق السهلية التي تسمح بنشر وحدات الفرسان الممتازة التي كان قسطنطينوس يتصرف بأعداد كبيرة منها.

في تلك الأثناء تابع مغنيسيوس الزحف على وادي نهر درافا. فاحتل بويتوفيو (بتوي الحالية)، أحد المراكز العسكرية والمدنية الهامة. بدت أوضاع قسطنطينوس وكأنها ليست على أفضل حال، فلا غرابة في أنه ارتأى ضرورة البدء بالتفاوض؛ وكان على استعداد لتقديم بعض التنازلات على الرغم من أنها كانت ستكلفه الكثير. فبعث إلى مغنيسيوس بأحد كبار المسؤولين في

بلاطه، وهو فيليب مدير الإدارة المدنية؛ وكلّفه أيضاً باستشفاف نوايا وقوة الخصم.

دعا مغنيسيوس الجنود لاجتماع عام. كان واثقاً من أن الرسول سيبرز ضعف سيده على أفضل وجه إذا سمح له بتقديم عرضه للسلام علناً أمام الجميع. أصعد فيليب إلى المنبر وأمره بأن يتكلم. لكن الأخير استهل الحديث بالتذكير بعظمة الأسرة الإمبراطورية الشرعية، ثم أسهب في الحديث عن مناقب قسطنطين الذي كان كثيرون من الجنود الحاضرين قد خدموا تحت أمرته، والذين يرفعون الآن السلاح في وجه ابنه. لكن اقتراح السلام الذي عرضه ترك الانطباع الأعمق في أذهانهم:

القيصر مستعد لوقف العمليات العسكرية؛ وهو على استعداد أيضاً للاعتراف بمغنيسيوس حاكماً شرعياً، ولكن شريطة أن يتنازل عن إيطاليا وأفريقيا؛ وبذلك يمكنه أن يحكم بهدوء المقاطعات الواقعة خلف جبال الألب، أي بريطانيا، وغالة، وإسبانيا.

كان معظم جنود مغنيسيوس من تلك المناطق بالذات، ولذلك أبهجهم العرض، واعتبروه سليماً وعادلاً. فتعالت صيحات الموافقة البهيجة من كل الجهات، وعمّت الفوضى. وجد مغنيسيوس صعوبة بالغة في إلقاء كلمته. قال باختصار بأنه بدوره مع السلام ــ وانتهى اللقاء على الفور. أكد على أن اللقاء سيتكرر في اليوم التالي، حيث سيعرض موقفه بدقة.

وفي المساء أقام مغنيسيوس وليمة لكبار ضباطه؛ وفي الواقع، وتحت غطاء مظاهر الشكر، جرت مشاورات جادّة، تلقى المشاركون خلالها تعليمات دقيقة. وفي تلك الليلة بالذات باشروا العمل الدعائي في أوساط الجنود دون أن يبخلوا بالمال. ولذلك اتخذ الاجتماع التالي مجرى مختلفاً عن سابقه. تهجّم مغنيسيوس بعنف على قسطنطس الميت، وأشار إلى سوء معاملته المزعوم للجنود، وهتف بأعلى صوته:

ـ بعد أن عجزتم عن تحمل جرائمه المرتكبة بحق الدولة، شهرتم السلاح للدفاع عن المجتمع. حررتم مدننا من ذلك الحيوان المتوحش، وأرغمتموني على تولي السلطة، على الرغم من عدم رغبتي التام في ذلك.

ردَّ الجنود على الفور بصوت عظيم:

ـ قم بقيادتنا إلى نهر سافا!

وبعد وقت قصير زحف الجيش نحو سيسكيا. لكن احتلال المدينة تطلب عبور النهر. أما الحامية المتمركزة هناك، والموالية لقسطنطينوس فقد قاومت ببسالة. فقُتِلَ أو غرق كثيرون من جنود مغنيسيوس وهم يقتحمون جسراً أو يحاولون عبور النهر سباحة؛ لكن المدينة سقطت في نهاية المطاف، وتعرضت للدمار.

كان قسطنطينوس قد انسحب من ذلك الموقع قبل وقت طويل، وعسكر قرب مدينة سيبالاي المعروفة اليوم باسم فينكوفيتشي، حيث يقترب نهرا سافا ودرافا من الدانوب وهما يخترقان السهول الفسيحة. في تلك المنطقة بالذات كان قسطنطين الكبير قد هزم قبل بضع عشرات من السنين خصمه ليسينيوس محققاً نصره الساحق، فاعتقد ابنه صاحب التفكير السلفي أن حظ الأسرة سيحالفه بدوره. لكنه من منطلق الحيطة والحذر أمر بإقامة تحصينات متينة. شُقَّ خندق يحف به ساتر امتد من المدينة نحو نهر سافا، أي بطول يقارب العشرين كيلومتراً؛ وأقيم جسر عائم على النهر.

جاء تيتيانوس رسول مغنيسيوس إلى معسكر القيصر. تكلم بلهجة متغطرسة ومهينة، وأشار إلى كل جرائم قسطنطين الكبير وأبنائه المزعومة؛ وعزا حالة الانهيار التي عانت منها المدن إلى غباء حكمهم. أنهى حديثه بدعوة قسطنطينوس للتنازل عن العرش طوعاً لصالح خصمه، وتسليم زمام السلطة في الدولة لمغنيسيوس. ثم أضاف:

ـ وهكذا يمكنك أن تعتبر نفسك سعيداً، إذا سمحوا لك بالعيش بأمان!

على الرغم من إهانة القيصر بهذا القدر من الوقاحة، سمح للرسول بالعودة إلى معسكر الخصم، حيث كان رسول القيصر ـ فيليب ـ لا يزال محتجزاً هناك.

الصدامات الأولى قرب مورسا

احتل مغنيسيوس ونهب كافة المستوطنات التي مرَّ بها وهو يتقدم على طول مجرى نهر سافا نحو الأسفل. وهكذا اقترب من سيرميوم تاركاً سيبالاي ومعسكر قسطنطينوس على يساره. اعتقد أنه لن يواجه صعوبة تذكر في احتلال هذه المدينة أيضاً. لكن أمله خاب تماماً. كانت سيرميوم مركزاً إدارياً وعسكرياً كبيراً؛ فصدَّت حاميتها ــ ومعها السكان ــ الهجمات ببسالة. عاد مغنيسيوس باتجاه شمال الغرب. وبما أن سيبالاي بقيت على يمينه في هذه المرة، انتقل من وادي سافا إلى ضفاف نهر درافا. أراد احتلال مورسا (أوشيك الحالية). لكنه واجه مقاومة عنيفة في هذه المدينة أيضاً. وبما انه لم يكن يتصرف بآلات الحصار الضرورية، وقف عاجزاً أمام أسوار المدينة العملاقة ــ وفي تلك الأثناء سارع قسطنطينوس لنجدة مورسا.

أعدَّ مغنيسيوس كميناً، حيث أدخل أربعة من الفيالق الغاليَّة إلى الستاد الواقع في أحد الوديان المكسوة بالغابات على مقربة من المدينة؛ وكان للجنود المتربصين هناك أن يهاجموا جيوش قسطنطينوس من الخلف بغتة أثناء المعركة. لكن السكان لاحظوا مناورات مغنيسيوس وهم يراقبون الأوضاع من أبراج مدينتهم العالية، وتمكنوا من إخطار قسطنطينوس في الوقت الملائم.

فقام القيصر على الفور بتســيير وحدة من رماة النبال وأخرى من المشاة الثقيلي التسليح لمواجهة الجنود المتربصين هناك. يبدو أن جنود مغنيسيوس شعروا بأنهم في أمان تام في الكمين، فلم يكلفوا أنفسهم عناء الحراسة، وفوجئوا وهم يلهون في حلبات الستاد. أغلق جنود القيصر جميع المنافذ والبوابات، بينما صعد رماة النبال إلى الأعلى، ومن هناك باشروا برشق الأعداء بسهامهم. رفعوا تروسهم إلى الأعلى، وحاولوا تحطيم البوابات بضرباتهم اليائسة. تم صدهم، وقتل الكثير منهم بالنبال، ثم أبيدوا عن بكرة أبيهم على أيدي المشاة الثقيلي التسليح.

تعرض مغنيسيوس في تلك الأثناء لخسارة أخرى: انضم قسم من جنوده بقيادة التريبيون سيلفانوس إلى معسكر الخصم. كانت هذه خسارة مؤلمة لأن تعداد جيش الغازي كان أقل من تعداد جيش القيصر، ولم يتجاوز الستة وثلاثين ألفاً من المقاتلين، بينما قاتل إلى جانب قسطنطينوس ما يقارب الثمانين ألفاً، وقد ضموا في عدادهم وحدات من رماة النبال الشرقيين الممتازة، ووحدات الفرسان المدرعة. ز ما يثير الدهشة هو إقدام مغنيسيوس على المغامرة في الهجوم وهو على علم مسبق بتفوق العدو العددي؛ ولكن يبدو أنه كان شديد الثقة بنفسه وجنوده الذين شكل الجرمان الوافدون من مناطق ما وراء الراين غالبيتهم.

معركة مورسا

في الثامن والعشرين من أيلول سنة ٣٥١ وقف جيشان رومانيان وجهاً لوجه في سهل فسيح قرب أسوار مورسا. تشبث كل من الجيشين بمواقعه طويلاً، حيث لم يجد أي من الجانبين في نفسه الجرأة على البدء بشن الهجوم. تردد القائدان في إصدار الأوامر. يعتقد أن قسطنطينوس كان يخشى حلول يوم العقاب الإلهي عمَّا اقترفه من ذنب قبل أعوام، حيث لم يعق ارتكاب الجريمة، وامتنع فيما بعد عن معاقبة المجرمين، عندما أقدم الجنود على قتل أفراد أسرة أبيه في القسطنطينية. صلى طوال النهار أمام قبر أحد الشهداء المحليين، بينما استمر فالنس أسقف مورسا، الآريوسي المتقد الحماس، في تشجيعه وهو يؤكد أن النصر محقق.

شعر مغنيسيوس بدوره بالخوف والتردد. يقال أن أمه كانت قد حذرته قبل شهور من اجتياز جبال الألب، والآن، ومع حلول اللحظة الحاسمة في الحملة، استجاب لنصيحة عرّافة جرمانية. أمر بقتل فتاة شابة، ثم مزج دمها بالخمرة وقدمها لجنوده، بينما كانت العرافة تتفوه ببعض التعاويذ، وتطلب عون الآلهة وهي تنشد. كان لهذا القربان الدموي أن يجعل المشاركين في تناوله ظافرين وغير قابلين للهزيمة.

كانت الشمس قد مالت للمغيب عندما التحمت صفوف المتحاربين لخوض معركتهم. تمكنت جحافل فرسان قسطنطينوس الثقيلة التسليح المتمركزة على الجناحين من دحر فرسان الخصم منذ اللحظة الأولى للهجوم. وبدأت بمحاصرة المركز الرئيس لجيوش مغنيسيوس، ودحره نحو نهر درافا. قاتل جنود الغرب ببسالة وضراوة على الرغم من تفوق الخصم العددي.

لم يوقف غبش المغيب القتال الذي استمر حتى وقت متأخر من الليل. وكان جنود مغنيسيوس المثخنين بالجراح يسقطون في ساحة القتال، أو يغرقون في مياه النهر. ولم يشكل الناجون سالمين من الفكين الحديديين لجيوش قسطنطينوس سوى قلة. قتل، أو غرق مارسيلينوس الذي كان مغنيسيوس قد ارتدى الأرجوان الإمبراطوري في منزله قبل ما يقارب السنة والنصف. أما المغتصب، فقد تمكن من الفرار والنجاة بجلده؛ خلع رموز السلطة ـــ المعطف الأرجواني والتاج ـــ وألقى بهما على صهوة جواده وطرده لكي يخدع المطاردين.

كان قسطنطينوس طوال هذه المدة يصلي في الكنيســـة بحرارة، وهو يرتعد خوفاً مع مرافقيه. وفي إحدى اللحظات دخل أسقف مورسا، وأطلق صيحة النصر مشيراً إلى أن العدو يلوذ بالفرار. أمر القيصر بأن يمثل أمامه حامل البشرى السارة، وقال الأسقف بهدوء:

ـــ ملاك الرب أخبرني بذلك!

ومنذ تلك اللحظة أصبح راعي كنائس مورسا، وكذلك أسقف سينغيدونوم (بلغراد) القريبة، الآريوسي أيضاً، من أقرب مستشاري الإمبراطور، وأكثرهم أهلاً للثقة في نظره.

في صباح اليوم التالي صعد قسطنطينوس إلى الهضبة وألقى نظرة على السهل الفسيح الذي غطته جثث القتلى. حجبت الدموع عينيه. بكى كروماني وحاكم إمبراطورية تطعن نفسها بنفسها ـــ ربما الطعنة القاتلة. فتحت أسوار مورسا قُتل ما يزيد عن الخمسين ألف رجلاً: ثلاثون ألفاً من رجال

قسطنطينوس، وما يقارب الأربعة وعشرين ألفاً من رجال مغنينسيوس. ففي هذه الحرب المدمرة بين الأخوة، قُضي على زهرة جيوش الراين، والدانوب، والفرات. وكانت خسارة غير قابلة للتعويض، وثبت أن المنتصر الفعلي في هذه الحرب كانت الشعوب الهمجية المتربصة على حدود الدولة. لقد أدرك المعاصرون أنفســهم هذا الشيء. فالمؤرخ ورجل الدولة يوتروبيوس، ربما شاهد العيان والمشارك في المعارك، كتب فيما بعد:

«التهمت المعركة معظم قوات الإمبراطورية الرومانية. كانت كافية لمواجهة العدو في أية حرب خارجية، وأمكن لها أن تحقق لنا الكثير من الانتصارات وتضمن لنا الأمن».

أمر القيصر بدفن جميع القتلى بالشكل اللائق، جنوده وجنود الخصم على حد سواء. وتقديم الخدمة الطبية لجميع الجرحى. ولكن لم يعد هناك من كان قادراً على حقن دماء الإمبراطورية.

المجمع الكنسي في سيرميوم

أقبل الخريف حاملاً البرد، والأمطار، والثلوج. أضحت الطرقات، وخاصة الجبلية منها، غير سالكة. وبما أن مغنينسيوس لجأ إلى إيطاليا، فقد فصل قوس جبال الألب الشرقية بين الأطراف المتناحرة التي اضطرت مرحلياً لوقف كافة العمليات الحربية.

اختار قسطنطينوس مدنية سيرميوم كمركز رئيس لقيادته. وفي تلك الأثناء، وبعد انقضاء المرحلة الأكثر حرجاً في الصراع، وبعد أن وضعت الطبيعة بنفسها حداً لعناء الزحف وجلبة المعارك، انصب اهتمام القيصر على القضايا التي اعتاد منذ أعوام على أن يكرس لها الكثير من الوقت والجهد. والمقصود هنا بطبيعة الحال هو الصراع الذي كان قائماً في أحضان الكنيسة على صعيدي العقيدة والخلافات الشخصية. ارتأى الحاكم أن الوسيلة الأفضل لتلافي وقوع الشر هي الدعوة لانعقاد مجمع كنسي جديد. وبعد مرور فترة وجيزة وصلت إلى سيرميوم مجموعة كبيرة من أساقفة الشرق الذين لا بد وأنهم استفادوا من خدمات البريد الحكومي؛ بينما قام بتمثيل الغرب أساقفة الجماعات المسيحية في مورسا وسينغيدونوم بشكل أساسي.

عالج المجمع قضية فوتينوس أسقف المدينة التي انعقد فيها، فمنذ أعوام كان موضع شبهات بأنه مهرطق، لا بل قيل هذا الشيء علناً. وكان المجمع

الذي انعقد في سيرميوم سنة ٣٤٧ قد قرر عزله من منصبه، لكن القرار لم ينفذ لأسباب متعددة، وبات من الضروري بحث الموضوع مجدداً.

كانت آسيا الصغرى الموطن الأصلي لفوتينوس، وكان في حينه من تلامذة وشمامسة مارسيلوس الأنقري. ومن المرجح أن يكون قد صاغ أفكاره عن طبيعة المسيح واللوغوس تحت تأثير مارسيلوس. كتب الكثير باللغتين الإغريقية واللاتينية، حيث أنه أجاد اللغتين؛ وللأسف لم تسلم أية من مقالاته ولم تحفظ حتى أيامنا، ولذلك يصعب أن تعاد صياغة ما طرحه من أفكار تماماً، والحجج التي استخدمها للدفاع عنها. وليس أمامنا سوى الاعتماد على ما يقوله المؤلفون الآخرون عنه من خلال جدالهم معه، وهذه بطبيعة الحال آراء متحيزة. وعلى أية حال فقد قاد جوهر آراء فوتينوس إلى المقولة التالية:

كان يسوع إنساناً تبناه الله نظراً لكماله الأخلاقي المتوقع منذ الأزل؛ وعندئذ حلَّ فيه اللوغوس (كلمة الله)، الكائن في الله حتى تلك اللحظة.

أدان المجمع هذه العقيدة بعنف وعزل فوتينوس من منصبه. كما أقرَّ قانوناً للإيمان لم يكن جديداً، بل صيغة تم طرحها قبل ذلك الحين بعشرة سنوات في إنطاكية. هاجمت هذه الصيغة الآريوسية المتطرفة، لكنها لم تكن تتضمن عبارة «مساوٍ للآب في الجوهر». وقد أضيفت إلى النص الجديد ثمان وعشرين لعنة تخص آراء فوتينوس بطبيعة الحال.

لكن أسقف سيرميوم لم يستسلم دون مقاومة. فعندما طولب بتوقيع الصيغة المقترحة لقانون الإيمان وقائمة اللعنات، ردَّ بطلب خطي رفعه إلى الإمبراطور، طالب فيه بعقد جلسة نقاش علني يتمكن خلالها من مواجهة خصومه، وقد وافق قسطنطينوس على طلبه.

جلس عدد من أعضاء مجلس الشيوخ إلى المنصة، وتقدم بازيلي أسقف أنقرة المعروف بتعاطفه مع الآريوسية كمدافع عن الأرثوذكسية. دوَّن اثنان من المختزلين سير النقاش.

اعترف خصوم فوتينوس أنفسهم بأنه متكلم لامع، ومحاور سريع البديهة. لكن هيئة التحكيم أقرت انتصار بازيلي، وهذا ما كان متوقعاً سلفاً، ويحتمل ألا يكون فوتينوس نفسه قد توقع شيئاً غير ذلك. وإذا كان الأمر على هذا النحو، لماذا طالب بذلك النقاش العلني؟ يرى البعض أنه لم ينظر إلى تلك المبارزة اللاهوتية كفرصة أخيرة تضمن له النجاة، بقدر ما اعتبرها مناسبة غير قابلة للتعويض للتعبير العلني عن آرائه.

بقي الأسقف الذي أدانه المجمع، وحكم عليه القيصر بالنفي، وفياً لآرائه. نادى بها ودعا لها خلال السنوات التالية، ويحتمل أن تكون مجموعة من تلامذته قد صمدت لجيلين آخرين.

مغنيسيوس في أكويليا

شعر مغنيسيوس في تلك الأثناء بأنه في أمان تام خلف جدار جبال الألب المنيع، وخاصة في تلك الفترة من السنة؛ ولمواجهة أسوأ الاحتمالات وضع بقايا جيوشه في الحصون الصغيرة القائمة هناك، وفي الممرات الجبلية الوعرة. واستقر في أكويليا على مقربه من الحدود. غالباً ما كانت هذه المدينة الثرية آنذاك مقراً للقياصرة في العقود السابقة، كما أن موقعها وسط المناقع جعل من الدفاع عنها أمراً أيسر. كاد مغتصب العرش أن يمضي معظم أيام الخريف والشتاء على إقامة الحفلات، والولائم، والمباريات. فعل هذا الشيء وهو بكامل وعيه، لا بل بشيء من الاعتزاز بالنفس والتباهي. أراد بذلك أن يوحي لرجاله وللآخرين بأنه لا يخشى شيئاً، وأنه متفائل. لكنه في واقع الأمر لم يهمل موضوع الاستعداد للحرب، وتجنيد المقاتلين من كافة الجهات. وكان نبأ عدم قدرة القيصر ديسينسيوس على إمداده بأية تعزيزات من غالة بمثابة ضربة موجعة، لأن الجرمان باشروا بشن هجماتهم على المناطق الحدودية بتحريض مزعوم من قسطنطينوس.

لم يسمح المنتصر الذي انشغل بمداولات المجمع الكنسي في سيرميوم أيضاً لنفسه بإضاعة الوقت خلال فترة التأخير المفروضة عليه بسبب الأحوال الجوية. فقبل كل شيء أعلن العفو التام عن كل الأفراد الذين ارتبطوا بمغتصب العرش؛ باستثناء قتلة قسطنطس. وأشار المرسوم بوضوح إلى أن

جميع الذين يشملهم العفو، يمكنهم الاحتفاظ بثرواتهم وممتلكاتهم. أبعد هذا القرار عن مغنيسيوس الكثيرين من مؤيديه. وفي الوقت ذاته فرَّ الكثيرون من أثرياء إيطاليا من العنف الذي مورس في البلدان الخاضعة للمغتصب، وأبحروا إلى الشواطئ الشرقية للأدرياتيك، إلى دلماسيا، على متن السفن أو القوارب.

حاول مغنيسيوس العودة إلى التفاوض. فبعث بأحد أعضاء مجلس الشيوخ إلى سيرميوم. فاعتبره القيصر جاسوساً وأمر بطرده على الفور. وفي المرة الثانية جاء من أكويليا بعض الأساقفة، وعن طريقهم طلب مغنينسيوس الرأفة، ووعد بأنه مستعد للخدمة في الجيش كجندي عادي في حال العفو عنه. لكن الرسل الأجلاء عادوا في هذه المرة أيضاً دون أن يحملوا معهم جواباً.

هكذا مرَّ شتاء عام ٣٥٢، وبعده الربيع. ولم يهاجم قسطنطينوس مواقع خصمه إلا في الصيف. وبنتيجة الخيانة أو المباغتة سيطر دون أية خسائر في الأرواح على واحد من أهم الممرات الجبلية. وعندئذ استسلمت خوفاً من الحصار كافة الحصون والمخافر المجاورة. لم يعد هناك أي أثر لخط الدفاع، وباتت الطريق إلى أكويليا مفتوحة.

وصل نبأ الكارثة إلى المدينة في ساعات الظهيرة. كان مغنينسيوس في السيرك بين المتفرجين على سباق المركبات. فلاذ بالفرار في اليوم ذاته. سلك الطرقات المؤدية إلى جبال الألب الغربية عبر وادي نهر الباد. لكنه على الرغم من ذلك كان يملك قوات قادرة على القتال بعد، وهذا ما تأكدت منه وحدات استطلاع جيوش قسطنطينوس التي بالغت في جرأتها بالمطاردة، وتعرضت للهزيمة على ضفاف نهر تيسينوس. لكن مغنيسيوس على الرغم من ذلك لم يكن قادراً على التفكير بمقاومة جادَّة في إيطاليا الشمالية، في الأراضي السهلية. كما وردت أنباء تفيد بأن أسطول قسطنطينوس بدأ بإنزال قوات على السواحل الشرقية وفي صقلية. كما ترددت إشاعات عن إبحار قطعاته نحو أفريقيا وإسبانيا.

وهكذا بقيت غالة أمل مغنينسيوس الوحيد كقلعة أخيرة. اجتاز جبال الألب لينتظر خلف ذراها من جديد الخريف والشتاء.

سقوط مغنيسيوس

□«بمجرد قدومه إلى غالة، بدأ يقسو بحيث تجاوز كل الحدود. وإذا كان حتى ذلك الحين على جهل ببعض أساليب التعذيب الوحشية على نحو خاص، فقد ابتكرها الآن. وكانت المتعة الأكبر عنده مراقبة آلام وعذاب الضحايا. وهكذا على سبيل المثال أمر بربط الناس بالمركبات، بينما وقف هو ليراقب بســرور مجرى تنفيذ العقوبة. بمثل هذا النمط من التسلية كان يلهو طوال الوقت».

هذه هي كلمات يوليان، وهي مأخوذة من رسالة مديح إلى قسطنطينوس كتبت بعد ذلك الحين ببضعة أعوام. ولا يوجد ما يبرر الشك في صحتها. فالمغتصب الذي هجره الجميع وجد أسلوب النجاة الوحيد في العنف السادي؛ وقد ساعدت هذه الأساليب أيضاً في ابتزاز المال من الناس.

في هذه الأثناء بعث مغنيسيوس بأحد عملائه إلى إنطاكية السورية البعيدة، وقد كلفه بمهمة سرية: قتل غالوس. كانت الفكرة حسنة. ففي حال موت قيصر الشرق على نحو مباغت، لا بد من حدوث قلاقل واضطرابات؛ وسيجد قسطنطينوس نفسه مرغماً على معالجة المشكلة في تلك المقاطعات بنفسه، وضمان الأمن على حدود الفرات خوفاً من غزو فارسي محتمل، وبذلك تتأجل العمليات المخطط لها لمطاردة مغنينسيوس.

بعد وصول العميل إلى إنطاكية أقام لدى امرأة عجوز في خص بائس على ضفة نهر أورونتس Orontes. وكرجل بارع في حياكة الدسائس والمؤامرات سرعان ما تفاهم مع الجنود القائمين على حراسة القصر، ودعا عدداً منهم إلى حفلة سكر في مسكنه. تمكن الشراب من حلّ عقد ألسنتهم، وتحدثوا بحرية تامة عن أنجع السبل لتنفيذ المهمة دون إعارة اهتمام لوجود العجوز التي كانت طاعنة في السن، ولاحت عليها بوادر الخرف. لكن المرأة غادرت مسكنها خلسة بعد انصراف الجنود وخلود الضيف للنوم، وهرعت إلى القصر. ألقى المسلحون الذين أرسلوا معها القبض على القاتل المحتمل الذي وشى ببقية شركائه أثناء التعذيب. أجزلت قسطنطينا ـ زوجة غالوس ـ العطاء للمرأة الواشية، وبهدف إبراز خدماتها أمام الجميع أمرت بأن تجوب شوارع المدينة في مركبة فاخرة.

نقل قسطنطينوس في تلك الأثناء مقره إلى ميلانو. وإلى هذه المدينة جاء رسل مجلس الشيوخ وسكان روما للتعبير له عن امتنانهم على ما فعله من أجلهم وإنقاذهم من ظلم المستبد. ترأس الوفد والي المدينة أورفيسيوس، وهو واحد من ألمع شخصيات روما آنذاك ـ روما التي كانت لا تزال عاصمة الإمبراطورية على الصعيد الرسمي، وهناك في ميلانو أصدر قسطنطينوس في الثالث من كانون الأول مرسوماً جاء فيه:

«نلغي كل ما قرره الطاغية أو قضاته ضد القانون. تعاد الممتلكات المصادرة إلى أصحابها القدامى. لكن الوثائق المحررة أيام حكمه، وكذلك الاتفاقيات والصفقات التي أبرمت لا تفقد قيمتها».

وهناك أيضاً، عقد قسطنطينوس في خريف سنة ٣٥٢ أو في مطلع سنة ٣٥٣ قرانه على زوجته الثانية، وهي يوسيبيا الجميلة، ابنة القائد الفذ وقنصل سنة ٣٤٧،حيث انتقلت في موكب مهيب من تسالونيكي البعيدة (سالونيك الحالية)، ولعبت فيما بعد دوراً بالغ الأهمية في حياة يوليان.

باشر قسطنطينوس تحركاته العسكرية في صيف ٣٥٣. اجتاز جبال الألب دون أن يلقى مقاومة. حاول مغنيسـيوس مواجهته في وادي نهر إيزيرا Izera، لكنه تعرض لهزيمة نكراء وانسحب إلى لوغدونوم Lugdunum، أي ليون الحالية. ومن هناك استنجد بأخيه وشريكه في الحكم ديسينسيوس. الحقيقة أن الشعوب الجرمانية، وخاصة الألمان والفرنكونيين، كانوا يقومون بنهب المناطق الحدودية، لكن ديسينسيوس لم يجد أمامه مجالاً للاختيار. جمع كافة الجيوش التي كانت لا تزال تحت أمرته، وهرع نحو الجنوب على عجل.

لاحظ مغنيسيوس وهو في لوغدونوم أنه أصبح أسير حرسه الخاص. عامله الجنود وكأنه غنيمة حرب؛ أدركوا أنهم لقاء رأسه سوف يحصلون على العفو والمكافأة من القيصر؛ ولذلك أبدوا حرصاً بالغاً لئلا يفرَّ هو أو أي من أفراد أسرته خلسة. فلم يجد سيد الغرب الأسبق أمامه سوى وسيلة واحدة لإنقاذ نفسه: الانتحار. استخدم سيفاً مسروقاً من مكان ما لقتل أفراد أسرته، وفي مقدمتهم والدته، ثم ألقى بنفسه على نصل السيف وغرسه عميقاً في بطنه، فتدفق الدم من أنفه وفمه. قتل نفسه في العاشر من آب سنة ٣٥٣ وهو في الخمسين من عمره على وجه التقريب، بعد حكم دام ثلاث سنوات وسبعة أشهر. جُزَّ عنقه، وعرض رأسه في مدن العديد من المقاطعات ليرى الجميع بأم أعينهم المصير الذي ينتظر المغتصبين.

في الثامن عشر من آب عندما وصل ديسينسيوس إلى أغينديكوم (Sens الحالية) الواقعة بين نهري السين واللوار علم بالكارثة التي حلت بأقربائه، فانتحر بدوره بشنق نفسه.

لم ينج من أفراد الأسرة أحد سوى ديزيديريوس، وهو أصغر الأخوة سناً. كان قد تعرض لجراح بالغة على يد مغنيسيوس في لوغدونوم، ونزف الكثير من الدم، حيث اعتبروه ميتاً لبضع ساعات، لكنه استعاد عافيته، وقرر القيصر الظافر العفو عنه.

الجرمان في غالة

على الرغم من قصر فترة استيلاء مغنيسيوس على السلطة نسبياً، فقد كان هذا من الأحداث البالغة الأهمية في تاريخ الإمبراطورية في المرحلة الأخيرة ـ وربما كان الحدث الحاسم. فلنلاحظ:

كان الجيش الروماني منذ ما يقارب نصف قرن من الزمن يؤدي واجباته في حماية حدود الراين، ومدن غالة وقراها التي عانت الكثير فيما مضى أثناء الأزمة السياسية الكبرى في القرن الثالث. بدأت هذه المدن تزدهر من جديد وتزداد ثراء. ولكن بعد سنة ٣٥٠، وخلال فترة لم تتجاوز العشر شهور وبضع، بدأ بالانهيار السد المنيع الذي كلف بناؤه كل ذلك القدر من الجهد، وبذل جيلان من الأباطرة قصارى جهدهم للمحافظة عليه. وهذا ما قاله يوليان نفسه بعد مضي عشرة وبضع من السنين:

«تم سحب الحاميات من جميع المدن والحصون على ضفاف الراين، وأضحت المواقع غير المحمية عرضة للنهب من قبل الجحافل الهمجية. بينما كان جيش مغنيسيوس الرائع يستعد لمهاجمتنا».

أشرنا إلى أن معظم جنود مغنيسيوس الذين جاء بهم من مواقعهم على نهر الراين قد قتلوا في المعركة التي دارت رحاها قرب مورسا. وغادرت آخر الوحدات الرومانية المتمركزة على ضفاف النهر العظيم مواقعها مع

ديسينسيوس الذي هرع في صيف سنة ٣٥٣ لنجدة أخيه. ومنذ ذلك الحين أضحت الطريق سالكة أمام غزوات الجرمان إلى عمق البلاد. كان الألمان الأكثر جسارة بينهم؛ تظاهروا بالتحالف مع قسطنطينوس، ولا ريب في أن عملاءه السريين نشطوا في أوساطهم. لجأ سكان المقاطعات المهددة إلى أسوار المدن جماعياً، حيث شكلت آنذاك نقاط المقاومة الرومانية الرئيسة في المقاطعات الحدودية. تولى قيادة قوات الدفاع المحلية هنا وهناك قادة برزوا من أوساط الشعب برعوا في أداء مهامهم؛ وهذا ما حدث في ترِيير Trewir على سبيل المثال لا الحصر.

أصرّ المعاصرون على أن مسؤولية الكارثة يتحملها قسطنطينوس وليس مغنيسيوس. وهذا ما أكد عليه بشكل خاص ـــ ربما مبالغ به ـــ الخطيب ليبانيوس. فكلماته ترسم واقع غالة بألوان قاتمة تبعث الكآبة في النفس، وتجدر الإشارة هنا إلى أن قسطنطينوس كان محط كراهيته، ولهذا السبب بدا مستعداً للذهاب إلى أبعد حد في محاولة تبرئة المغتصب:

«اعتقد قسطنطينوس وهو يحارب مغنيسيوس ـــ الذي لا ينكر أنه استولى على سلطة الغير، لكنه حكم بموجب القانون ـــ أنه يجب أن يفعل أي شيء للقبض عليه. ولذلك فتح الحدود الرومانية أمام البرابرة، وسمح لهم بوثائق خطية بالاســتيلاء على ما يستطيعون من الأرض. وبما أن البرابرة لم يخشوا العقاب ـــ لأن رسائل القيصر ألغت المعاهدات السابقة ـــ اقتحموا الحدود على الفور. لم يواجهوا أية مقاومة، لأن جيوش مغنيسيوس كانت في إيطاليا. نهبوا المدن الغنية، سلبوا القرى، هدموا الأسوار، استولوا على ممتلكات، ونساء، وأطفال السكان. اقتيد التعساء للأسر. عبروا نهر الراين وهم يحملون على أكتافهم كل ما تبقى لهم. وكل من لم يكن صالحاً للعمل العبودي، أو لم يتحمل أن تغتصب زوجته وابنته أمام عينه، فقد مات وهو يبكي. استولى المنتصرون على كل شيء نملكه، ثم زرعوا أرضنا لأنفسهم، وأرض بلادهم بأيدي عبيدنا.

«أما المدن التي سلمت بفضل أسوارها المنيعة، ولم تملك من الأرض سوى رقع صغيرة، فقد مات سكانها جوعاً على الرغم من أنهم أتوا على كل ما يمكن أن يؤكل. وفي نهاية المطاف باتت المدن مهجورة، وتحولت بنفسها إلى أراض زراعية ـــ فهناك حيث كانت داخل الأسوار مساحات فارغة من قبل أصبحت كافية لإطعام السكان الباقين على قيد الحياة. شُدَّتْ الجياد إلى المحاريث، وتمت حراثة الأرض وزراعتها، وكلما نضجت الحبوب أقبل الكبار والصغار على الدرس. حدث كل هذا خلف بوابات المدينة! لم يكن بالأمر اليسير الجزم أي المصيرين كان أشد بؤساً: مصير أولئك الذين سيقوا للعبودية، أم مصير الباقين في أرض الوطن».

في لوغدونوم (ليون) وفي روما

لو تابع قسطنطينوس زحفه نحو الشمال بعد انتحار مغنيسيوس مباشرة، لأمكن بكل تأكيد إنقاذ العديد من المدن من التدمير، والكثيرين من الناس من الموت. فلا ريب في أن الجرمان كانوا سيتراجعون أمام القيصر الظافر، وينسحبوا من الأراضي التي اجتاحوها، فقد كان مجرد ذكر اسم الإمبراطور، وانتشـــار نبأ اقتراب موكبه كافياً. لكن قسطنطينوس لم يكن على عجالة من الأمر، وبكثير من اللامبالاة أصغى إلى نداءات الاستغاثة اليائسة. حدث هذا بسبب التردد الذي تميز به، وبسبب تباطؤه الحذر. لكن هذا التأخير بالذات لعب دوراً بالغ الأهمية في انتشار الشائعات التي أشار إليها ليبانيوس، والتي قالت بأنه قام بتحريض الجرمان ضد مغنيسيوس، ومنحهم موافقة خطية على احتلال تلك الأراضي الحدودية.

أطال قسطنطينوس الإقامة نسبياً في لوغدونوم، حيث بقي فيها حتى السادس من أيلول كحد أدنى؛ فأحد المراسيم الإمبراطورية الهامة صدر بهذا التاريخ في المدينة. وقد دعا فيه الإمبراطور بعبارات تحمل معاني عامة للقضاء على كل ما كان الأكثر مدعاة للقنوط في عهد «الطاغية»، وأكد على حق كل مواطن في الشعور بالأمان التام، وأن المسؤولية سيتحملها الأفراد

الذين ارتكبوا جرائم تستوجب الحكم عليهم بالموت. تضمن المرسوم لفتة كريمة إلى أعضاء مجلس الشيوخ، حيث طلب الإمبراطور إلى والي روما عدم تحميل أعضاء المجلس أية مسؤوليات إلا إذا أمر هو شخصياً بذلك».

كان نيراتيوس سيرياليس والي المدينة آنذاك. تولى هذا المنصب المشرّف والبالغ الأهمية في خريف عام ٣٥٢، أي بعد احتلال جيوش قسطنطينوس إيطاليا مباشرة، وبقي في هذا المنصب حتى كانون الثاني من السنة التالية ٣٥٣. كان شخصية فذّة، وقد انحدر من واحدة من أنبل الأسر الإيطالية، وقد ربطته علاقة قرابة بالأسرة الحاكمة. كانت شقيقة سيرياليس المدعوة غالا التي توفيت في ريعان شبابها زوجة يوليوس قسطنطينوس، ووالدة غالوس حاكم الشرق آنذاك. وهذا ما يفسر تقدم سيرياليس السريع والرائع في سلم السلطة. فمنذ سنة ٣٢٨، أي منذ أيام قسطنطين الكبير، كان المســؤول عن تموين روما؛ وقام آنذاك بتأمين مئة وثلاثين ألف مكيال من القمح للعاصمة من منطقة كمبانيا.

وفي تلك الأثناء عبَّر عن امتنانه لقسطنطينوس بنصب تمثال له في ساحة رومانوم نقش على قاعدته ما ترجمته:

«إلى مَنْ أنقذ مدينة روما والعالم؛ إلى ساحق الطغيان المدمر؛ إلى سيدنا فلافيوس يوليوس قسطنطينوس، المنتصر والظافر أبداً».

وإلى سيرياليس ذاك كان موجهاً المرسوم الصادر في الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٣٥٣، وقد منعه الإمبراطور بموجبه من القيام بتقديم الأضاحي الوثنية الليلية، الشيء الذي كان قد سُمِحَ به إبان حكم مغنيسيوس.

احتفالات في أريلات Arelate

لم يصدر المرسوم المشار إليه عن مكاتب الإدارة الإمبراطورية في لوغدونوم، لأن قسطنطينوس كان قد غادر المدينة في أواخر أيلول ليتابع مسيرته على مجرى نهر الرودان نحو الجنوب، نحو شواطئ البحر. وصل إلى أريلات (آرل Arles الحالية) على مقربة من مرسيليا في مطلع تشرين الأول، وهناك مكث لفترة أطول. يرجح أنه ارتأى بأن الوقت قد تأخر للبدء بعمليات حربية معقدة وخطرة في المناطق الشمالية. لكن سبباً آخر دفعه لاختيار تلك المناطق الجميلة، والغنية، والتي غصَّت بالسكان. ففي الثالث والعشرين من تشرين الأول كانت الذكرى الثلاثين لتوليه السلطة إذا ما تم الحساب منذ اليوم الذي تلقى فيه لقب قيصر من أبيه، وذلك في الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ٣٢٣، وليس منذ يوم وفاة والده.

كانت أريلات آنذاك أروع مدن غالة الجنوبية، وكانت حلماً كمسرح لإقامة المواكب والاحتفالات. وقد أقام الإمبراطور الحريص على بعث البهجة في نفوس الناس مباريات رائعة، وسباقاً للمركبات في ستاد السيرك. واستمرت شتى ضروب اللهو التي تداخلت مع المراسم الرسمية مدة شهر كامل.

توافد الأساقفة أيضاً من مختلف مدن الإمبراطورية إلى أريلات، وعلى نحو خاص من غالة، وإيطاليا، وإسبانيا. أرادوا التعبير عن إجلالهم لشخص الإمبراطور، وابتهاجهم بالنصر الذي تحقق على يده مؤخراً، ومرور ثلاثين عاماً على ممارسته السلطة بشكل «أبوي». كما أرادوا المشاركة في أعمال المجمع الكنسي الجديد، وفي بعض النزاعات والمؤامرات الأقل رسمية والأكثر حيوية في المقابل.

ووفقاً للتقليد السائد منذ سنوات كانت قضية أثناسيوس الموضوع الرئيس لمداولات المجمع، وللملاسنات الحادة خارج قاعة الاجتماعات.

ذاك العفريت مغنيسيوس

لم يكن سراً أن رسل مغنيسيوس اتصلوا في حينه (منذ ربيع عام ٣٥٠) مع أسقف الإسكندرية في محاولة لإقناعه بالوقوف إلى جانب سيدهم. ولكن لم يتم الاتفاق حول رد فعل أثناسيوس لدى مثول رسل المغتصب أمامه؛ وكان بينهم اثنان من أساقفة الغرب على أقل تقدير. أكد البعض على أنه لم يكتف باستقبالهم، بل بعث عن طريقهم برسالة إلى المطالب غير الشرعي بالعرش الإمبراطوري؛ وكان هذا الشيء بحد ذاته موقفاً عدائياً من الحاكم الشرعي، وإن ثبت بأن الرسالة لم تتضمن سوى المجاملات. انتشرت هذه الشائعات على نطاق واسع، وصدقها الناس، لأن الجميع كانوا على دراية بمقدار نفور أثناسيوس من القيصر قسطنطينوس. ومن الجانب الآخر راودت البعض شكوك تم التعبير عنها علناً، تلخصت في أن القضية برمتها لم تكن سوى مؤامرة حاكها أعداء أثناسيوس، وخاصة الآريوسيون منهم. وهذا ما أكده بنفسه بعد بضعة أعوام وهو يخاطب قسطنطينوس:

«.. والآن موضوع زعم الكتابة للطاغية الذي أفضل عدم ذكر اسمه، أتوسل إليك : ابحث القضية كما تشاء، وبمساعدة من تشاء؛ قم بالتحقيق، وأصدر الحكم! فهول هذا الافتراء يرعبني ويشلني. صدقني أيها الإمبراطور الذي يحبه الله ذاته، أنني كلما فكرت بالأمر أجد نفسي عاجزاً عن تصور جنون يبلغ هذا الحد، أو مقدرة على الكذب بهذا القدر من الوقاحة لدى أي كان. ولكن عندما بوشر بالحديث عن هذا الموضوع خارج إطار الدوائر الآريوسية، وسرت شائعات عن وجود نسخة من رسالتي إلى مغنيسيوس،

أرعبني هذا الشيء إلى أقصى الحدود. أمضيت الليالي دون أن أعرف معنى النوم، وتعاركت أثناءها مع الذين اتهموني وكأنهم أمامي. أطلقت صيحات مباغتة صاخبة، عدت بعدها إلى الصلاة مباشرة وأنا أئن وأبكي، عساك تتكرم بالإصغاء إلي. وبما أن هذا قد حصل بفضل نعمة الرب، أجد نفسي في حيرة تامة حول الأسلوب الذي أدافع فيه عن نفسي. لأنني كلما حاولت أن أبدأ، تكبلني بشاعة القضية برمتها.

«يشهد الرب، ويشهد يسوع، أنني لا أعرف ذاك الشيطان مغنيسيوس، وأنني لا أعرف من يكون. فما الذي يمكن أن يربط شخصين غريبين بالنسبة لبعضهما؟ وما الذي كان لي أن أبدأ به رسالتي؟ ربما على هذا النحو: حسناً فعلت بقتل إنسان احترمني وغمرني بأفضال لن أنساها أبداً. كما أهنئك على قتل مسيحيين أعرفهم، وأشخاصاً أثق بهم. وأخيراً أعبر لك عن إعجابي بضربك في روما أعناق الذين استقبلوني هناك يوماً بكل حفاوة وتقدير.

أليس مجرد التفكير بتوجيه اتهام كهذا لي دليلاً قاطعاً على جنون المتَّهِمين؟».

هذا هو المنحى الذي اتخذتها حجج أثناسيوس التالية، المليئة بعبارات البلاغة المنمقة، والقَسَم، والشكوى، والذرائع الملتوية ـــ ولهذا السبب بالذات تبدو غير مقنعة تماماً.

عندما كان مغنيسيوس لا يزال يشكل قوة مؤثرة، تظاهر قسطنطينوس كسياسي بارع بأنه لا يصدق أية شائعات، وبعث إلى أثناسيوس برسالة تهدئة وتعبير عن التعاطف جاء فيها:

□«لا ريب في أنك لاحظت بأنني أصلي دون انقطاع من أجل أن ينعم أخي المتوفى بالسعادة الأبدية. ولا شك في أنك تقدر مقدار ما شعرت به من أسى، وما ألمَّ بي من حزن عندما علمت بقتله على يد أنذل خلق الله. ولكن يوجد من يســـتغل الظرف الراهن، ويحاول إقلاقك بهذا الحدث الذي يرثى له. ولذلك قررت أن أبعث لك بهذه الرسالة. أتوجه إليك راجياً أن تدعو الشعب ـــ

كما يليق بالأسقف ــ للمشاركة الجماعية بالصلوات، وأن تشاركه الصلاة، لأننا قررنا أن تبقى أسقف بلدك حتى النهاية».

ضمن هذا الموقف الذي اتخذه الإمبراطور حياد أثناسيوس أثناء الحرب التي خاضها ضد المغتصب، لكن نبرته تغيرت بعد إحراز النصر مباشرة. لا ريب في أن مستشاريه من الأساقفة الآريوسيين قد لعبوا دوراً بالغ الأهمية في هذا الشأن. ويمكن الاشتباه بأن قسطنطينوس منذ البداية لم يكن يثق بأثناسيوس، ففي ربيع سنة ٣٥٣، وبينما كان الإمبراطور مقيماً في ميلانو، وكان مغنيسيوس لا يزال يفرض سيطرته على البلاد الواقعة خلف جبال الألب، عَلِمَ أسقف الإسكندرية من بعض أصدقائه الطليان بأن الإمبراطور يود القيام بعمل ما ضده. أقلقه الخبر، فبعث بعدد من المسؤولين الكنسيين لديه إلى ميلانو. ولكن قبل وصولهم إلى المدينة كان مونتانيوس أحد رجال البلاط قد حطَّ الرحال في الإسكندرية يوم الثالث والعشرين من أيار لمطالبة أثناسيوس بالمثول أمام الإمبراطور. رفض الأسقف متذرعاً بان الدعوة غير رسمية.

ازدادت أوضاع أثناسيوس سوءاً لسبب آخر أيضاً، ففي ربيع سنة ٣٥٣ توفي يوليوس أسقف روما الذي كان واحداً من أوسع أنصاره نفوذاً في الغرب، وخلفه ليبيريوس الذي لم يتمتع بالقدر ذاته من الخبرة والنفوذ. الحقيقة أنه طوى الشكوى التي تقدم بها عدد من أساقفة الشرق ضد أثناسيوس، لكنه طالبه بنفسه بالدعوة لانعقاد مجمع كنسي يقوم ببحث القضية بمجملها. كان هذا الشيء يلائم الإمبراطور الذي أدرك أنه سيتمكن من تصفية الحساب مع أسقف الإسكندرية أمام أية هيئة كانت، وذلك لسببين هما: الأول ــ يُعَدُّ قسطنطينوس المنتصر والحاكم الوحيد للإمبراطورية برمتها. والثاني ــ عدم تجرؤ أي كان على الدفاع عن رجل مشتنه بإقامة علاقات مع طاغية مهزوم.

هذه كانت خلفيات المجمع الكنسي الذي أشرنا إلى انعقاده في أريلات في خريف سنة ٣٥٣، أي في الوقت الذي أقيمت هناك الاحتفالات بالذكرى الثلاثين لتولي قسطنطينوس الحكم، وبمناسبة تحقيق النصر النهائي على الطاغية.

مجمع أريلات

ترأس ساتورنين أسقف أريلات الاجتماعات، بينما كان ليبيريوس أسقف روما ممثَلاً باثنين من مبعوثيه. شكل أساقفة الجماعات المسيحية في غالة الغالبية الساحقة بين المجتمعين. لم يكن هؤلاء الناس على دراية كافية بالنزاعات اللاهوتية والخلافات الشخصية القائمة، لكنهم ترعرعوا على مشاعر الولاء التقليدي للأسرة الحاكمة؛ وأرادوا التأكيد على ذلك في تلك الأثناء بشكل خاص بعد أن سحِق المغتصب الذي انحدر من موطنهم وحظي في حينه بتأييد واسع في أوساط السكان.

في تلك الحالة، وفي ظل الأجواء السائدة، وافق المجتمعون بالإجماع على الاقتراح الذي أيده الإمبراطور، والذي تضمن إدانة أثناسيوس بسبب الجرائم المنسوبة إليه. ولم يتوانى مبعوثا ليبيريوس أيضاً في التوقيع على الوثيقة الصادرة عن المجمع. أما المعارض الوحيد باولينوس أسقف تريير Trewir وخليفة مكسيمين، فقد نفي إلى آسيا الصغرى. وكان قسطنطينوس قد هدد بأن المصير ذاته ينتظر كل من يعترض على الحكم الصادر بحق أثناسيوس.

ومن الناحية الثانية، وعلى الرغم من مطالبة الكثيرين بإلحاح، لم يتطرق المجمع للجوانب المتعلقة بالعقيدة! حتى أنه لم يعتمد قانون الإيمان الذي صيغ في نيقيا قبل ذلك الحين بثمان وعشرين سنة. باءت جميع محاولات إدراج هذه

الأمور على جدول الأعمال بالفشل بسبب موقف الأسقفين فالنس أسقف مورسا، وأورساسيوس أسقف سينغيدونوم اللذين تمتعا آنذاك بنفوذ واسع لدى الإمبراطور. كان هذان الأسقفان متعاطفين مع الآريوسيين.

لكن إغفال قضية على هذا القدر من الأهمية دفع ليبيريوس وأساقفة آخرين أيضاً للمطالبة بالدعوة لانعقاد مجمع كنسي جديد! وطالبوا بأن يشارك في أعماله عدد أكبر من الأساقفة، وأن يتم توسيع جدول أعماله. وفي نهاية المطاف وجد قسطنطينوس نفسه مرغماً على الموافقة. واستوجب هذا الأمر تعليق الحكم الذي صدر في آريلات بحق أثناسيوس، الأمر الذي مكّنه من الاستمرار في ممارسة سلطته في الإسكندرية.

ولكن قبل أن يتقرر تحديد مكان وزمان انعقاد المجمع ـــ كم كان أميان مارسيلينوس محقاً عندما تحدث على نحو تصويري عن إرهاق البريد الحكومي بالتنقل الدائم للكهنة المسيحيين! ـــ اتخذت في الشرق مجراها بعض الأحداث الهامة والمأساوية.

الفرس والبدو واليهود

أصبح القيصر غالوس مسؤولاً عن المقاطعات الشرقية بدءاً من ربيع سنة ٣٥١، واختار كسلفه قسطنطينوس إنطاكية السورية مقراً رئيساً لقيادته. لكنه بعكس ما حدث مع سلفه لم يكن مضطراً لمغادرة المدينة كثيراً، لأن الولايات الخاضعة له نعمت بهدوء نسبي. فقد انهمك الفرس في حروبهم ضد الشعوب القاطنة في السهوب الواقعة إلى الشمال من دولتهم في مكان ما على ضفاف بحيرة الأورال. الحقيقة أن قادة جيوش ملك الملوك شنوا بين الحين والآخر بعض الهجمات على الأراضي الرومانية، لكن هذه الغزوات لم تتغلغل عميقاً داخل الحدود، علاوة على أن بعض المناوشات الصغيرة لم تكن لها أهمية تذكر؛ فقد كان الهدف إما النهب العادي وسرقة المواشي، أو جسُّ النبض والتأكد مما إذا كان الرومان قد أضعفوا قوة حامياتهم الحدودية بسبب الأحداث الجارية في الغرب.

في سنة ٣٥٢ أو ٣٥٣ وضع القائد الفارسي نوهوداريس Nohodares خطة جريئة للاستيلاء على مدينة باتني Batne الواقعة في عمق بلاد ما بين النهرين الرومانية على مقربة من نهر الفرات. وبهدف الوصول إلى الموقع سراً دون لفت الأنظار، لجأ القائد إلى الحيلة. ففي مطلع أيلول من كل عام

كانت تقام في باتني احتفالات صاخبة تكريماً للإله المحلي، وللاحتفال بهذا العيد توافدت جموع الحجاج الأتقياء وحشود التجار؛ أقدم التجار هناك تقليدياً على شراء بضائع مستوردة من بلاد بعيدة كالصين والهند. تلخصت الفكرة التي راودت القائد في استغلال فترة الاحتفالات بالعيد، حيث لا تثير الحركة المتزايدة على طرق القوافل الشكوك، والوصول بالجيش إلى المدينة خلسة. كان على فريق من الجنود الرحيل برفقة التجار عبر الطريق الصحراوية، وعلى الفريق الآخر التقدم بمحاذاة ضفاف نهر أبورا Abora التي نمت عليها أعشاب الديس بكثافة عالية. ولحسن حظ الرومان حذّر الفارّون في الوقت الملائم المخافر الرومانية من هذه الاستعدادات؛ فتم تشديد الحراسة والمراقبة على كافة الممرات والطرق، وفشلت الخطة الخطرة.

كانت مدينة نيزيبيس Nizibis (نصيبين الحالية) لا تزال مفتاح النظام الروماني للدفاع عن بلاد ما بين النهرين. تولى القيادة هناك واحد من ألمع جنرالات قسطنطينوس وهو قائد الفرسان أورسيسينوس. وفي ذلك الوقت بالذات بدأ الخدمة إلى جانب الضابط الشاب أميان مارسيلينوس الذي أسلفنا الإشارة إليه. ولد في إنطاكية في أسرة إغريقية، لكنه شعر بأنه روماني، مواطن وجندي إمبراطورية عظيمة، وريث مجد الأجيال، والمدافع عن الحضارة الحقيقية أمام الهمجية. من المرجح أن تكون فكرة عرض الأحداث التاريخية الجليلة التي شهدها بنفسه في عمل تاريخي كبير ـــ وباللغة اللاتينية بالتحديد ـــ قد نضجت في ذهنه في وقت مبكر.

إلى جانب الفرس، هدد البدو أيضاً حدود الإمبراطورية باستمرار. يقول عنهم أميان مارسيلينوس بأسلوبه التصويري:

«لا أتمنى أن يصبحوا يوماً أصدقاء أو أعداء لنا! يتنقلون هنا وهناك بسرعة البرق، ويدمرون كل ما يصادفونه في لحظة واحدة، وكأنهم صقور حقيقية، لأن الصقور عندما تلمح الفريسة تنقض عليها بسرعة البرق دون أن تتوقف لحظة واحدة عن الطيران إذا ما أمسكت بها».

أما سواحل آسيا الصغرى وسوريا فقد هددها الإيزاوريون .Izaurs فسكان الجبال الوعرة هؤلاء، الذين لم يكبح جماحهم أحد حتى ذلك الحين، هاجموا المدن الواقعة في السهول، وكذلك السفن الراسية قرب اليابسة.

وعلى نحو غير متوقع تمرد اليهود في الجليل. ففي سنة ٣٥٢ كانوا قد قتلوا ليلاً حامية مدينة Dioscezarea ونادوا بأحد أحبارهم ملكاً عليهم.لكن الحركة أخمدت آنذاك بسرعة باللجوء إلى القسوة المطلقة. أحرقت جيوش غالوس عدداً من المستوطنات، وقتلت آلافاً من السكان بما فيهم الأطفال.

لكن جميع هذه الصدامات، والاضطرابات، والحروب الصغيرة في المقاطعات الشرقية بقيت ثانوية بالمقارنة مع ما كان يحدث في إنطاكية ذاتها بعلم غالوس وتدبيره.

جرائم غالوس

راقب أميان مارسيلينوس خلال سنة ٣٥٣ بأكملها ممارسات غالوس في الحكم وهو مقيم في مركز القيادة العامة في مدينة نصيبين. تلقت القيادة هناك بانتظام تقارير رسمية عن أهم الأحداث الجارية، ولكن لا ريب في أن شائعات وأخباراً كثيرة غير مؤكدة أيضاً انتشرت هناك. كان الضابط الشاب مارسيلينوس بفضل موقعه وعلاقاته العائلية في وضع ملائم تماماً للاطلاع على كافة المعلومات. ولما انتقل في العام التالي مع أورسيسينوس إلى إنطاكية ــ هذا ما سنعود للحديث عنه لاحقاً ــ انخرط في التيار الرئيس للحياة السياسية. ولذلك لا بد من الإصغاء إلى روايته باهتمام بالغ، لأنها شهادة رجل حسن الاطلاع، وعايش الأحداث عن قرب.

ها هو مضمون حكم أميان مارسيلينوس على غالوس وطرق ممارسته السلطة:

عندما بلغ غالوس سن الرشد تم رفعه من حضيض البؤس إلى ذرى الجلال الإمبراطوري. حدث هذا التبدل على نحو مباغت وبعكس كل التوقعات، ولذلك أحدث هزّة عنيفة في شخصيته. بالغ في تجاوز حدود السلطة الموكلة إليه، ومارس الحكم بقسوة أثارت النفور العام. والشيء الذي عمّق غطرسته هو علاقة القرابة القائمة مع الأسرة الحاكمة، وإضافة اسم

قسطنطينوس إلى قائمة ألقابه. فلم يعد مستبعداً قيامه في اللحظة المناسبة بالتمرد على الرجل الذي رفعه.

غذّت زوجته قسطنطينا ميوله الوحشية. تباهت بأنها شقيقة الإمبراطور. كان والدها قسطنطين الكبير قد زوّجها في حينه من ابن أخيه هنيباليان. كانت جنيّة حقيقية في جسد امرأة، عملت دون كلل أو ملل على تعميق قسوة غالوس ومثله، ولم تعرف يوماً معنى الشبع من الدماء البشرية.

اكتسب هذان الزوجان بمرور الزمن خبرة في عمل الشر؛ وذلك بمساعدة مخبرين سريين دهاة، أضافوا الكثير من الزيف إلى الأشياء الحقيقية، واختاروا المعلومات التي خدمت أهدافهم دون غيرها. وعلى هذا الأساس اتهموا الأكثر براءة بين الناس بالتآمر على الدولة أو بممارسة الأنشطة السحرية.

بين القضايا التي أثارت ضجة كبرى كان الموت المباغت والعنيف لأحد مواطني الإسكندرية البارزين كليماتيوس. حدث هذا عندما تجاوز نشاطهما حدود الجرائم العادية. قيل أن حماة كليماتيوس وقعت في حبه إلى حد الجنون، ولما صدّها تمكنت من الوصول إلى البلاط بأساليب خفية، وقدمت للإمبراطورة عقداً ثميناً، فكانت المكافأة أن أرسلت إلى الوالي هونوراتوس أمراً رسمياً بإعدام كليماتيوس على الفور. أعدم الرجل دون أن يتمكن من التفوه بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه.

أرعبت هذه الجريمة كثيرين من الناس، بينما فتح الحاكم الباب على مصراعيه أمام كل ضروب الوحشية. صدرت أحكام بالإعدام بناء على مجرد شبهات واهية وضبابية. دفع البعض حياتهم والبعض الآخر ثرواتهم ثمناً لتصرفاته. وبعد تشريد المنتمين إلى الفئة الثانية من منازلهم، عاشوا من التسول والاستجداء، حيث لم يبق لهم شيء سوى الدموع والشكوى. وهكذا تحول الحكم المستند إلى احترام القانون إلى استبداد دموي، وأبيدت أسر كانت ثرية وذائعة الصيت يوماً.

أمام هذا الشر اللامحدود لم يعد هناك من يتوقع سماع صوت الادعاء ولو من الناحية الشكلية. ففيما مضى لجأ أكثر الحكام قسوة إلى هذه الحيلة التي مكنتهم من تنفيذ الجريمة تحت غطاء القانون. أما آنذاك فقد تم تنفيذ كل ما أمر به غالوس الذي لم يعرف معنى الرحمة، بحماس لا حدود له، واعتبِر هذا سلفاً أمراً إلهياً ومشروعاً.

ظهرت في كافة أنحاء إنطاكية مجموعات مجهولة من الناس بدت في حالة من البؤس لم تثر معه شكوك أحد. تجول هؤلاء الناس في الشوارع هنا وهناك، ثم تظاهروا بالوقوف إلى جوار أفراد محترمين. ترددوا على منازل الأثرياء بملابس المتسولين. ودخلوا بعدها إلى البلاط من الأبواب الخلفية ليخبروا عن كل ما شاهدوه أو سمعوه. كانوا متفقين فيما بينهم على تلفيق التهم بتزييف المعطيات، وتضخيم الصحيح منها بالمعنى السلبي، والسكوت عن كل ما قيل من كلمات المديح بحق غالوس، لأن المدينة لم تخل من أمثالهم أيضاً، حيث أرغم الكثير أنفسهم على فعل ذلك تحاشياً للكارثة المحتملة. كما صدف أن اطلع الحاكم في الصباح على ما قاله الزوج لزوجته في مخدعهما ليلاً، على الرغم من عدم تصنت الخدم. ولذلك خشي الناس الجدران ذاتها، وخاصة إذا كان الحديث عن أمور لها طابع السرية.

تزايدت حدة ميول غالوس الفطرية لمراقبة الناس وجعلهم موضع الشبهات، لأن قسطنطينا قامت بتغذية هذه الميول. تألم الناس أكثر فأكثر بسبب نشاط قسطنطينا المدمر؛ لأنهم توقعوا منها بأنها كامرأة ستقوم بتوجيه زوجها نحو الحقيقة وتنمية الجوانب الإنسانية.

تجرأ غالوس في نهاية المطاف على القيام بعمل مفضوح، يزعم أن القيصر غالينوس ارتكبه في روما في حينه، وتعرض للإذلال بسببه. تسكع متنكراً في الأمسيات في الحانات والشوارع برفقة عدد من الرجال المسلحين، وسأل الناس الذين صادفهم في الشوارع باللغة الإغريقية ــ كان يجيد هذه اللغة ــ عن رأيهم به. فعل هذا بثقة عالية بالنفس في المدينة التي كاد ألق المصابيح المشتعلة فيها أن يعادل ضوء النهار! ولمّا تعرف الناس عليه مرة

وأخرى، استنتج بأنه فيما لو خرج ثانية سيشد انتباه الجميع. ومنذ ذلك الحين لم يشاهده أحد إلا في النهار لدى مغادرة القصر لإنجاز أعمال هامة.

كان مدير الإدارة المدنية آنذاك رجل متغطرس أيضاً يدعى تالاسيوس. الحقيقة أنه لاحظ جيداً اندفاع غالوس المتزايد لقتل الناس، لكنه لم يحاول أن يثنيه عن ذلك بنصائحه؛ فغالباً ما حاول كبار الموظفين فيما مضى التخفيف من غضب الحكام وحدة طباعهم. أما تالاسيوس فقد فعل العكس تماماً: زاد من حدة غيظ غالوس بمعارضته له، والإفصاح عن رأيه بحدة في اللحظات غير المناسبة.

كما أدى قيام تالاسيوس بإعلام الإمبراطور قسطنطينوس بأعمال وتصرفات غالوس إلى إثارة الأخير أكثر. لم يخفِ تالاسيوس أنه يقوم بذلك، لا بل حاول نشر هذا الشيء في أوسع الأوساط! يصعب تحديد السبب الكامن وراء ذلك. لكن الشيء المؤكد هو أنه أثار بذلك حفيظة غالوس الذي حاول بكل طاقاته إزالة كل ما اعترض سبيله من عوائق كما يفعل السيل الجارف. فلم يعد غالوس مهتماً بخير الآخرين أو بمصلحته الشخصية.

الشهيد بابيلاس وملذات دافني

تؤكد مختلف المصادر على أن غالوس وقسطنطينا كانا مسيحيين متقدي الحماس. وقد عبَّرا عن عمق إيمانهما بالعديد من أعمال الورع والتقوى. ومن أشهرها ـ تلك التي لا تنسى إن صحَّ القول ـ التكريم الخاص الذي أحاطا به الذخيرة المقدسة المتمثلة في جثمان القديس بابيلاس. فقبل قرن من الزمن تماماً استشهد كأسقف لإنطاكية أثناء الاضطهادات التي تمت في عهد الإمبراطور ديسيوس Decjus، واستقر جثمانه في المقبرة المحلية. ارتأى غالوس أن يقوم بتكريم القديس بأسلوب يخدم فيه العقيدة الجديدة، ويوجه في الوقت نفسه ضربة قاسية للعبادات الوثنية التي كانت لا تزال حيَّة في سوريا عامة، وفي عاصمتها أيضاً.

كانت دافني واقعة على مقربة من إنطاكية، واعتبرت من أجمل المواقع للراحة والاستجمام، وكانت بمثابة ضاحية للعاصمة العملاقة. خصَّ ليبانيوس الذي ولد في إنطاكية، وعاد ليعيش فيها دون انقطاع منذ عام ٣٥٤، دافني بكلمات مفعمة بمشاعر الإعجاب، نورد فيما يلي مقتطفات منها:

«بمجرد اجتياز بوابات إنطاكية، ستجد مباشرة إلى اليسار حدائق زاهية الألوان، وحانات لطيفة، وفسقيات غزيرة المياه، ومساكن مخفية وسط الأشجار، ومبان تعلو فوق ذرى الأشجار، بالإضافة إلى حمامات مؤثثة على نحو رائع. ولدى متابعة السير ستجد على جانبي الطريق كروماً وافرة النمو،

وفيلات فخمة، وحقول قمح نضرة، وشتى أنواع الأشجار، وجداول مياه رقراقة. ستجد نفسك مبهوراً بهذا الشيء تارة، وبغيره تارة أخرى. وهكذا تصل إلى دافني الجميلة وسط الانطباعات اللطيفة والمرهفة.

«أمام المشهد الذي يفاجئ المرء في هذا المكان تراوده الرغبة في الصياح، والتصفيق، والطيران فرحاً، ومباركة ما يراه أمام ناظريه! فكل شيء هنا يشد. أحدها يسحرك، والثاني يذهلك، والثالث يسمِّرك في موقعك، والرابع يحاكيك. فهنا مقام أبولون، ومعبد زيوس، والستاد الأولمبي. وهنا تغرد كوارس الطيور، وتهب نسمات عليلة تعبق بروائح العطور. وداخل الحانات الرائعة تطل حزم أغصان الكرمة إلى قاعات الجلوس. إنها حدائق ألكينوس حقيقية، ولائم صقلية، قرن وفرة، مدينة الترف ــ سيباريس!

«أياً كان الحمام الذي ستختاره، ستكون قد فقدت فرصة التمتع بآخر أفضل منه. لا حدود لتأثير دافني الإيجابي على الصحة، فمهما كانت إقامتك فيها قصيرة، ستغادرها وبشرتك أحسن حالاً. وإذا ما سألك أحدهم عن الشيء الأكثر إثارة لإعجابك هناك، لن تجد جواباً على سؤاله؛ فكل شيء فيها ينافس الآخر من حيث الجمال.

«لا وجود لنوع من الألم ــ مهما كان شديداً، أو مزمناً، أو معقد الأسباب ــ لا تزيله دافني. فبمجرد أن تطأ أرضها يختفي كل أثر للحزن والكآبة. وإذا كانت الآلهة تهبط حقاً من السماء إلى الأرض، فلا ريب في أنها في هذا المكان تجتمع للتشاور؛ لأنها لن تجد أروع منه أبداً.

«تاج فتنة وسحر دافني ــ أو ربما العالم بأسره على ما أظن ــ هي ينابيعها. ففي أي مكان يمكن أن تتدفق المياه على هذا القدر من الجمال والنفع؟ فهي بمثابة قصور الحوريات، ومن هنا نقاوتها البلورية التي لا مثيل لها. وكل من يقف أمام النبع الأول وينظر إلى المياه الجارية على امتداد أسوار المعبد، لا بد وأن تبهجه الوفرة والغزارة، ويذهله الجمال، فيمجدها كشيء إلهي؛ يودُّ لمسها، ويفكر بالسباحة فيها، وتغريه فكرة تذوق طعمها. يا

لرقتها، وشفافيتها، ولذة مذاقها، وسلاستها! لا تبقى هذه المياه قرب أمها أبداً؛ أجل، لقد ولدتها دافني، لكنها لا تحتفظ بهبتها لنفسها. تستفيد منها المدينة كلها، لأن المواطنين قاموا بشق قناة مغلقة يسلكها الجدول عبر سفوح الجبال».

هكذا رأى ليبانيوس الخطيب الوثني هذا المكان ووصفه. لكن غالوس جاء إلى دافني بالذات بالذخائر المقدسة للشهيد المسيحي. وإلى جوار معبد أبولون والنبع الذي تغنى ليبانيوس بجماله شيَّد لها مقاماً عرف باسم كاستاليا. كان في المعبد مهبط للوحي، فصمت صوته ــ هذا ما قيل آنذاك ــ عندما استقر جثمان عدو الآلهة إلى جواره.

تجدر الإشارة هنا إلى أنها الحالة الأولى الموثقة تاريخياً لنقل جثمان شخص تحف به هالة القداسة، وقد تم هذا على نحو رسمي واحتفالي؛ أما في المراحل اللاحقة، وكما هو معروف جيداً، فقد أبدى العالم المسيحي حماساً بالغاً في ممارسة هذه العادة.

غالوس وتعاليم أيسيوس

لم يقتصر نشاط إمبراطور الشرق على الأعمال الورعة وحدها، بل عبَّر عن بعض الاهتمامات اللاهوتية أيضاً. فشأنه شأن جميع أفراد أسرته، ومعهم معظم مسيحيي الشرق، تعاطف مع الآريوسية، لكنه لم يحتك بجناحها الأكثر تطرفاً؟ إلا في إنطاكية، حيث أعجب به إعجاباً لا حدود له.

كان آريوس نفسه الذي توفي سنة ٣٣٧، أي أنه مارس نشاطه أيام الجيل السابق، قد أصرَّ في تعاليمه على عدم مساواة يسوع للآب في الجوهر؛ فيسوع في نظره على الرغم من وجوده قبل كل الكائنات، لا بل وقبل الزمن أيضاً، مخلوق من قبل الآب، ولا يمكن أن يكون من جوهر الخالق ذاته.

تمثل الرد على هذه العقيدة في قانون الإيمان الذي صيغ واعتمد سنة ٣٢٥ في نيقيا أثناء انعقاد المجمع الكنسي المسكوني الأول، والذي لا يزال صداه يتردد في أرجاء العالم المسيحي حتى اليوم، وقد نصَّ على أننا:

«نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وكل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، كل ما في السماء وما في الأرض».

أصبحت عبارة «مساو في الجوهر» (homouzjos باللغة الإغريقية) فيما بعد موضوعاً للعديد من النزاعات، وشرارة أشعلت نار كثير من الخلافات. فالغالبية الساحقة من أساقفة الشرق تقبلت الرمز النيقي بنفور واضح تحت تأثير الضغط الذي مارسه الإمبراطور. ولهذا السبب ــ وبينما تشبث أساقفة الغرب بهذه الصيغة دون أن يفهموا دوماً بصورة كافية مضامينها اللاهوتية والفلسفية ــ استمرت في الشرق المحاولات الرامية لإيجاد صيغ أخرى أكثر عمومية كحل وسط. وتم اقتراح صيغ من قبيل : المسيح شَبَهُ جوهر الآب، أو المسيح شبيه بالآب في كل شيء ومن كل الجوانب. ومن ناحية ثانية قام الآريوسيون على نحو منطقي وحتمي بتطوير افتراضات تيارهم، وتوصلوا لصياغة بعض العبارات التي هزَّت كثيرين من مسيحيي ذلك العصر في أعماقهم.

حدد أيسيوس موقفه بدقة وحدَّة متميزتين. كان رجلاً فذاً حقاً. انحدر من أصول سورية، ومارس في حياته العديد من المهن، عمل حرفياً، ومارس مهنة الطب، ودرس منطق أرسطو في الإسكندرية. أتقن هذه المهارة الأخيرة واعتبر واحداً من الرجال الأكثر حضوراً للبديهة بين محاوري عصره. تولى منصب رئيس الشمامسة في إنطاكية منذ سنة ٣٥٠. يمكن صياغة طروحات أيسيوس على النحو التالي :

ليس الابن شبيهاً بالآب (باللغة الإغريقية onomojos)؛ إنه ذو جوهر مختلف (heteres usias)، لأنه مخلوق من قبله من اللاشيء (eks uk onton).

قام تلميذه يونوميوس فيما بعد بتطوير وتعميم هذه التعاليم، فأضحت أساساً لتيار جديد في أحضان الآريوسية. وقد أطلقت على أتباع هذا التيار تسميات مختلفة: الأيسيوسيون أو اليونوميوسيون تيمناً بأسماء المؤسسين؛ أو الأونومويوسيون نسبة إلى تحديد طبيعة المسيح في الفرضية الأولى، والهيتيريسيون استناداً إلى الفرضية الثانية، والإيكسوكونتانيون استناداً إلى الفرضية الثالثة.

لم يكن للعقيدة الجديدة أو حتى لحقيقة ظهورها إلى حيز الوجود أن تكتسب هذا القدر من الأهمية لولا ردود الفعل التي أثارتها. اضطر الآريوسيون المعتدلون لمواجهة تعاليم أيسيوس وتحديد موقفهم منها بدقة. وفي مرحلة الجدل والخلافات مع أيسيوس طرحوا صيغة جديدة تتلخص في أن الابن شبه بالآب من حيث الجوهر homojuzjos ، ولا تختلف هذه اللفظة عن لفظة homouzjos التي تعني المساواة في الجوهر إلا بحرف واحد هو (j). وهذا الحرف بالذات الذي ينتقص من معنى المفهوم بكل هذا القدر، أصبح فيما بعد سبباً لأحداث هامة في العالم المسيحي.

لولا رعاية غالوس لأخمد خصوم أيسيوس نشاطه في المهد. ولولا تسارع الأحداث الخطرة في إنطاكية، وانشغال الحاكم بها، واضطراره للابتعاد عن مشاكل اللاهوت المسيحي، لاتخذ دعم البلاط للفكرة اللاهوتية الجديدة صيغة أقوى.

الجوع والاضطرابات

تقع فترة موسم الحصاد في سوريا في شهري أيار وحزيران. لكن الجميع في إنطاكية أدركوا منذ ربيع سنة ٣٥٤ أن المواسم ستكون ضعيفة بسبب شح الهطولات في الشتاء. أما الجيش فكان يعد العدة لبدء العمليات العسكرية ضد الفرس مع اقتراب الفترة الدافئة من السنة، وأعلن عن حاجته لكميات أكبر من الحبوب. وفي هذه الحالة قام التجار ومالكو العقارات المتميزون ببعد النظر برفع الأسعار في الحال. بينما انهمك المضاربون بجمع الاحتياطات. وهكذا طغت موجة من الجنون في ارتفاع الأسعار.

أقلق هذا التلاعب غالوس وأغضبه، فقرر وضع حد له منذ البداية باتخاذ إجراءات صارمة. فحدد الأسعار القصوى للحبوب وعممها. لكن هذا الإجراء المبرر إلى حد ما لم يسفر عن أية نتائج إيجابية. فقد عُرِفَ منذ القدم أن التدخل الإداري الســاذج في الحياة الاقتصادية عديم الجدوى على وجه العموم، لا بل هو ضار حتى لو كانت أكثر النوايا صدقاً الدافع له. عارض مواطنو إنطاكية الأثرياء، وخاصة أعضاء مجلس المدينة الذين تضررت مصالحهم قرارات غالوس علناً. فأمر الأخير الذي أغضبه الأمر باعتقال

عشر وبضعة من قادة المجلس على الفور، وهدد بقتلهم. ولا شك في أنه كان سينفذ تهديده لولا معارضة هونوراتوس الشديدة، وهو القائم بمهام وزير المال في الشطر الشرقي من الإمبراطورية. لكن غالوس لم ينس الإهانة والهزيمة اللتين تعرض لهما بسبب أولئك السادة.

كانت مباريات الملاكمين في السيرك تسلية غالوس المفضلة. تجمع عادة على الحلبة ستة أو سبعة أزواج من الملاكمين، وتعاركوا حتى الرمق الأخير، الأمر الذي أبهج الحاكم. كما كان ينفعل بشدة لدى مراقبة سباق المركبات. وقبل أن يتوجه في أواخر ربيع سنة ٣٥٤ نحو الحدود الفارسية لبدء العمليات العسكرية، أعد لنفسه وللجمهور مباريات وداعية. لكن موجة الغلاء كانت قد بلغت حداً لا يطاق، حيث باشرت الحشود المتجمهرة في الستاد بالمطالبة بصوت عظيم بتقديم المساعدات. ردَّ غالوس على هذه الصيحات بهدوء تام:

ــ لن يفتقر أحد للخبز إذا اهتم الوالي بالأمر!

ردد هذه الكلمات بضع مرات وهو يشير بيده إلى ثيوفيل والي سوريا الواقف إلى جانبه. فهم الجمهور الإيماءة والكلمات كما كان عليه أن يفهمها: المسؤولية كلها تقع على عاتق هذا الموظف.

بعد فترة وجيزة من الزمن، لا شك في أنه بعد مغادرة غالوس المدينة، حدثت في إنطاكية اضطرابات دموية. انقضَّ عدد من حدادي الورش المحلية على ثيوفيل في السيرك وهو يراقب سباق المركبات. ركلوه، وقتلوه، ثم سحله الحشد في الشوارع، ومزقه إلى أشلاء.وفي ذلك اليوم بالذات أضرمت النار في منزل أحد الأثرياء، وهو يوبولوس، بينما تمكن هو وأبناؤه من الفرار إلى الجبال في اللحظة الأخيرة، ونجوا بأنفسهم بأعجوبة بعد أن كان الحشد قد هاجمهم بالحجارة.

مرت أيام عديدة قبل أن يرسل قسطنطينوس موظفاً رفيع المستوى لإجراء التحقيق. لكن الموظف تلقى سلفاً تعليمات واضحة للتصرف بشكل معتدل. ولذلك اقتصر على معاقبة القتلة المباشرين وحدهم، وهم أفراد فقراء

لا أهمية لهم. لكن همسات سرت في أوساط العامَّة أكدت أن المذنبين الحقيقيين هم أناس أثرياء ومتنفذون، لم تطلهم العقوبات بسبب ما قدموه من رشاوى للسلطات.

دوميسيان ومونسيوس

لو بقي المسؤول عن الإدارة المدنية تالاسيوس على قيد الحياة، لما حدث على الأرجح هذا النزاع الحاد بين غالوس ومجلس المدينة في إنطاكية، أي لما حدثت الاضطرابات، ولما قتل حاكم المقاطعة. لكن تالاسيوس توفي في مطلع عام ٣٥٤، وبموته فقد الشرق واحداً من أكثر رجالاته جدية، ونشاطاً، ونفوذاً. كانت ثقة الإمبراطور قسطنطينوس به ثقة تامة. ومنه بالذات حصل على معلوماته الخاصة بتصرفات وسلوك غالوس، وقد أقلقته إلى أقصى الحدود هذه التقارير التي أكدت على استبدادية، وجشع، ووحشية غالوس وزوجته. لم يدع قسطنطينوس، وهو السياسي المحنك، المجال لأحد لملاحظة مدى تأثره بهذه المشكلة، وإنما العكس، فقد استمر في إرسال رسائل ودية إلى إنطاكية، لكنه في الوقت ذاته بدأ يحدُّ تدريجياً من صلاحيات سيِّد الشرق العسكرية. عزله من قيادة عدد من الوحدات العسكرية متذرعاً بسيادة الهدوء في تلك المناطق، وبخشية أن يدفع الكسل الجنود لإثارة الشغب. وفي نهاية المطاف لم يبق تحت تصرف غالوس سوى وحدات الحرس الشخصي وحرس البلاط.

في مطلع عام ٣٥٤، أي بعد اضطرابات الجوع وعودة غالوس من حملة قصيرة الأمد ومحدودة النطاق على الفرس، وصل إلى المدينة والي المدينة الجديد الذي أرسله قسطنطينوس من الغرب. كان هذا دوميسيان الذي تولى

من قبل منصباً رفيعاً في الإدارة المالية، وقد تلقى تعليمات سرية بإقناع غالوس بأسلوب مهذب ولطيف بالسفر إلى إيطاليا بأسرع ما يمكن، إلى حيث كان الإمبراطور قد استدعاه مراراً من قبل.

سافر دومسيان على عجل. ولمّا وطئ أرض إنطاكية سمح لنفسه بما يشبه التحدي العلني : مرَّ ببوابة قصر غالوس بشيء من الاحتقار، على الرغم من أن التقاليد كانت تستوجب طلب مقابلته على الفور. وبدلاً من ذلك توجه المسؤول الجديد برفقة حاشيته إلى المبنى المخصص كمقر لعمله الوظيفي. أقام هناك لبضعة أيام دون أن يزور القصر أو يظهر علناً أمام الجمهور. أوصى بأن يشاع بأنه مريض. وفي حقيقة الأمر كان يحيك المؤامرات ضد غالوس ويرسل تقارير مفصلة إلى قسطنطينوس. وفي نهاية المطاف أُقنع بحضور اجتماع المجلس الأعلى. لكنه ما أن دخل القاعة ووقف أمام القيصر الشاب ـــ الذي كان رئيسه رسمياً ـــ حتى صرَّح دون أية مقدمات:

ـــ أطالبك بالرحيل على الفور. وفي حال أي تأخير سآمر في أقرب وقت بقطع الموارد عنك وعن جميع أفراد البلاط!

قال هذا بكثير من الغطرسة والثقة بالنفس، ثم غادر القاعة وهو لا يخفي غيظه. وعلى الرغم من ذلك طلب إليه غالوس بضع مرات أخرى الحضور إلى القصر، وفي كل مرة رفض بحزم. أمر القيصر الشاب الذي أغاظه هذا الشيء، ضباطه بمحاصرة مقر دوميسيان؛ كان الهدف بطبيعة الحال بثّ الرعب في نفسه.

علم المسؤول المالي بالأمر، وهو أحد كبار موظفي البلاط. فاستدعى الضباط وأعلن أمامهم أن ما ينوون القيام به سيكون عملاً أخرقاً ومهيناً. كما سمح لنفسه بملاحظة تنم عن الاستفزاز والتحريض.

ـــ ولكن إذا كنتم راغبين في هذا الشيء، حطموا أولاً تماثيل قسطنطينوس، ثم فكروا بقتل دوميسيان!

كان كل تمرد على الحاكم في الإمبراطورية الرومانية يبدأ دوماً بتحطيم تماثيله، ولذلك فإن معنى كلام مونسيوس كان واضحاً لا لبس فيه: إذا رفعتم أيديكم في وجه الوالي الذي عينه قسطنطينوس، فإنكم تتمردون على قسطنطينوس نفسه ــ كما لو أنكم حطمتم تماثيله.

تم نقل مضمون هذا التصريح إلى غالوس على الفور، فخاطب رجاله باقتضاب دون أن يخفي غضبه المسعور:

ــ لا خيار أمامكم. يجب أن تقفوا معي بثبات، لأن المجازفة واحدة. فمونسيوس يتهمنا بوقاحة بأننا متمردون، وأننا ضد جلال الإمبراطور. وكل هذا لأن الحراس حاصروا الوالي المتغطرس الذي يتظاهر بأنه يجهل صلاحيات كل فرد!

لم يكن مقر إقامة مونسيوس بعيداً. كان رجلاً متقدماً في السن، ضعيفاً ومريضاً. أوثق الجنود قدميه برباط متين، وجرّوه على الأرض حتى منزل الوالي. اقتحموا المبنى، دفعوا دوميسيان من أعلى السلم وشدّوه بالحبل ذاته. ثم جرّوا المسؤولين الكبيرين في شوارع المدينة حتى تحطمت مفاصل جسميهما وتناثرت أشلاؤهما. وعندئذ ركلا ووطئا بالأقدام حتى لم يتبق منهما سوى كتلتين من اللحم والعظام، فألقيت الجثتان في النهر.

محاكمات وتحقيقات في الشرق

كان مونسيوس في اللحظات الأخيرة من حياته وهو يتعرض لتعذيب وحشي ويكاد أن يكون على حدود فقدان الوعي، يكيل الشتائم لبعض الناس ويردد باستمرار اسمين هما: يوسيبيوس وإيبيغون. وبما أن أحداً لم يعرف من هما الشخصان المعنيان، حدث اشتباه بأنهما مشاركان في المؤامرة، أي أنهما شريكا مونسيوس. وهكذا بدأ البحث بحماس عن أشخاص مرموقين يحملون هذين الاسمين. وقد استدعي أشخاص من أمكنة بعيدة، فمن كيليكية، أي من جنوب آسيا الصغرى جيء بالفيلسوف إيبيغون، ومن حمص السورية بأستاذ البلاغة يوسيبيوس. تبين بعد زمن طويل أن وزير المالية المحتضر لم يفكر بالرجلين المثقفين ـ لأنه لم يكن يعلم بوجودهما أصلاً، وإنما بأفراد أقل شأناً بكثير؛ كان يعني رجلين من مراقبي ورش الحدادة في إنطاكية، كانا قد وعدا بتقديم السلاح لو دعت الضرورة مواجهة غالوس.

في تلك الأثناء كان أبوليناريس الذي احتل منصب رئيس ديوان بلاط غالوس (وهو صهر دوميسيان) مقيماً في بلاد ما بين النهرين. كان بتكليف من حميه يجري بعض التحقيقات في الوحدات العسكرية المعسكرة هناك، حيث دأب على البحث بشكل خاص بين الكتب والرسائل الصادرة عن ديوان غالوس، لعله يعثر بينها على ما يشير إلى تحريض الأخير للجيش ودفعه

للتمرد على قسطنطينوس. ولما علم أبوليناريس بأحداث إنطاكية وبمصير حميه، فرَّ على الفور. وصل إلى القسطنطينية عبر الحدود الأرمينية وبلدان آسيا الصغرى. وهناك عثر عليه ضباط غالوس المرسلين لمطاردته، واقتادوه إلى إنطاكية. ومنذ ذلك الحين تم إخضاعه لرقابة مشددة، وبدا الحكم عليه بالموت أمراً مؤكداً.

لسوء الحظ تم في تلك الأثناء اكتشاف فضيحة أخرى. ففي صور الفينيقية تمت بصورة سرية للغاية حياكة ثوب إمبراطوري رسمي، وتم التأكد من ذلك تماماً، ولكن دون التوصل بأي شكل من الأشكال إلى الحقيقة حول الشخص الذي أوصى بحياكة الثوب، ولمن كان هذا الزي الملكي مخصصاً. أثيرت الشبهات بطبيعة الحال حول وجود مؤامرة هدفها هو اغتصاب العرش. اعتقل حاكم المقاطعة الذي كان والد أبوليناريس وحمل الاسم ذاته، بتهمة الاشتراك في المؤامرة، وشاركه مصيره عدد كبير من الأشخاص.

جُنَّ جنون غالوس، القلق دوماً، والمتشــكك، والوحشي الميول. أما القضاة الذين تلقوا تعليماتهم منه، فلم يحاولوا مجرد التأكد مما إذا كانت التهمة حقيقية. كما التزم المحامون الصمت. حدثت هذه الأشياء آنذاك بالصورة ذاتها في كافة المقاطعات الشرقية: كان تنفيذ حكم الإعدام مرحلة انتقالية ما بين النطق بالحكم ونهب أموال ومصادرة ممتلكات الضحية.

القاضي اورسيسين

أراد غالوس إضفاء صبغة الجدية والشرعية على محاكمة الأفراد الذين كانت الشبهات حولهم هي الأقوى. ولهذا السبب قام بتعيين رئيس لهيئة المحكمة في شخص أورسيسين قائد الفرسان الذي حظي باحترام واسع، وكان مركز قيادته حتى ذلك الحين في المدينة الحدودية نصيبين. لم يتمتع الجندي العجوز بأية معرفة قانونية، أو خبرة في أصول المحاكمات. فلا غرابة في أنه تلقى نبأ التعيين بنفور زائد، لا بل بامتعاض. لكنه أطاع الأمر، وتوجه إلى إنطاكية في الحال. وقد رافق أميان مارسيلينوس القائد العجوز بأمانة وإخلاص. أدرك أورسيسين جيداً أنه في وضع غير مريح، لا بل خطر إلى حد ما. فجريمة قتل كل من دوميسيان ومونسيوس كانت حادثة غير مسبوقة؛ وكانت في واقع الأمر بمثابة تحد للإمبراطور قسطنطينوس نفسه. ولكي ينجو غالوس بجلده، ويبرر الجريمة ولو بصورة واهية، وجب عليه مهما بلغ الثمن إثبات وجود مؤامرة تستهدفه شخصياً تورط فيها المسؤولان الكبيران. وكان للمحاكمة أن تنجز هذه المهمة، أما أورسيسين الذي كلِّف برئاسة المحكمة، فكان يتحول بذلك إلى شريك لغالوس في أفعاله الشنيعة ليستحق غضب صاحب السلطة الأعلى في البلاد ــ قسطنطينوس. وفي حال التردد واتخاذ موقف بعيد عن الصرامة من المذنبين المزعومين، فكان يعرض نفسه لغضب غالوس الفوري، ليشارك بذلك الضحايا مصيرهم.

أمام هذا الواقع حاول القائد اللعب على حبلين. ففي قاعة المحكمة تصرف كما أراد غالوس، وعلى أي حال كان جميع أعضاء هيئة المحكمة من رجال قيصر الشرق؛ أما في التقارير السرية، فقد أخبر قسطنطينوس بكل ما كان يجري في إنطاكية ــ القضايا العلنية، والمحاطة بسرية تامة على حد السواء. أراد أن يثبت بذلك بأنه يعترف بقسطنطينوس وحده سيداً حقيقياً، وله وحده يعلن الولاء التام.لا بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث طلب منه في إحدى رسائله العون لمواجهة نشاط رئيسه المباشر ــ أي الرجل الذي أصدر باسمه اشد الأحكام قسوة!

في اليوم المحدد لإجراء المحاكمة الرسمية احتل قائد الفرسان مكان الصدارة وسط القضاة الذين أملي عليهم مسبقاً ما يتوجب عليهم القيام به. رافق هيئة المحكمة «جيش» من الكتبة الذين أخبروا غالوس دون تأخير بكل الأسئلة التي وجّهت، والأجوبة التي تلقاها القضاة. كانت قسطنطينا أيضاً في قاعة المحاكمة، ولكن خلف حجاب، حيث أطلت برأسها من خلفه بين الحين والحين لتذكر القضاة بأنها تصغي باهتمام لكل كلمة يتفوهون بها.

تم استجواب الفيلسوف إيبيغون أولاً. فتبين على الفور بأنه حقاً من محبي الحكمة. في البدء توسل الرحمة وهو يبكي، ولكن دون جدوى بطبيعة الحال؛ ولما بوشر بالتعذيب، وبنتف اللحم بالكماشة من جبينه، لم يجد الحكيم الذي لواه الألم وأرعبه شبح الموت مجالاً أمامه سوى الاعتراف الفوري بالمشاركة في المؤامرة ــ التي لم يكن لها وجود أصلاً. وعلى أي حال، فإن إيبيغون كرجل بعيد كل البعد عن السياسة وشؤونها، لم يكن ليسمع بأية مؤامرة من هذا القبيل، حتى لو عرفها جميع سكان مدينته.

لكن الخطيب يوسيبيوس أنكر كل شيء بجرأة وعناد. هتف بأعلى صوته مشيراً إلى أن ما يجري ليس محاكمة، وإنما قتل متعمد. وبما أنه كان على اطلاع على الجانب الإجرائي، طالب بإصرار بحضور المدعي، وبأن تتخذ المحاكمة الشكل الرسمي. ولدى إعلام غالوس بالأمر أشار بغيظ إلى أن المتهم مفتر وقح، وأمر باللجوء إلى أساليب أقسى في التعذيب. تعرض يوسيبيوس

لأعنف تعذيب ممكن، بحيث لم تبق في نهاية المطاف بقعة واحدة من جسمه صالحة لأن توضع عليها أدوات التعذيب. لكنه لم يسمح لنفسه بالانهيار ولو للحظة واحدة. لم يتهم أحداً، ولم يتفوه باسم أحد. ولمَّا تم جرُّه برفقة إيبيغون المهان لتنفيذ حكم الإعدام، لعن الأزمنة التي قُدِّر له أن يعيش فيها.

تم الانتقال بعدها لبحث موضوع الثوب الإمبراطوري الذي حيك في صور. فتعرض عمال المشغل للتعذيب. اعترفوا أن رداء قصيراً من هذا النوع قد حيك في مشغلهم. كما تم العثور على رسالة باللغة الإغريقية موجهة إلى مدير المشغل المدعو ماراس، والذي شغل وظيفة شماس في أوساط الجماعة المسيحية هناك. تضمنت الرسالة رجاء بالإسراع في إنجاز العمل، لكنها لم تشر إلى موضوع الطلب. لم يبح ماراس المعذب بشيء، ولذلك بقيت جوانب عديدة من القضية غامضة، بينما أسفرت التحقيقات في حالات أخرى عن اكتشاف تجاوزات لا قيمة لها. وعلى الرغم من ذلك تم إعدام الكثيرين.

حُكِمَ على أبوليناريس ـ الأب والابن معاً ـ بالنفي فقط؛ كانا محظوظين، وأمكن لهما الابتهاج بنتيجة الحكم. قادهما الجنود إلى كراتيرا الواقعة على بعد ما يقارب العشرين ميلاً من إنطاكية، حيث كانا يملكان فيلا ريفية. لكن الجنود أنجزوا هناك المهمه التي كلِّفوا بها سراً، فكسروا ساقي الرجلين قبل ضرب عنقيهما.

محاكمات وتحقيقات في الغرب

بمزيد من القلق تلقى قسطنطينوس الذي أقام في أريلات ما بين خريف عام ٣٥٢ وربيع العام التالي أخبار حكم غالوس المستبد في الشرق. لكنه تصرف هو نفسه على نحو مشابه. فبعد أن هزم مغنيسيوس أصدر كما أسلفنا في أيلول من عام ٣٥٣ مرسوم العفو في لوغدونوم؛ ثم احتفل في أريلات بدءاً من اليوم العاشر من تشرين الأول بالذكرى الثلاثين لتوليه السلطة. ومنذ ذلك الحين، ودون إعارة أي اهتمام للمرسوم الصادر عنه ولألق الاحتفالات، باشر بأعمال الاضطهاد التي لم تقتصر على مؤيدي مغنيسيوس فحسب، بل شملت جميع الذين تعاملوا معه وإن كانوا مرغمين على ذلك، أو حتى الذين لم يكن هناك دليل على تعاملهم معه سوى الاشتباه. كان الإمبراطور المهتم بصغائر الأمور متلهفاً للإصغاء إلى كل أصناف الشكاوى بما في ذلك الزائفة، والتي لم يتم التحقق منها، والمنطوية على قدر كبير من التهور. لم يكن الأمر يتطلب أكثر من مجرد النميمة لكي يقاد كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين إلى السجون مكبلين بالأصفاد؛ وغالباً ما صدرت أحكام بالموت، ومصادرة الممتلكات، والنفي إلى جزر كادت أن تكون مهجورة.

زادت مداهنات أفراد البلاط الوقحة الطين بلّة. ضخموا كل إشاعة وهم يتظاهرون باهتمام لا حدود له بكل ما من شأنه أن يعرض حياة الإمبراطور

للخطر؛ لأن ــ هذا ما ادَّعوه ــ مصير العالم معلق بهذه الحياة وكأنه بخيط رفيع.

تميز بين المداهنين والمخبرين بشكل خاص إسباني عرف باسم بولس، وكان عضواً في هيئة مستشاري الإمبراطور. تحدث عنه فيما بعد أميان مارسيلينوس الذي احتك به عن قرب بكثير من الامتعاض والكراهية قائلاً:

«كان أفعى سامة ومتعددة الوجوه، يشم ببراعة المسالك الخفية للمخاطر».

أُرسل إلى بريتانيا، ليأتي من هناك بمجموعة من العسكريين الذين تجرأوا على الوقوف إلى جانب مغنيسيوس؛ ولم يكترث أحد بحقيقة أن أياً من أفراد هذه المجموعة لم يكن قادراً آنذاك على التصرف بشكل مختلف. فتجاوز بولس الصلاحيات الممنوحة له. وكتب مارسيلوس بأسلوبه الوضعي قائلاً:

«تدخل في مصائر الكثيرين كنهر هائج، وهو يشق طريقه عبر أكداس الجثث ويشيع الدمار. اعتقل الأحرار، وأهان البعض أكثر بوضع الأصفاد في أيديهم. اتهمهم بارتكاب العديد من الجرائم، على الرغم من أن كل التهم كانت بعيدة عن الحقيقة كل البعد».

اتخذ خلاف بولس مع مارتينوس المكلف بإدارة شؤون بريتانيا كنائب للوالي منحى حاداً بشكل خاص. حاول مارتينوس الذي أغاظه سلوك الكاتب، وأخذته الشفقة على مآسي العديد من الأبرياء تماماً. حاول مارتينوس الدفاع عن بعض تعيسي الحظ، وبما أنه واجه في كل مرة رفضاً قاطعاً، راح يهدد علناً بأنه سيستقيل من منصبه؛ كان يأمل بأن قاضي التحقيق المحب للأذى سيخشى هذا الشكل من المعارضة الذي لا بد وأنه سيثير اهتمام القيصر شخصياً، وسوف يكف عن اضطهاد الناس. لكن بولس اعتبر موقف مارتينوس بمثابة عائق أمام تنفيذ مهمته.. وبما أنه كان بارعاً في نصب الكمائن للآخرين، راح يلقي شباكه حول نائب الوالي، وهو على قناعة بأنه يجب أن يواجه مصير أولئك الذين حاول الدفاع عنهم. وفي نهاية المطاف

أعلن بولس في أحد الأيام صراحة بأنه يجد نفسه مرغماً على اصطحابه إلى بلاط القيصر، وذلك بعد أن توضع الأصفاد في يديه وقدميه، ويرافقه عدد من الضباط.هزّت الصدمة مارتينوس، فاستلّ سيفه وانقضّ على قاضي التحقيق ــ الكاتب، لكن يده اليمنى كانت أضعف، ولم تكن الطعنة قاتلة. لم يبق أمامه سوى أن يغرز السيف في صدره هو. وعلى هذا النحو المهين رحل عن العالم المسؤول الذي أكسبته عدالته الاحترام في أوسع الأوساط.

بعد ارتكاب جميع هذه الجرائم عاد بولس ظافراً إلى البلاط الإمبراطوري. كان يسوق الكثيرين من التعساء المكبلين بالأصفاد، والمدفوعين إلى قاع الذل والبؤس، بينما كان الجلاد قد أعدّ أدوات التعذيب احتفاء بقدومهم.

المنعطف

أطلنا الحديث عن الحروب الأهلية والسياسة الكنسية، وعن النزاعات اللاهوتية وحكم الطغاة، واختفى يوليان تماماً عن أنظارنا وعن أنظار معاصريه، وعلى أي حال لم يوله قسطنطينوس ومستشاروه اهتماماً يذكر. كانت تكفيهم المعلومات الواردة بانتظام من مصادر معينة ـ استخباراتية، وكانت هذه التقارير متشابهة دوماً: يوليان يدرس بجد، يشتري ويقرأ الكتب القديمة؛ لا يرتاد دور المسرح والسيرك، ويصغي فقط لمحاضرات البلاغة. ولا ريب في أنهم اختتموا هذه التقارير عادة بابتسامات ماكرة تعني: عالِمٌ عاجزٌ آخر!

كان البلاط في واقع الأمر سعيداً بهذا الشيء، ولذلك لم يعترض أبداً على رغبة الأمير الذي كان مقيماً في نيقوميديا حتى ذلك الحين في زيارة بعض المراكز العلمية الأخرى في آسيا الصغرى، وخاصة في بيرغامون، لتعميق معرفته في علم البلاغة والفلسفة. يبدو أن أحداً من المحيطين بالإمبراطور لم يبد اهتماماً بموضوع مَنْ كان المحاضرون هناك؟ وإذا كان أحدهم في المكتب المختص في البلاط قد لاحظ بأن أيديزيوس، مدير مدرسة البيرغامون، وكذلك تلامذته، هم من الوثنيين، وأنهم يدرسون وينشرون آراء أفلاطون، وقبل كل شيء أفلوطين، ويامبليخوس وخلفائه ـ اعتبرت القضية

ثانوية وعديمة الأهمية. تقرر أن: يوليان مسيحي نموذجي، ولا يمكن للآراء الدينية لعدد من الأساتذة الصغار في مدينة ثانوية، أن تكتسب قيمة سياسية.

ولكن في بيرغامون بالذات كانت نقطة الانعطاف الرئيسة في عقلية وقناعات يوليان؛ ذلك الانقلاب الكبير في تقييمه لنظامي المعتقدات المتصارعين فيما بينهما آنذاك. أما طلب الموافقة على السماح بالدراسة في بيرغامون، فقد نجم عن الرغبة، ربما غير الواعية تماماً، في ترسيخ قناعاته التي كانت قد بدأت تتطور في اتجاه محدد.

للأسف، لا نعرف سوى القليل عن أسباب وظروف ذلك التبدل الحاسم الذي هزَّ آنذاك العالم الداخلي للأمير الشاب، والذي كان له أن ينعكس فيما بعد على حياة الإمبراطورية بأسرها. فهو نفسه، صاحب القلم الغزير، يلتزم الصمت الحذر إزاء هذا الموضوع. وكذلك نجد الاعتدال لدى معلمه وصديقه، الخطيب ليبانيوس الذي يقتصر فيما كتب على بعض العموميات:

«احتكَّ يوليان أخيراً مع أناس تشبعت عقولهم بتعاليم أفلاطون. ومنهم سمع عن الآلهة والعفاريت، أي عن خالقي ومخلصي هذا العالم الحقيقيين؛ وكذلك عن ماهية الروح، وما ينتظرها، وأسباب سقوطها وتساميها، وما يقيدها، وما يرفعها إلى الأعلى، وما هو بالنسبة لها سجن، وما هو حرية، وكيف يمكنها تلافي الأول وبلوغ الثانية. غسلت المياه العذبة لهذه الكلمات أذنيه المسدودتين بالمرارة. فألقى جانباً بكل الحماقات التي آمن بها من قبل. ليُحِلَّ محلها في روحه جمال الحقيقة؛ وكأنه يُدخِل تماثيل الآلهة إلى المعبد العظيم ـــ التماثيل الممرغة في الوحل من قبل. أصبح من هذه الناحية إنساناً جديداً لكنه تظاهر بأن كل شيء باقٍ على سالف عهده، لأن نزع القناع أمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة. لا بد وأن إيسوب كان سيحول هذه القضية إلى موضوع لحكاية، بالطبع ليس إلى حكاية الحمار في جلد الأسد، وإنما الأسد المتخفي في هيئة حمار. كان يوليان قد عرف ما هو الأفضل، لكنه تظاهر بما كان أكثر أماناً».

يوجد مصدر يستعرض بإسهاب مرحلة دراسة يوليان في بيرغامون، وخاصة ما يخص شخصيات مدرسية. وهذا المرجع هو: «حياة الفلاسفة» بقلم يونابيوس، الخطيب اليوناني، الوثني، المولود عام ٣٤٦. ففي أحد فصول الكتاب نقرأ رواية عن معلمي يوليان في بيرغامون.

يوليان في بيرغامون

حرص خصيّو القيصر ومراقبوه أشدَّ الحرص على أن يترعرع يوليان كمسيحي صالح. لكنه أثبت في هذه الحالة أيضاً تفوق وعظمة طبيعته. فقد تعلم كتبهم عن ظهر قلب! فحدث أن أشفق المربون أنفسهم على ضآلة علمهم، وعدم قدرتهم على تزويد الفتى بشيء. وبما أنهم بدوا عاجزين عن الاستمرار في تعليمه، طلب يوليان من قريبه القيصر السماح له بدراسة البلاغة والفلسفة. رغب قسطنطينوس من ناحيته أن ينصبَّ اهتمام الشاب على الكتب وحدها، وأن يضيِّع وقته فيها، بدلاً من التفكير بنبل أصله وحقه في العرش؛ ولذلك وافق دون تردد على طلبه.

رحل يوليان حيثما شاء، وفي تصرفه موارد ضخمة، وهو محاط بالحرس الإمبراطوري. جاء إلى بيرغامون أيضاً؛ شدته إلى هذا المكان شهرة عظمة أيديزيوس. كان الأخير قد تقدم كثيراً في السن ووهن جسمه. وبين تلامذته تميز كل من مكسيموس، خريزانسيوس، بريسكوس، ويوسيبيوس. واظب يوليان على الدراسة تحت إشراف أيديزيوس بالذات ــ كان له عقل جدير بشيخ في جسم شاب ــ وبقي متأثراً بشخصيته الإلهية. ولذلك لم يفارق المعلم؛ بدا مستعداً لارتشاف العلم بملء فيه إن صحَّ القول. وقد قدم له هدايا إمبراطورية حقاً، لكن أيديزيوس لم يقبلها. وفي نهاية المطاف استدعى الشاب وقال له:

ـ أظنُّك بتَّ تعرف روحي، ما دمت قد أصغيت إلى كل هذه المحاضرات. لكنك ترى أيضاً، حال أدائها، وكيف يتمزق ملاط الجسد ويتناثر إلى أجزاء. ولذلك يا طفل الحكمة العزيز ـ فبعض الدلائل تجيز لي القول بأن روحك تستحق التعبير ـ إن أردت تحقيق شيء، عليك بأبنائي الحقيقيين. وستحصل منهم على جوهر كافة المعارف والعلوم. وإذا حصل لك شرف الاطلاع على الأسرار، ستخجل بنفسك من أنك وُلِدْتَ ودُعيتَ إنساناً! كم كنت أتمنى لو أن مكسيموس كان هنا، لكنني أرسلته إلى أفسس. كما أن بريسكوس أبحر إلى أرض هيلادا. ولم يبق من تلامذتي سوى يوسيبيوس وخريزانسيوس. وإذا أصغيت لمحاضراتهما لن تضطر لإرباك شيخوختي.

لكن يوليان على الرغم من ذلك لم يهجره، بل كرَّس وقتاً أطول للإصغاء إلى المعلمين الذين أشار إليهم. كان خريزانسيوس يشاطر مكسيموس الرأي ويتحلى بسلوكه. أما يوسيبيوس ـ كان من مدينة ميندوس ـ فلم يحاول أن يتباهى بحضور مكسيموس بقدرته على طرح البرهان بدقة، أو بمعرفته العميقة لقوانين ورهافة الجدل. لكنه في غياب مكسيموس تألق في هذا الفرع من فروع المعرفة وكأنه قرص الشمس. كان خريزانسيوس يثني عليه، وينظر إليه يوليان بإعجاب شديد.اعتاد يوسيبيوس على إنهاء كل محاضرة بالكلمات التالية:

ـ الحقيقة هي وجود ما يشكل موضوع الديالكتيك. أما فنون السحر التي تخدع الحواس، فهي من نتاج المشعوذين والمخبولين الذين يستغلون طاقات المادة في الخداع.

دفع تكرار هذه الملاحظة يوليان للانتحاء بخريزانسيوس جانباً وسؤاله:

ـ ما الذي تعنيه نهاية محاضرات يوسيبيوس تلك؟

فأجاب خريزانسيوس بحصافة:

ـ من الحكمة ألا تسألني أنا عن ذلك، وإنما هو.

وهذا ما فعله يوليان. فلما حان موعد المحاضرة التالية، وأنهاها المعلم بالعبارة المعهودة، سأله بجرأة عن مغزاها. فقام يوسيبيوس الذي يبدو وكأنه انتظر هذا الشيء، بإطلاق العنان لبراعته الخطابية:

ـــ هناك رجل ذو علم غزير يدعى مكسيموس، وهو من الطلاب القدامى. لكنه بسبب مواهبه العظيمة وأسلوب تعبيره الفذ يستهين بالاستدلالات المنطقية! فاندفع بزخم مسعور وسط جلبة خبل ما. وقبل وقت قصير دعانا جميعاً إلى معبد الإلهة هيكاتي في أفسس. ولمَّا مثل الجميع هناك وعبَّروا عن إجلالهم لسيدة المقام، قال:

ـــ اجلسوا الآن أيها الأصدقاء الأعزاء، وانظروا لِما سيحدث، وفكروا إن كُنتُ أختلف بشيء عن عامة الناس!

ولمَّا جلسنا، أحرق قليلاً من البخور، ورتَّل بصوت خافت أنشودة ما ـــ وهنا ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه التمثال أولاً، ثم بدأ يضحك بملء شدقيه. فتسمرنا في أمكنتنا ، بينما قال هو بهدوء تام:

ـــ أرجو ألا يقلق أحد بسبب ذلك! فالآن ستشتعل المشاعل التي تحملها الإلهة في يدها!

وقبل أن ينهي كلامه، اندلع اللهب في المشاعل. انصرفنا وكلنا إعجاب في تلك اللحظة بالنجاح المسرحي لصانع المعجزات ذاك. أما أنت، فيجب أن تلتزم جانب الحذر وألا تعجب فعلاً بمثل هذه الألاعيب، كما أفعل أنا تماماً. فالشيء الوحيد الذي يجب أن تعتبره عظيماً حقاً، هو التطهير الذي يمنحه العلم!

لكن وجه يوليان تألق، وأذهل المعلم وهو يهتف:

ـــ كن بصحة جيدة واهتم بكتبك! أطلعتني على ما كنتُ أبحث عنه!

ثم قبَّل رأس خريزانسيوس وتوجه على الفور إلى أفسس.

يوليان ومكسيموس

كلام مذهل! وخاصة على لسان إنسان أحبَّ الكتب من كل قلبه. فيما يمكن تفسير رفضه، وهو الذي تشرب منذ نعومة أظفاره بالشعر الكلاسيكي والفكر الإغريقيين، للتحذير الرصين الذي أطلقه المحاضر المتبصر؟ كيف تفسر هروع الأمير الذي بهرته الرواية عن عمل ساذج، كاد أن يكون شعوذة في معبد أفسس، إلى أحضان صانع المعجزات المزعوم؟ ولمَّا تعرَّف عليه شخصياً، ترسخ إعجابه أكثر. وهذا ما يقوله يونابيوس:

«في أفسس، التصق بمكسيموس وتشبث بتعاليمه. فأشار عليه الأخير بتوجيه الدعوة إلى خريزانسيوس أيضا. وعلى الرغم من ذلك، بالكاد تمكن الاثنان من إشباع نهم يوليان للعلم».

تحقيقاً للعدالة يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن مكسيموس كان فعلاً شخصاً فذاً. فها هو يونابيوس الذي عرفه شيخاً طاعناً في السن يكتب عنه بإعجاب شديد:

«تسنى لي التعرف على نتاجه وهو في مرحلة الشباب، وسماع صوته في شيخوخته. كان صوتاً جديراً بأن يتفوَّه به أحد أبطال هوميروس، أبولون أو أثينا. فحتى بؤبؤا عينيه بديا وكأنهما مجنحين ـــ إن صحَّ القول. كانت لحيته طويلة وبيضاء، وعكست نظرات عينيه كل ما اعتمل في الروح.

وبغض النظر عمَّا إذا كنت تنظر إليه أو تصغي لصوته فإنه يترك لديك انطباعاً قوياً بالتناغم والانسجام. وكل مَنْ تحدث إليه أذهلته حيوية نظراته وسلاسة كلامه. ولم يكن هناك مَنْ يجرؤ على معارضته في النقاش، حتى أكثر الرجال خبرة وفصاحة. حنى الجميع رؤوسهم بصمت وشاطروه الرأي، وكأن مهبط الوحي هو الذي يتكلم. بدا وكأن سحراً ما استقر على شفتيه».

من اليسر إذن أن نفهم أن ذلك التأثير المغناطيسي ــ إن صحَّ القول ــ للشيخ الساحر شدَّ يوليان. وثبت بأن هذا التأثير قوي وراسخ. أحاط التلميذ المعلِّم بالتكريم والإجلال الصادق حتى آخر أيامه. تجدر الإشارة إلى أن اهتمامات مكسيموس لم تقتصر على إعداد عروض شبيهة بإحياء تمثال الإلهة هيكاتي. كانت اهتماماته واسعة في مجال الفلسفة الكلاسيكية أيضاً. نعلم أنه كتب تعليقاً على مقولات أرسطو. وحاول التأثير على مجمل شخصية تلاميذه. وهذا ما يمكن أن يُستشفَّ من كلام يوليان نفسه:

«قادني مردونيوس إلى مدخل الفلسفة. أما إطلاعي على أسرارها فيعود الفضل فيه إلى رجل أعتبره الألمع بين مَنْ هم على قيد الحياة. فهو مَنْ علمني قبل كل شيء التمرس في الفضيلة واعتبار الآلهة كائنات ممثلة لكل الجمال. وهو وحده يعرف إن كنتُ قد أنجزت شيئاً نافعاً ــ وقبله لا يعرف هذا سوى الآلهة صاحبة السلطان. هو السبب في تخلصي من جنوني وتوحشي؛ وهو مَنْ حاول دفعي لبلوغ السيطرة التامة على ذاتي. بسبب بعض الخيرات الخارجية نمت لي أجنحة ــ إن صحَّ القول ــ. لكنني خضعت للمعلم وتلامذته، وكذلك لأصدقائي وأترابي. أصغيت للمحاضرات التي أثنى عليها؛ وقرأت الكتب التي أوصى بها.

على الرغم من هذه الكلمات الجميلة التي قد تنسجم مع المشاعر العامة لمؤلفها، تبقى الحقيقة الأساسية حقيقة: فباختياره لمكسيموس، انتمى يوليان طوعاً، وعن وعي تام، وباندفاع شديد، إلى مدرسة طريفة ــ إن لم نقل غريبة الأطوار ــ ليست فلسفية بقدر ما هي سرية باطنية. كانت تدعى ثيورجيا،

ويمكن تقريب معناها على أفضل وجه بكلمتي «خلق الآلهة». ويمكن تحديد جوهر المفهوم باختصار على النحو التالي:

الثيورجيا مرحلة أعلى وتطبيق عملي للثيولوجيا (اللاهوت). فبينما يناقش اللاهوت موضوع الآلهة ويعلِّم، تمارس الثيورجيا الفعل وتؤثر: بفضل الآلهة، ومع الآلهة، وعلى الآلهة. يلجأ اللاهوتي إلى الاستدلالات التجريدية كأداة، بينما يقوم الثيورجي بشيء أكثر من ذلك: يصنع المعجزات ويأتي بعلامات خارقة ــ كالتي تباهى بها مكسيموس في معبد الإلهة هيكاتي. ولكن تجدر الإشارة إلى أن الثيورجيا تضع حداً فاصلاً بينها وبين كافة أشكال السحر والشعوذة. فَمنْ الذي يمكنه أن يصبح ثيورجياً ؟ فقط الشخص الذي تلقى الإعداد الفلسفي بعناية، وتحرر من كافة الشهوات الدنيئة، وامتلأ بالمحبة الإيثارية للآلهة والبشر.

تحيِّر السهولة التي اختطفت بها الثيورجيا يوليان الباحثين المعاصرين وتخلق لهم العديد من المتاعب. وهي سبب خلافات متشعبة بينهم. فالمدافعون عن المسيحية الذين يشعرون بالازدراء نحو يوليان كمرتد، يجدون في ذلك برهاناً ساطعاً على سذاجته وضحالة فهمه للفلسفة والدين على حد سواء. أما العلماء الذين يتعاطفون مع يوليان لأي سبب من الأسباب، يميلون بالأحرى إلى الانتقاص من أهمية الحدث كله، وهذا الجانب من قناعاته؛ ويصرّون على أنه خطأ مرحلة الشباب الناجم عن ضعف التمييز وعن الحماس الزائد للفلسفة القديمة والإيمان بالآلهة التي أُفلَ نجمها.

يبدو أن الموقفين متحيزان، وظالمان، وينطويان على مفارقة تاريخية. فلكي يُفهم ويقيَّم بالشكل الصحيح إعجاب يوليان الشديد بالثيورجي، يجب أن يتم الإحساس بنفسية إنسان ذلك العصر ومقدراته المعرفية. وقبل أي شيء آخر لا بد من استعادة الأفكار ــ ربما غير المُدْرَكَة دوماً بشكل تام ــ التي حرّكت مشاعر تلميذ مردونيوس.

لا ريب في أن الفكر الوثني في كافة جوانبه وفي كل المجالات يتفوق على الفكر المسيحي. فأعمال الفلاسفة هي أعمق وأجمل، وأكثر ثراء بما لا يقبل المقارنة مما يمكن أن يقرأ مع كامل حسن النية في الكتب المقدسة للديانة الجديدة. والتعاليم الأخلاقية، والإرشادات الخاصة بالسلوك الأخلاقي والنافع للحياة الاجتماعية جديرة بكل ضروب الثناء ولا تنحرف عن الوصايا المسيحية. وحتى الأساطير والروايات عن الآلهة المروِّعة ظاهرياً، يمكن تفسيرها كمجازات، واستعارات، وحكايات شاعرية. ولكن يوجد مجال واحد يشعر فيه المسيحيون بالظفر! فهم يشددون على المعجزات التي تؤكد صحة عقيدتهم منذ قرون وفي كل جيل ــ بدءاً من علامات النبوَّة في العهد القديم، ومروراً بمعجزات موسى وتلامذته، وانتهاءً بشهادات الشهداء. وهذا ما لا يمكن أن يعارضوا به من الجانب الوثني. فالآلهة لم تعد تظهر أو تمارس أي نشاط منذ قرون. وصمتت مهابط الوحي. فربما كانت الآلهة فعلاً مجرد عفاريت طُردت من قبل العقيدة الحقَّة؟ لِما لا تتكلم، لِما لا تأتي بأية علامات أو رموز إن كانت موجودة حقاً، إذا كانت الملهم لكل تلك الأفكار والفنون الرائعة؟

يستنتج من ذلك: أن المعجزة مقدمة ضرورية للإيمان بالآلهة. وبفضلها تصبح كلمة الفلسفة جسداً. فإذا ما تناهى إلى سمعه نبأ وجود حكيم على قيد الحياة يمارس نشاطه، وقادر على الإتيان بعلامات خارقة، كيف لا يهرع إليه وكأنه يطير على أجنحة، وكيف لا يتخلى حتى عن الكتب الحبيبة؟ فهو يحقق ما كان يبحث عنه منذ أعوام.

اضطرابات في سابيلونوم

في ربيع عام ٣٥٤ انطلق قسطنطينوس من أريلات متجهاً نحو الشمال لمواجهة الملكين الألمانيين غوندوماد وأدومار، حيث كانت جحافل قواتهما تقتحم عمق أراضي المقاطعات الواقعة على نهر الراين لتنهبها وتدمرها. لكن القيصر لم يتقدم كثيراً إذ لم يتجاوز فالينسيا على ضفاف الرودان، أي فالني الحالية، الواقعة في منتصف الطريق ما بين أريلات ولوغودونوم. وهنا توقف طويلاً بانتظار إمدادات التموين للجيش، حيث جيء بها من أكويتانيا الخصبة، من وادي نهر غارون. لكن فيضانات الجداول في الربيع بسبب الأمطار الغزيرة قطعت الطرقات، وهذا ما أدى إلى تأخير ملحوظ في التموين بالمواد الغذائية. وفي هذه الأثناء كانت الجيوش الرومانية تتابع تجمعها في الشمال، في سابيلونوم، أي شالون سورساون Chalon sor Saon. شعر الجنود بنقص حاد في الغذاء، فقلقوا واضطربوا. وخوفاً من تمرد الجيش، بعث القيصر الوالي روفين إلى تلك المدينة، حيث كان عليه إيضاح وتفسير أسباب التأخير.

لم يكن روفين من كبار مسؤولي الدولة فحسب، وإنما واحداً من الذين ربطتهم علاقة قرابة بالأسرة الحاكمة؛ فهو شقيق والدة غالوس، قيصر الشرق آنذاك. ولكن بسبب علاقة القرابة هذه بالذات أشيع أن القيصر أرسل الرجل

في هذه المهمة الخطرة، ليفضحه أو ربما ليتخلص منه. فقد كان أمراً معروفاً أن الجنود الجائعين شعروا بالنفور دوماً من كبار المسؤولين المدنيين، ولن يتقبلوا بهدوء أي إيضاح أو تفسير مهما كان منطقياً؛ ولو حدثت في المعسكر اضطرابات، وذهب روفين ضحية لها، لفقد غالوس رجلاً متنفذاً وقوياً في محيط القيصر. وقد استند الذين أشاعوا هذه الحكايات والافتراضات إلى حقيقة دامغة:

جاء في فالينسيا إلى القيصر أحد ضباط الحرس الإمبراطوري الخاص، كان يدعى هيرقولانوس، وهو ابن قائد الفرسان هيرموجينيس الذي مزقته الغوغاء من العامة قبل عشرة وبضع من السنين في شوارع القسطنطينية، أثناء المعارك الدائرة بين أنصار الأسقفين بولس ومقدونيوس. قدَّم هيرقولانوس القادم من الشرق تقريراً مفصلاً للقيصر عن الأحداث الدائرة مؤخراً في إنطاكية، وحذَّره أيضاً من أن غالوس يعدّ العدَّة لتنفيذ مخططات جسورة في المستقبل. حاول قسطنطينوس كالعادة إخفاء القلق، لكن رجال البلاط لاحظوا أنه بعد هذه المقابلة بدا شديد العصبية.

بعد وصول روفين إلى سابيلونوم، وجد نفسه في المأزق فعلاً، وباتت حياته عرضة للخطر. لكن الشائعات التي سرت حول رغبة القيصر في التخلص منه بهذا الأسلوب المخادع كانت من نسج الخيال بكل تأكيد؛ فقتل الوالي على أيدي الجنود المتمردين سيكون حدثاً يتعذر على أيٍ كان توقع نتائجه. وعلى أيٍّ حال، أثبت القيصر أنه مهتم بإنقاذ روفين. فقد أرسل بعده واحداً من رجال بلاطه هو يوسيبيوس الذي لم يكن لثقة القيصر به حدود. وقد حمل لقب «القائم على المخدع المقدس» Praepositus Sacri Cubiculi؛ كان خصياً ورئيساً للمجموعة القائمة على الخدمة الشخصية للإمبراطور. جاء إلى سابيلونوم بأكياس الذهب التي وزِّعت سراً على قادة التمرد. وهكذا أعيد الهدوء للمعسكر على جناح السرعة. أما روفين، الذي عاش وسط الجنود المضطربين لحظات رعب قاتل فقد عاد سليماً معافى. وبعد وقت قصير

وصلت شحنات الغذاء. وزحف الجيش في الموعد المحدد نحو مسرح الأحداث المقبلة. على ضفاف الراين الأعلى

امتدت الطريق التي سلكها الجيش من سابيلونوم نحو الشرق عبر وادي نهر دوبيس، على سفح جبل يورا. تمَّ التقدم ببطء وصعوبة، لأن الثلوج كانت لا تزال تغطي معظم الممرات هناك. وفي نهاية المطاف، وبعد تخطي العديد من العقبات والعراقيل، حطَّ الرومان الرحال على ضفاف الراين الأعلى. كان هذا في تخوم المدينة التي عُرِفت آنذاك باسم أوغوسطوس راوراكورم، والآن أوغوسط، قرب بازيليا. تجمعت جحافل الألمان على الجانب الآخر من النهر.

خطط قسطنطينوس لاجتياز النهر والانتقال إلى الضفة الثانية على جسر عائم، ومن ثم الزحف على نطاق واسع من أراضي الأعداء وتدميرها؛ وكان لهذا العمل أن يكون بمثابة انتقام من أعمال النهب والسلب التي قاموا بها في المقاطعات الرومانية. لكن سرعان ما ثبت تعذر بناء الجسر، لأن مجرى النهر كان عميقاً، ضيقاً، ومياهه سريعة الجريان بسبب حدَّة الانحدار. رشق الألمان بسيل من القذائف المحكمة التسديد كلَّ من حاول الاقتراب من ضفة النهر، وبقي الرومان مكتوفي الأيدي. جاء أخيراً أحد سكان تلك المناطق، وفي الليل، ولقاء مكافأة مجزية، أرشد الرومان إلى مخاضة في الراين. وفي ذلك المكان أمكن اجتياز النهر بيسر وأمان تام، لأن العدوَّ تمركز بكامل قواته قبالة المعسكر الروماني. لكن الخطة على الرغم من محاولة إحاطتها بسرية تامة تسربت إلى الألمان على الفور؛ فأرسلوا قسماً من مقاتليهم على عجل إلى المخاضة، واستعدوا للقتال هناك.

مَنْ الذي أقدم على الخيانة؟ أشيع في أوساط الجيش أن المذنبين هم كبار الضباط المنحدرين من أصول ألمانية. ووجِّهت التهمة بشكل خاص إلى ثلاثة رجال هم : لاتينوس، المسؤول عن الحرس الخاص؛ أغيلون، تريبيون الإسطبلات الإمبراطورية؛ وسكوديلون، قائد الفرسان. وكان الثلاثة ــ يقول

أميان مارسيلينوس بمزيج من مشاعر الأسى والغيظ ــ آنذاك موضع ثقة القيصر المطلقة، وكأنهم الدعامة الأساسية للدولة.

لكن انقلاباً غير متوقع حدث بغتة في هذه الأوضاع الصعبة بالنسبة للرومان. فالألمان على الرغم من حماسهم الشديد للحرب، وثقتهم بنفسهم بعد النجاح الأخير، قرروا تقديم تنازلات. ربما بسبب نتائج التنجيم غير المواتية، لأنهم استشاروا المنجمين دوماً قبل وأثناء العمليات الحربية، وأطاعوا أقوالهم باتضاع. وربما شعروا بنقص في المواد الغذائية، أو حدثت خلافات بين القادة. وعلى أيٍّ حال جاء في أحد الأيام عدد من الأمراء الألمان ليسجدوا أمام القيصر، ويقترحوا عقد اتفاقية سلام. احتفظ بهم قسطنطينوس في المعسكر، ولبضعة أيام عقد مجلسه الاستشاري اجتماعات سرية. وفي نهاية المطاف تقرر قبول العرض. وأثناء مخاطبة الجنود في الاجتماع العام، برر القيصر تنازله بالرغبة في حقن دماء الجيش وتجنيبه المخاطر التي ترافق أية حملة عسكرية.

ومع التقيد بكافة المراسم تمَّ عقد معاهدة سلام وتحالف مع الألمان. أدرك كل من الجانبين جيداً. أن الموضوع في جوهره ليس سوى هدنة مؤقتة، لكنهما أرادا إزاحة الصدام النهائي زمنياً لبعض الوقت، الصدام الذي كان رهانه السيطرة على كافة الأراضي الواقعة إلى الغرب من الراين، أي على غالة كلها.

إقالة أورسيسين

بعد الإنتهاء من الحملة الألمانية، اختار قسطنطينوس منذ عام ٣٥٤ ميلانو مقراً له. وركّز الآن كامل اهتمامه على قضايا الشرق.

بعد الأحداث الأخيرة في إنطاكية، وخاصة بعد مقتل دوميسيان ومونسيوس هناك، ساد الاعتقاد بأن غالوس راغب في الاستقلال التام. من يدري إن لم يكن سيتجرأ على مواجهة الحاكم الشرعي عسكرياً؟ أمام احتمال خطر كهذا، كان لا بد من استدعائه بأسرع ما يمكن وإلغاء كافة صلاحياته. ولكن ما الوسيلة لتنفيذ ذلك دون إثارة شكوك غالوس؟ فقد كان متوقعاً أن يقدم على أعمال يائسة إذا ما واجه الخطر النهائي.

امتدت المشاورات السرية الخاصة بهذا الموضوع بين قسطنطينوس وكبار المسؤولين الموثوقين إلى ساعات متأخرة في الليل في غير مرة.

تمَّ التفكير في البدء بإغواء غالوس بواسطة رسائل ودِّية، ودعوته إلى اجتماعات لمناقشة مواضيع ذات أهمية بالنسبة للدولة. لكن هذا المخطط واجه معارضة وزيرين متنفذين هما: يوسيبيوس ــ القائم على المخدع المقدس؛ وفلافيوس أربيتيون ــ قائد الفرسان، وأحد أشد المداهنين حماساً، وأكثر المتآمرين دهاء. كان محقاً في لفت الأنظار إلى جانب آخر من الموضوع:

ليس من الحكمة استدعاء غالوس، وترك أورسيسين الذي يحظى بنفوذ هائل في أوساط الجيش هناك. إذ يمكن أن تتخذ الأحداث مجرى يسمح لأورسيسين بالاستيلاء على أعلى سلطة! تماماً كما فعل مغنيسيوس قبل حين. أجل، بات أورسيسين رجلاً متقدماً في السن. ولكن يجب ألا ننسى أن له أبناء راشدين. وهم يشاركون في الحياة العسكرية اليومية في مختلف المعسكرات، ولذلك يعرفهم الجنود جيداً. ويمكن لهم أن يصبحوا حكاماً شركاء لأبيهم وورثة لأرجوانه.

أبدى قسطنطينوس المتشكك بطبعه، والملذوع بمرارة تجارب الماضي القريب، ميلاً للأخذ بهذه الملاحظات والتحذيرات. فأرسل إلى أورسيسين كتاباً أمره فيه بلطف بالغ بالمثول في بلاطه بأسرع ما يمكن. وبرر استدعاءه بضرورة إجراء مشاورات بخصوص احتمال قيام الفرس بشن هجوم جديد. وفي الوقت ذاته أرسل إلى إنطاكية بروسبيروس الذي كان له أن يتولّى قيادة جيش الشرق أثناء غياب قائد الفرسان.

يخبرنا أميان مارسيلينوس الذي كان لا يزال إلى جانب قائده في إنطاكية، ورافقه في رحلته، بإيجاز قائلاً:

«بعد تلقي الرسالة والحصول على الموافقة باستخدام البريد الحكومي، هرعنا إلى ميلانو على جناح السرعة».

عادات الرومان

على الرغم من زعم استدعاء القيصر لأورسيسين وضباطه في قضية عاجلة ولفترة قصيرة، ولهذا السبب كانوا على عجلة من أمرهم ـ فقد طال مكوثهم هناك على نحو غريب. تأجل الاجتماع مراراً لأسباب ظاهرية مختلفة، واتخذ رجال البلاط من القادمين موقفاً متميزاً بالفتور الحذر أو العداء. فبدأ الضيوف القادمون من الشرق يتوجسون ويتوقعون بأن خلف كل ذلك يختفي شيء خطير.

من المرجح أن يكون أميان مارسيلينوس قد استغل أسابيع ـ ربما أشهر ـ ذلك التأخير والقلق المرعب، لزيارة روما. فهو الذي ولد وترعرع في إنطاكية السورية لم تسنح له الفرصة بعد ليحني رأسه إجلالاً لعظمة عاصمة الإمبراطورية التي خدمها بإخلاص وقناعة نابعة من أعماقه. وعلى أيٍّ حال، فقد كرّس الضابط ـ المؤرخ لروما وعادات سكانها فصلاً مطولاً في المجلد الذي عالج فيه أحداث عام ٣٥٤. كانت نقطة البدء فيه إشارة إلى الاضطرابات العنيفة التي حدثت في العاصمة الواقعة على ضفاف التيبر لسبب تافه : حدوث خلل في وصول شحنات النبيذ.

وهذا نص ما كتبه أميان كرد فعل على الحدث:

أتوقع، إن وقع كتابي مصادفة بين يدي أجنبي، ألاّ يفتقر لأسباب الدهشة أثناء القراءة. فكلما ذكرت فيه روما، يدور الحديث عن الاضطرابات، وعن الشجار في الحانات، وعن حماقات مشابهة. فما هي أسباب مثل هذا الوضع؟

ستبقى روما ما بقي الإنسان. لكنها خلال قرون وجودها، مرَّت، وكأنها إنسان، بمراحل تطور مختلفة: الطفولة، ومرحلة الشباب، ومرحلة النضج ـــ والآن تميل إلى الشيخوخة. لوت المدينة الجليلة في حينه رقاب العديد من الشعوب الهمجية؛ أعطتهم القانون، أي أساس ودعامة كل حرية حقيقية. ثم نقلت السلطة على كامل إرثها إلى القياصرة؛ أي كأم حكيمة، مدبِّرة، وثرية، أوكلت لأبنائها أمر العناية بالثروة. وعلى الرغم من غياب النظام الجمهوري القديم، وغياب الانتخابات والتصويت، فإن الحياة فيها ظلَّت هادئة كما كانت في عهد الملك بومبيليوس، ولا تزال روما سيدة وملكة كل الأراضي، ويلقى شيب أعضاء مجلس الشيوخ واسم الشعب الروماني بحد ذاته الاحترام اللائق في كل مكان.

لكن مجموعة صغيرة من الناس الذين لا يدركون مدى روعة المدينة التي ولدوا فيها، ينتقصون من قيمة تألق المجتمع ككل. فهم يضلّون وينغمسون في التبذير، وكأنه، هنا بالذات، قُدِّرَ لكافة العيوب والنقائص أن تتمتع بالحرية التامة.

يؤمن البعض بأنهم سيخلَّدون بفضل تماثيلهم، ولذلك يسعون جاهدين من أجل نصبها. لكن من المؤكد أن النصب الميتة المسكوبة من البرونز ـــ حتى لو كسيت بغلاف رقيق من الصفائح الذهبية ـــ لن تعود بالنفع الذي يمنحه شعور

الإنسان بأنه عاش حياة هنيئة وصالحة. ويرى آخرون ذروة مجدهم في المركبات الفخمة. وكذلك في الملابس الأنيقة. يتعرقون تحت ثقلها، يرتدونها ويربطونها تحت أعناقهم ــ أثواب شفافة بفضل رقة النسيج. غالباً ما يومئ هذا أو ذاك بيده اليسرى المزدانة بالخواتم، لكي تلوح أثناء الحركة هدب طويلة ومعها الثوب المزركش الذي طرِّزت عليه أشكال حيوانات بخيوط زاهية الألوان. وتوجد فئة تتخذ وجوه أفرادها طابع الجدية وهم لا يكفون عن الحديث عن ثرواتهم الهائلة، دون أن يسألهم أحد عن ذلك؛ يحصون ما تدره عليهم من مداخيل سنوية الأراضي المزروعة التي يبالغون بوصفها ــ يمتلكون الكثير من أقاصي الحدود الشرقية إلى أقاصي الغرب.

أما أنت، أيها الأجنبي المحترم، فإذا زرت للمرة الأولى ثرياً ما، متغطرساً بسبب ثرائه، سيستقبلك بصدر رحب. وسوف يسألك عن كل شيء، ويرغمك على الكذب أيضاً. سيدهشك قيام رجل لامع مثله باستقبالك أنت بالذات، المجهول تماماً بالنسبة له حتى الآن، بكل هذا التقدير. فتلوم نفسك لأنك لم تأت إلى روما قبل عشرة سنوات. لكنك إذا صدقت هذا وجئت في اليوم التالي إلى ذلك البيت، ستقبع في الركن مهملاً، كشخص متطفل. وسيفكر المضيف الذي كان في الأمس يحثك على تكرار زيارته، طويلاً، من تكون، ومن أين جئت. ولنفرض بأنه اعتبرك صديقاً من جديد : فلو ترددت على زيارته يومياً لثلاث سنوات متتالية، ثم توقفت عن المجيء إليه لفترة زمنية مماثلة، لن يكترث بك أحد وبما حدث لك طوال ذلك الوقت، فيما لو ظهرت من جديد.

يقيم أحدهم في غير مرّة ولائم تمتد لساعات طويلة وتضر بالصحة، أو يوزع طروداً حاوية على هدايا. يفكر في البدء ملياً إن كان من اللائق دعوة غرباء ـ باستثناء الأشخاص الذين يعاملونه بالمثل بطبيعة الحال. وإذا ما ارتأى بعد تفكير ملي ضرورة القيام بذلك، فعلى من يقع اختياره؟ حشد المشجعين النائمين أمام منازل سائقي مركبات السيرك؛ المقامرون المحتالون المطلعون على أسرار لعبة النرد؛ المشعوذون الذين يدعون معرفة خفايا السحر. بينما يتحاشى المتعلمين والمتبصرين كأشياء عديمة النفع ومصدر التعاسة.

لن أطيل الحديث عن النهم على المائدة الوثنية.

أغنيسيا و قسطنطينا

شارك أميان مارسيلينوس الذي توقف في إيطاليا برفقة قائده، في احتفال تأبيني في صيف أو خريف عام ٣٥٤: فالبلاط بأسره، وجميع المسؤولين المدنيين والعسكريين، قدموا تحية الوداع الأخير لقسطنطينا، شقيقة القيصر وزوجة غالوس.

توفيت قسطنطينا في محطة صغيرة للبريد في بيتينيا، وهي في طريقها إلى إيطاليا، وليس في قصر زوجها في إنطاكية. سافرت إلى إيطاليا تحت تأثير إلحاح شقيقها في رسائله المتتالية- المبالغ في لطفها، والتي أكد فيها على تلهفه للقائها من جديد بعد ذلك الفراق الطويل؛ فمن الأخوة لم يبق سوى ثلاثة على قيد الحياة ! لكن قسطنطينا لن تستجب لطلبه على الفور. كانت تخشى شقيقها المتشكك الوحشي؛ كما شعرت بأنه لا بد وأن تحاسب على كل شيء قاما به هي وزوجها في الشرق. وفي نهاية المطاف رجحت كفة الأمل بعدم تعرضها للسوء من جانب شقيقها، وبإمكانية شرح وتبرير الكثير من الأمور، وردّ العديد من التهم، والتخفيف من حدة الغضب. فانطلقت على الطريق البرية عبر بلدان أسيا الصغرى. وعلى حدود مقاطعة بيتينيا، في محطة البريد المعروفة باسم سينوس غاليكافوس، أقعدتها بغتة موجة عنيفة من الحرارة. لم تكن قد تجاوزت الثلاثين وبضع سنوات وهي تموت. وبعد موتها لم يبق من

أبناء قسطنطين سوى قسطنطينوس وهيلينا؛ وكان هو آخر الذكور في الأسرة لا يزال دون وريث.

نُقل جثمان المتوفاة إلى إيطاليا، حيث سجي في ضريح فخم في ضواحي روما على طرق فيانومينتانا التي ذاع صيتها بفضل قبر القديسة أغنيسيا؛ حيث كانت تحظى بتكريم أوساط واسعة في العديد من بلدان الإمبراطورية، وخاصة في الغرب.

الاسم الحقيقي لهذه القديسة، وكذلك سنة وظروف موتها، غير معروفة. فأولى الإيماءات إليها تعود إلى أواخر القرن الرابع، وهي متسمة بطابع خرافي إلى حد ما. يحتمل أن يكون اسم أغنس Agnes مشتقاً من الصفة الإغريقية هاغني Hagne، أي الطاهرة، وهذا ما يدعو لافتراض تعمُّد اختيار هذا الاسم بهدف موت الفتاة عذراء دون أن تُمسَّ. ثم ربطت الرؤية الشعبية لأصل الألفاظ هذا الاسم بالكلمة اللاتينية أغنوس Agnus التي تعني الحَمَل. أكدت الأسطورة أن أغنيسيا انحدرت من أسرة رومانية ثرية، وترعرعت منذ نعومة أظفارها في أحضان وروح العقيدة الجديدة. ولمَّا بلغت الثالثة عشرة من العمر أحبها أحد المسؤولين وألحَّ في طلب يدها، لكنها رفضت بحزم، فاتهم المعجب الخائب أغنيسيا باعتناق المسيحية. يرجَّح أن يكون هذا قد تمَّ في سنة ٣٠٤، حيث عمَّت الاضطهادات الدموية أرجاء الإمبراطورية التي شرع بها بأمر من ديوقلتيانس. قُدِّمت الفتاة للمحاكمة، فلم تنكر معتقداتها، وبفخر واعتزاز رفضت كل إمكانيات النجاة التي حاول القضاة الإيحاء لها بها. حُكِم عليها بالموت؛ بجزِّ عنقها بالسيف وفق إحدى الروايات، وبالحرق على كدس من الأخشاب وفق رواية أخرى؛ ولدى الشروع بتنفيذ الحكم، عندما بدأ الجلاد بنزع ملابس الضحية. غطى شعرها الجسم حتى القدمين. أكدت التقاليد على أنها استشهدت في سيرك دوميتيان؛ واليوم نجد هناك ساحة تعدُّ من أجمل ساحات روما ــ هي بيازًا نافونا، حيث تنتصب كنيسة باروكية رائعة الجمال باسم القديسة أغنيسيا، شُيِّدت في القرن السابع عشر.

تحظى أغنيسيا التي مجدتها الكنيسة كرمز للعذراء الطاهرة، المحببة إلى قلب يسوع، المعتنقة الصادقة والجسورة للدين، بتكريم متزايد. وبعد وقت قصير انتصبت فوق قبرها على طريق فيا نومينتانا باسيليقا كانت واحدة من أوائل الباسيليقات في روما؛ ولم يكن مؤسسها سوى قسطنطينا. لم يصمد إلى أيامنا هذه شيء يذكر من المعبد بصورته الأولية، ففي القرون التالية (السابع، الخامس عشر، التاسع عشر) تمَّ تغير ملامحه جذرياً، وأخضع لعمليات الترميم والتوسيع..

لكن ما صمد حتى الآن إلى جوار الباسيليقا هو ضريح قسطنطينا الذي يعد من أجمل وأروع وأفضل ما حفظ من أوابد روما الأثرية العائدة للقرن الرابع.

إنه بناء قرميدي دائري الشكل ــ هكذا بنى أباطرة روما أضرحتهم عادة ــ تعلوه قبة، والقبة ذاتها لا ترتكز على الأسوار الخارجية للمبنى، وإنما على أربعة وعشرين عموداً على هيئة حلقة دائرية في داخله، كل اثنين معاً، أي اثنا عشرة زوجاً. يعتقد أن هذا النمط من تثبيت القبب استخدم هنا للمرة الأولى في تاريخ البناء في روما. في مواجهة المدخل تماماً يُرى في الفرجة ما بين الأعمدة ناووس بورفيري ضخم، تغشيه منحوتات ونقوش بارزة تمثل أغصان الكرمة وزراع أثناء قطاف العنب وعصره؛ تتكرر هذه الرموز في الأضرحة المسيحية القديمة، وتعود بجذورها إلى الأساطير والطقوس الديونيسيوسية الموغلة في القِدم، ديونيسوس هو إله بهجة الحياة وسر القيامة. الناووس الأصلي موجود حتى الآن في متحف الفاتيكان.

يحتل ضريح قسطنطينا مكانة هامة وراسخة في تاريخ الفن الأوروبي ليس بسبب فن العمارة فحسب، فالفسيفساء الملونة المحفوظة بشكل حسن على السقف ما بين الجدران الخارجية وحلقة الأعمدة، وفي المشاكي داخل الجدران، لا تقل أهمية عنه؛ ولكن للأسف لم تبق سوى آثار بسيطة من اللوحات الفسيفسائية عل القبة. يمكن للعين غير الخبيرة أيضاً أن تلاحظ أن مواضيع هذا الزخرف الفسيفسائي ــ نباتات، وفاكهة، وطيور، ودلافين،

وملائكة ــ لا تنسجم ووقار ضريح حاكمة مسيحية، بل تلائم قصراً أو معبداً وثنياً. فلا غرابة في أن هذا الضريح اعتبر حتى القرن الثامن عشر معبداً قديماً لباخوس! ولكن تجدر الإشارة إلى أن كل مشهد من مشاهد هذه الفسيفساء يسمح بتأويل رمزي منسجم مع روح المسيحية، ويمكن لكافة المشاهد مجتمعة أن تفسر كرؤية لملذات الجنة التي انتقلت إليها روح المتوفاة.

سرعان ما ربطت الأسطورة الشعبية ما بين الشهيدة الشابة والإمبراطورة اللتين كان قبراهما وكأنهما في معبدين متجاورين. وبدءاً من القرن الثالث عشر، بدأت قسطنطينا تكرَّم كقديسة عذراء.

مخاوف وآمال القيصر غالوس

كان نبأ موت الزوجة غير المتوقع بمثابة صدمة حقيقية بالنسبة لغالوس. فحتى ذلك الحين، كان واثقاً من إمكانية از الة كل ما يحدث من سوء تفاهم بينه وبين قسطنطينوس، بفضل وساطة شقيقة الحاكم قسطنطينا. وخاصة أنها لعبت دورها في جرائم البلاط الإنطاكي، ومن ثم في المحاكمات الصورية! أما الآن، فقد راوده شعور بالخوف، ما الذي سيحدث، فيما لو لم يقبل القيصر أية إيضاحات أو تبريرات ولم يغفر له الأخطاء التي ارتكبها؟ كان يشك، وليس دون مبرر، بأن قسطنطينوس حذر غاية الحذر من الأقرباء بشكل خاص. وفي أفكار غالوس استيقظت من جديد أحداث ما قبل عشرة وبضع من السنين، عندما كادت جريمة القتل أن تشمل كافة أفراد أسرته على ضفاف البوسفور، وبينهم والده وشقيقه الأكبر وذلك بمعرفة وموافقة قسطنطينوس بالذات حسب ما زُعِم.

ما هو المخرج وما هو أسلوب النجاة الذي فكر به غالوس في هذه الحالة؟ كانت القاعدة في غاية البساطة: الحذر من الكمين المحتمل في كل خطوة. فكر أيضاً ـــ هكذا قال البعض ـــ في إعلان نفسه أغسطساً. وإذا لم يفعل ذلك، فالسبب واحد فقط، إذ لم يكن بوسعه توقع ردَّ فعل المحيط الأقرب له على هذا الشيء. لأنه لم يكن يثق برجاله. أدرك أنهم ينظرون إليه كطاغية ورجل غير متزن يصعب الاعتماد عليه. ومن ناحية ثانية ساد اعتقاد تام ـــ

ربما كان غالوس نفسه مقتنعاً بذلك في أعماقه ــ بأن قسطنطينوس الذي لم يحرز أبداً نجاحات كبيرة في الصدامات مع العدو الخارجي، يتمتع بقسط وافر من الحظ فيما يخص النزاعات داخل الإمبراطورية، ويكون فيها منتصراً دوماً.

في هذه الأثناء استمر سيل رسائل قسطنطينوس من ميلانو بالتدفق، وهو يدعو فيها بإلحاح حضور غالوس إلى الغرب. تضمنت الرسائل كذلك بعض التعابير والإيماءات الغامضة، التي تبعث على البهجة من جهة، وتدعو للتأمل من جهة ثانية. كتب قسطنطينوس:

«لا يمكن ولا يجوز تقسيم الدولة، وعلى كل فرد أن يدعم قوتها وفق إمكانياته. فلنفكر مثلاً بمقاطعات غالة المدمرة!».

وفي مكان آخر أشار على نحو مشابه أيضاً إلى بعض الحقائق من الماضي القريب.

«في عهد ديوقلتيانس كان القياصرة مطيعين له وكأنهم سائقو مركبات. لم تكن لهم حتى مقرات إقامة دائمة، بل انتقلوا من مكان إلى آخر، حيث أمروا بالرحيل».

أيريد القيصر ــ فكر غالوس ــ نقله إلى مكان آخر، إلى غالة مثلاً؟ بدا الأمر محتملاً. لا بد وأن قسطنطينوس يرغب في العودة إلى إنطاكية ليقود من جديد المعارك ضد الفرس، كما فعل في الأعوام السابقة، ويريد إرسال قيصره (شريكه) إلى حدود الراين ويأمره بصد الجرمان. فلن يكون هذا الحل الأسوأ.

في هذه الأثناء جاء إلى البلاط الإنطاكي مبعوث جديد للقيصر. وهو سكوديلون، أحد كبار ضباط التشكيل المعروف باسم «Scutaria» أي حاملي التروس؛ المنحدر من أصول ألمانية. وقد اتهمه البعض أثناء الحملة الأخيرة على الراين بالخيانة لصالح بني جلدته، الشيء الذي لم ينتقص إطلاقاً من الثقة التي أولاه إيَّاها قسطنطينوس. تحت مظاهر الانفتاح والخشونة، والجلافة إن صحَّ القول، أخفى سكوديلون الكثير من الدهاء والاستبداد. وهو من نجح في

إقناع غالوس بضرورة تلبية طلب الإمبراطور. أنجز هذا الشيء بتأكيده مراراً على أن الحاكم متلهف لرؤيته، وأنه سيعفو عن كل ما نجم عن التهور، لأنه رجل ذو خبرة ومراس في شؤون السياسة، ويعرف بأن كل مَنْ يمارس الحكم لا بد وأن يرتكب بعض الأخطاء. وبثقة مطلقة، وكأنه يبوح بواحد من أهم أسرار الدولة، همس في أذن غالوس وأخبره بأن الإمبراطور قسطنطينوس قد اتخذ قراراً بتعيين غالوس شريكاً له في هيبته، أي قرر منحه لقب أغسطس، وتكليفه بمسؤولية الحفاظ على المقاطعات الشمالية المهددة.

ـ الحقيقة أن المناخ هناك أقسى بعض الشيء ـ أضاف مبتسماً ـ لكن العيش ممكن!

في أواخر صيف سنة ٣٥٤ غادر غالوس إنطاكية، وكان متفائلاً.

رحلة غالوس

كان مطمئن البال إلى الحد الذي سمح معه لنفسه بنيل قسط من الراحة وباللهو بعض الشيء بعد المجيء إلى القسطنطينية. أقام سباقاً للمركبات وكافأ الفائز بنفسه.

أغاظ نبأ المباريات قسطنطينوس إلى أقصى الحدود. توقع أن يمثل بين يديه خاطئ نادم يرتعد خوفاً على مصيره، وها هو يتلقى نبأ لهو حاكم واثق من قضيته وموقعه! راودت ذهن الحاكم شكوك بأن غالوس يتصرف على هذا النحو لأنه يعتمد على شيء ما أعدَّ له بنفسه. ومن قبيل الحيطة والحذر أمر بأن تبعد على الفور الوحدات العسكرية المتمركزة في المدن والمعسكرات من المقاطعات التي كان لغالوس أن يمر عبرها وهو في طريقه إلى إيطاليا، لئلا تنضم إليه فيما لو كان يخطط للقيام بعمل ما. وفي الوقت ذاته أرسل عدداً من الموظفين إلى القسطنطينية مثلوا بين يدي غالوس بزعم خدمته بآرائهم، أما في واقع الأمر فكان عليهم مراقبة كافة تحركاته. كان بينهم ليونسيوس والي روما فيما بعد، والذي كان آنذاك يقوم بمهام وزير المالية؛ ولوسيليانوس قائد الحرس الشخصي للإمبراطور؛ و بوينوباوديس تريبيون تشكيلة حاملي التروس، الجرماني الأصل. وفي ذلك الوقت بالذات كان هناك موظف رفيع المستوى في طريقه إلى أرمينيا بأمر من الإمبراطور، ولدى مروره

بالقسطنطينية لم يكلف نفسه عناء طلب مقابلة غالوس في بلاطه؛ كان يعرف جيداً أن الحكم بالموت قد صدر بحقه.

بعد أن ودع عاصمة البوسفور توقف غالوس لمدة اثني عشر يوماً في هادريانوبول، وهي المدينة الواقعة اليوم على الحدود التركية اليونانية البلغارية. كانت المعسكرات الشتوية للفيالق الطيبية منتشرة في المدن الصغيرة؛ وقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأن منطقة تجنيدهم كانت واقعة في مصر العليا، في منطقة طيبة القديمة والذائعة الصيت. أرسل جنود تلك الفيالق وفداً إلى غالوس؛ كان للوفد أن يتوسل ويقنع القيصر الشاب لكي يثق بكلامه ويتوقف هناك، وألا يتابع سفره. لكن القيصر كان خاضعاً لرقابة مشددة منعته من الحديث شخصياً مع الجنود؛ كما يحتمل أن يكون قد خشي أن يكون الأمر مجرد مصيدة أعدها له عملاء الإمبراطور.

لم يتوقف قسطنطينوس عن إرسال الرسائل المطالبة بحث الخطى. ألح رجاله على غالوس وطالبوه باستخدام البريد الحكومي. وافق على ذلك، لكنه اضطر لترك معظم أفراد حاشيته، ولم يحتفظ سوى بعشر وبضعة من عناصر الخدمة الشخصية. طالبه عملاء الإمبراطور بإلحاح بعدم التأخر ولو للحظة واحدة، فأدرك أخيراً ما يعنيه الأمر، وراح يلعن سذاجته وهو يبكي ويتذمر بأعلى صوته:

ـ الآن يحتقرني الجميع، ويصدر لي الأوامر أي كان!

تحولت أحلامه أيضاً إلى كوابيس؛ بات يشكو من أنه يرى خيالات أولئك الذين حكم عليهم بالموت.

كانت الطريق تمر عبر فيليبوبوليس أي عبر بلوفديف الحالية في بلغاريا؛ وسرديكا ـ صوفيا؛ ونايسوس ـ نيش في يوغسلافيا، ومن ثم على امتداد مجرى نهري الدانوب ودرافا. تقدموا بسرعة وهم يقومون بتبديل الجياد في محطات البريد. وفي نهاية المطاف يصل الموكب إلى مدينة بويتوفو المعروفة اليوم باسم بتوي Ptuy

آخر أيام غالوس

ظهر في بويتوفو بغتة رسولان جديدان أرسلهما الإمبراطور، وكانا رجلين مرموقين : بارباتيون، القائد الأسبق لحرس غالوس الشخصي؛ وأبوديميوس، موظف الشرطة السياسية للقضايا ذات الأهمية الاستثنائية. جاءا معهما بجنود تم اختيارهم بعناية فائقة، وأغدقت عليهم الهبات؛ الشيء الذي عزز ثقة السلطات بعدم إمكانية إغراء امثالهم بالمال، وأنهم لن يعرفوا معنى الرحمة أبداً. شكلوا حلقة محكمة حول القصر الذي أقام فيه غالوس، وخاصة في الأماكن المفتوحة، لأن المبنى كان واقعاً خارج أسوار المدينة. ومع الغسق دخل بارباتيون مخدع غالوس، وطلب إليه خلع الثوب الإمبراطوري وارتداء ثوب عادي. لكنه التزم حتى تلك اللحظة بأمانة بالتعليمات التي تلقاها، وأقسم ثانية بأنه لن يتعرض لسوء، أنهى كلامه بإصدار أمر صارم:

ـــ انهض على الفور!

على الرغم من هبوط الظلام وضع حاكم بلدان الشرق الشاسعة الأسبق في مركبة انطلقت في الحال. بينما التقط أبوديميوس حذاء غالوس الأرجواني، وامتطى صهوة جواده، ثم انطلق على عجل. غالباً ما قام بتبديل جياده في محطات البريد ـــ فبعضها نفق في الطريق بسبب سرعة العدو و الإرهاق ـــ ودخل ميلانو كأول حامل للبشرى السارة: سقط غالوس! بدأ أفراد الحاشية والمداهنون على الفور بالإشادة بحظ قسطنطينوس. فها هو الحظ السعيد يتيح

له خلال فترة وجيزة التخلص من اثنين من المطالبين بالعرش دون إراقة دماء: العجوز فيترانيون أولاً، ومن ثم الفتى غالوس. صدَّق قسطنطينوس هذه الكلمات عن محالفة الحظ له والعناية التي تحميه من المخاطر، واعتقد بأن أي تغيير لن يشكل خطراً عليه. ومنذ تلك اللحظة، وكلَّما أملى رسالة، ضمَّنها العبارة التالية متحدثاً عن نفسه: Aternitas mea التي تعني أزليتنا، كما أضاف العبارة التالية كلَّما وقَّع وثيقة بيده: «سيِّد العالم أجمع».

تم نقل غالوس إلى جزيرة صغيرة قرب مدينة بولا ـــ احتفظت باسمها حتى اليوم ـــ لا تبعد كثيراً عن شاطئ شبه جزيرة إستريا، وهناك سجن تحت حراسة مشددة. لا ريب في أن هذا المكان أثار لديه أسوأ الأحاسيس والأفكار، فهناك بالذات قُتِل قبل ما يقارب الثلاثين عاماً كريسبوس ـــ الابن البكر لقسطنطين الكبير ـــ وذلك بناءً على أمر صادر عن أبيه!

بعد وقت قصير جاء ثلاثة مفوضين عن القيصر هم: يوسيبيوس القائم على المخدع المقدس، وبينتاديوس الكاتب، ومالوبادوس التريبيون في الحرس. كان عليهم أن يحصلوا من غالوس على معلومات عن دوافعه لدى إصدار أحكام الإعدام بحق ضحاياه. أما هو فقد اصفرَّ وجهه من فرط الخوف، ولم يقل سوى أنه أصدر أحكام الإعدام تلبية لرغبة قسطنطينا.

عندما تلقى الإمبراطور قسطنطينوس نبأ هذه المحاولة الجبانة للتنصل من المسؤولية غضب أشدَّ الغضب، واعتبر هذه الكلمات إهانة لشقيقته المتوفاة قبل وقت قصير. تلقى التريبيون سيرنيان، والكاتب بنتاديوس، والعميل أبودينيوس الأمر بتنفيذ الحكم. فربطت يدا غالوس، وجزَّ عنقه كمجرم عادي. سرت شائعات بأن الإمبراطور شعر بالندم بعد موجة الغضب الأولى، وألغى الأمر الذي أصدره؛ لكن يوسيبيوس صاحب النفوذ الواسع أوصى الرسول بعدم الإسراع إلى بولا.

ولمَّا فارق غالوس الحياة في أواخر سنة ٣٥٤ لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره.

حياة أورسيسين في خطر

كان نبأ موت غالوس إشارة تأذن باضطهاد جميع أنصاره ومأموريه. آنذاك تمَّ رفع شكوى علنية ورسمية ضد أورسيسين. فكما أشرنا من قبل كان قد استوقف منذ بضعة أشهر في بلاط ميلانو باللجوء إلى مختلف الحيل. وتمَّ آنذاك توجيه تهمة إهانة جلال الإمبراطور إليه، وهي واحدة من أكبر الجرائم السياسية. وفي الوقت ذاته استمر أفراد الحاشية في محاولات إقناع قسطنطينوس بأن أورسيسين رجل خطر فعلاً ، مشيرين إلى أنه يحظى في المقاطعات الشرقية بشعبية واسعة، ولا يتحدث الناس عن سواه. يتلهف الجميع لعودته ويمجدونه كقائد عظيم قادر على سحق الفرس، بينما طوى النسيان إنجازات الإمبراطور نفسه.

اتخذت قضية أورسيسين منحى سيئاً لسبب آخر أيضاً، فهو من ترأس في إنطاكية المحكمة التي أصدرت أحكام الإعدام على المشـــاركين المزعومين في مؤامرة دوميتيان ومونسيوس؛ وبما أنهما قتلا ظلماً كما اتضح، فلا مجال للحديث عن أية مؤامرة، وكانت المحاكمة خيالية، والأحكام التي نجمت عنها بلا أساس قانوني.

على الرغم من تعقيد الأوضاع إلى هذا الحد حافظ القائد العجوز على هدوئه التام. هذا ما يؤكده أحد ضباطه ـــ أميان مارسيلينوس الذي رافقه بأمانة وإخلاص في تلك اللحظات الكئيبة. بقي شخص واحد على الوفاء والإخلاص ظاهرياً، وهو أربيتيون قائد الفرسان في الغرب. عبَّر هذا الرجل على نحو استعراضي عن تعاطفه الشديد مع المتهم، ونعته بالرجل الحقيقي والصديق. ثم أشيع بأن أربيتيون يخوض غمار لعبة مزدوجة بدافع من الغيرة. فهو على ما قيل كان في الاجتماعات السرية ينصح الإمبراطور بالتخلص من أورسيسين بسرعة ودون إحداث ضجة: يجب اختطافه ليلاً وقتله، وعدم انتظار محاكمة عادية. وقيل أن قسطنطينوس بدأ يميل إلى هذه الفكرة، لا بل حدد موعداً لتنفيذها، لكنه في اللحظة الأخيرة غيَّر رأيه، وقرر تأجيل الموضوع ولو إلى حين.

اتهامات بسبب الأحلام

في تلك الأثناء سيقت إلى أكويليا ــ وليس إلى ميلانو مباشرة ــ من المقاطعات الشرقية، جحافل جنود وأفراد حاشية غالوس السابقين، مقيدين بأصفاد ثقيلة، وانتظروا الموت بفارغ الصبر كخلاص حقيقي. اتّهموا بالمشاركة في قتل دوميتيان ومونسيوس. توجه اثنان من كبار المسؤولين هما أربيتيون ويوسيبيوس إلى أكويليا ليطبقا العدالة بنفسيهما. لكنهما لم يربكا نفسيهما بتحقيقات دقيقة ولم يطيلا البحث عن المذنبين الحقيقيين والأبرياء. فكل مَنْ حوكم من قبلهما تعرض لعقوبة ما. نُفي البعض بعد الجلد والتعذيب. وجرِّد البعض الآخر من الرتب العسكرية وتحولوا إلى جنود بسطاء، ليباشروا الخدمة في مختلف المعسكرات. بينما دفع آخرون حياتهم ثمناً لجرائم حقيقية أو مزعومة. كان لهذه الفروقات في الأحكام الصادرة أن تشهد للقضاة قيامهم بواجباتهم بجدية؛ أما في واقع الأمر، فقد صدرت الأحكام بصورة اعتباطية.

وكما حدث بعد سقوط مغنيسيوس، ظهرت آنذاك أيضاً موجة جديدة من المخبرين. عزز هؤلاء الناس مواقعهم وحصلوا على ثروات طائلة بالانقضاض كالوحوش المفترسة على كل ضحية؛ وبشكل خاص على الشخصيات الفذة، الشيء الذي كان يعد بمكاسب أكبر، لكنهم لم يزدروا

بالعامة أيضاً. وبين جموع المخبرين من مختلف الأصناف تميز بشكل خاص الكاتب بولس وموظف الحسابات الأسبق ميركوريوس. ذاع صيت الأول في بريتانيا من قبل، واستحق لقب «السلسال» Catena ــ حيث حاك خفية المؤامرات ولفق التهم المحكمة للأشخاص المعنيين. بينما لقِّب ميركوريوس بـ«وزير الأحلام». فقد تخصص في استراق السمع للأحاديث عن الأحلام ــ ومَنْ لم يؤمن آنذاك بالأحلام، ومن لم يتكلم عنها بحثاً وطلباً لتفسير المعاني والرموز. ومن ثم تحوير أجزاء الحديث وعرضها على الإمبراطور مرفقة بتأويلاته الخاصة. وقد دفع غير واحد ثمناً باهظاً لما تضمنته أحلامه من كوابيس، وآمال، وأحلام، ولذلك تفكهوا في القصر:

ــ لن يطول الوقت حتى يرفض أي كان الاعتراف بأنه ينام أصلاً!

هكذا سارت الأمور في ميلانو. فما هو المنحى الذي اتخذته أحوال يوليان؟ كيف تقبل مصير أخيه المأساوي؟ هل أدان غالوس أم حاول تبريره؟ وما الذي خشيه؟ يمكنه الإجابة على هذه التساؤلات بنفسه.

يوليان عن أخيه

تجلَّت في طبع أخي فعلاً بعض سمات الجلافة والفجاجة؛ لكنَّ هذه السمات تعمقت أكثر بسبب إقامتنا في ماكيلوم، في الجبال. وباعتقادي، تقع مسؤولية ذلك على الرجل الذي أرغمنا على أن نترعرع في تلك الظروف. استخدم الآلهة الفلسفة وبفضلها أنقذوني من المؤثرات السلبية لذلك المحيط. لكن أحداً لم يمد يد العون لأخي. ولمَّا أتيحت له الفرصة في نهاية المطاف لمغادرة الريف والإقامة في القصر، ألبسه قسطنطينوس على الفور المعطف الأرجواني ـ لكنه بدأ منذ اللحظة الأولى ينظر إليه بعين الغيرة والشك؛ وهكذا ظل يتصرف حتى قضى عليه. لم يكتف بانتزاع الأرجوان منه! فإذا كان الإمبراطور قد توصل إلى قناعة راسخة بأن أخي غير جدير بممارسة السلطة، وجب عليه على أقل تقدير أن يرى بأنه يستحق الاستمرار في العيش! وإذا افترضنا ـ قد يفترض أحدهم شيئاً من هذا القبيل ـ أنه استحق الموت، فإنني قد لا أعترض على هذا الشيء أيضاً، ولكن بشرط واحد: منح أخي ذلك الحق الذي يستحقه كل فرد، بما في ذلك المجرم العادي، ألا وهو الحق في الدفاع عن النفس. فالقوانين تحظر قتل قطاع الطرق الذين يلقى عليهم القبض قبل تقديمهم للمحاكمة. أيجوز أن نتصرف هكذا مع الأفراد الذين عزِلوا من مناصب رسمية وتحولوا إلى أشخاص عاديين؟

تجدر الإشارة إلى أن أخي ربما أشار إلى المسببين الحقيقيين لأخطائه فيما لو أتيحت له فرصة الدفاع عن نفسه! فمن الحقائق الدامغة أن أخي تسلم في حينه في إنطاكية رسائل من بعض الأشخاص تضمنت تهماً عنيفة ضده. وبعد أن اطلع عليها فقد السيطرة على نفسه فعلاً، وأطلق العنان بيسر لغضبه. لا ريب في أنه ليس من اللائق بأن يتصرف الحاكم على هذا النحو. لكنه لم يفعل شيئاً يستدعي حرمانه من الحق في الحياة. فهناك قاعدة عامة تنطبق على جميع الشعوب، الإغريق والبرابرة على حد السواء، تقر بحق كل مَنْ يتعرض للهجوم الدفاع عن نفسه. ربما كان دفاع أخي عن نفسه على قدر مبالغ به من العنف، لكن ما تعرض له من الضيق يبرر له ذلك. فلِما سمح الإمبراطور بقتله ؟ لسبب بسيط، لرغبته في إرضاء خصيِّه المسؤول عن مخدعه المقدس، والرقيب على مطبخه. لهذا السبب قتل غالوس — زوج شقيقته ووالد ابنتها؛ وشقيق زوجته الأولى!

يوليان وأسقف طروادة

من المرجح أن يكون يوليان قد تلقى أمر المثول بين يدي الإمبراطور وهو في نيقوميديا. وقد حدث هذا في أواخر خريف سنة ٣٥٤، حيث اختطفت موجة العنف التي أثارها موت غالوس أعداداً متزايدة من الضحايا. وفي تلك الحالة تطلب الموقف السليم التواجد في ميلانو بأسرع ما يمكن. وعلى أي حال حاول الشاب الذي أرغم على من جديد على ترك دراسته وكتبه المحببة إلى قلبه أن يطيل أمد رحلته. فإما أنه لم يكن على دراية كافية بأهمية اللحظة التي يعيشها، أو أنه فضّل عن وعي عدم التفكير بخطورة الأحداث السياسية الجارية.

أبحر أولاً عبر بحر مرمرة ومضيق البوسفور. ثم عرج المركب على المرفأ الصغير في ألكسندريا تراوس Alexandria Troas على شواطئ بحر إيجة، قبالة جزيرة تينيدوس؛ ومن هناك كان لهم أن يتجهوا نحو اليونان. لكن ألكسندريا تراوس كانت قريبة من طروادة الذائعة الصيت، الواقعة في عمق البر قليلاً. فقرر يوليان اغتنام الفرصة ورؤية المكان الذي خلده الشاعر الإلهي بأم عينيه: المدينة التي دافع عنها هيكتور ببسالة بطولية، والتي احتلها الإغريق، الأشجع بين الشجعان: أخيل، وإياس، وأوديسيوس.

غادر المرفأ في الصباح الباكر، فوصل طروادة ظهراً. وهناك استقبله أسقف المدينة بيغاسيوس. كان الأسقف ككاهن مسيحي شخصية متميزة، الأمر الذي أدى إلى ترك زيارة الآثار بصمات عميقة في ذهن يوليان. فبعد ما يقارب العشر سنوات كتب في رسالة لأحد أصدقائه:

«يوجد هناك مكان يُكرَّم فيه هيكتور كبطل؛ ففي كنيسة صغيرة ينتصب تمثاله البرونزي، وفي الخارج، في العراء، نصب تمثال ضخم لأخيلس. إذا رأيت هذا المكان، أظنك تعرف، عمَّا أتكلم. أما قصة احتلال أخيلس لكل الفسحة تحت قبة السماء، فيمكنك سماعها من الدليل. وبما أنني وجدت المذابح وهي لا تزال ساخنة بعد، وتمثال هيكتور ممسوح بالزيت بغزارة، التفتُّ إلى بيغاسيوس، وسألته محاولاً استشفاف قناعاته:

ــ ما الذي يعنيه هذا؟ أيقدم الإيليونيون الضحايا بعد؟

فأجاب:

ــ وما الغرابة في ذلك، في أن يجلّوا الرجل الشجاع والمواطن الصالح، كما نجلُّ نحن الشهداء؟

لا يعبر هذا التمثال عن ذوق فني رفيع، لكن نوايا الفنان لدى تقييمه على خلفية تلك الأيام، لا تخلو من الفكاهة.

لا بدَّ وأنك ستتساءل عمَّا حدث فيما بعد.

ــ لنذهب إلى الحلقة المقدسة لأثينا الإليونية! ــ قلت. أما هو، وبلهفة بالغة، فقد أطلعني بالتفصيل على أن التماثيل كلها لم تُمَسّْ. وعلاوة على ذلك، فهو لم يفعل شيئاً مما يفعله عادة هؤلاء الناس العديمو الاحترام للآلهة، أي لم يرسم شارة الصليب على جبينه، ولم يصفّر مثلهم؛ فشيئان عندهما يشكلان ذروة المعرفة عن الألوهية ــ التصفير في حضرة العفاريت ورسم شارة الصليب.

رافقني بيغاسيوس ذاك نفسه إلى مكان تكريم أخيلس وأطلعني على قبره المحفوظ أيضاً بعناية. وكنت متيقناً في قرارة نفسي بأنه قد بعثره؛ لكنه اقترب منه باحترام فائق».

أشـــــهر الرعـــب

وطئ الأمير الشاب أخيراً أرض إيطاليا. كانت في انتظاره هناك مخاطر جسيمة: تهمة موجهة إليه ليس بشكل رسمي بعد، لكنها على قدر كبير من الأهمية في مضمونها. قيل أنه قبل بضعة أعوام غادر ماكيلوم على نحو اعتباطي، ودون إذن رسمي من الإمبراطور؛ كما قيل أنه التقى بأخيه لأهداف تآمرية عندما مرَّ الأخير بالقسطنطينية. أنكر يوليان هذه الافتراءات آنذاك، وفيما بعد أيضاً، بحزم. وكتب بعد أعوام من ذلك الحين قائلاً:

«تحت حراسة مشددة جرجرني قسطنطينوس من مكان لآخر لمدة سبعة أشهر.... أقسم بهيراقليس أنني لم أر أخي حتى في الحلم! لم أسكن معه، لم أقم بزيارته، ونادراً ما كتبت له ــ وكان هذا بخصوص أمور تافهة!».

أما معلم يوليان وصديقه ــ أستاذ البلاغة ليبانيوس، فيعرض هذا الحدث العرضي من حياته على النحو التالي:

«... وبعد وقت قصير تمَّ تذكر يوليان أيضاً. تحلَّق حوله الحراس المسلحون الذين رمقوه بنظرات رهيبة وخاطبوه بحدة. وبالمقارنة مع ما فعلوه، كان للسجن أن يبدو شيئاً مريحاً تماماً. وعلاوة على ذلك، لم يسمحوا له بالبقاء طويلاً في مكان واحد، فنقلوه من مكان إلى آخر، وهذا بحد ذاته

سبب له الألم. أرغِم على تحمل كل ذلك، على الرغم من عدم توجيه أية تهمة إليه أياً كان مضمونها. وكيف كان لهم أن يتهموه؟ فقد فصله عن أخيه ما يزيد عن ثلاثمئة محطة بريد! أجل، بعث إليه ببعض الرسائل، ولكن نادراً ما فعل ذلك، ولم تتضمن الرسائل أكثر من مجرد السلام. ولذلك لم يكن بحقه حتى مجرد شكوى. وعلى الرغم من ذلك عذّبه هؤلاء الذين تمكنوا ــ لمجرد أن الاثنين كان لهما الأب ذاته!

لكن هذه الأوضاع السيئة بالذات تسمح لنا بإظهار الإعجاب بيوليان. فهو لم يتضع أمام القاتل، ولم يلق خطباً تدين الضحية، لكنه من ناحية ثانية لم يرغب في مضايقة مسبب آلامه، ولم يدافع عن أخيه. عبَّر بحزنه الصامت عن إجلال أخيه، بينما عجز الإمبراطور المتلهف لقتله عن إيجاد الذريعة لتنفيذ رغبته».

كان الأمر الأكثر إحراجاً في القضية برمتها هو عدم تمكن يوليان من مقابلة الإمبراطور، وهذا ما تحدث عنه على النحو التالي:

«أصبح الخصيُّ، عدو الآلهة، القيِّم على المخدع المقدس، ولي نعمتي رغماً عن إرادته، لأنه حال بضع مرات دون حصولي على إذن بمقابلة الإمبراطور. ومن المرجح أن قسطنطينوس بدوره لم يكن متلهفاً للقائي؛ لكن الخصيَّ كان المذنب الرئيس. كان يخشى حدوث تقارب ما بيني وبين الإمبراطور قد يتحول إلى صداقة؛ ولو تبين بأنني جدير بالثقة، فربما أوكل إلي منصباً ما على قدر كبير من الأهمية».

مجمع كنسي في ميلانو

لا بد وأن الإمبراطور برر لنفسه رفضه مقابلة يوليان بالانشغال بشؤون الدولة ذات الأهمية القصوى التي استحوذت على كامل اهتمامه منذ مطلع عام ٣٥٥. ومن أهمها المحاكمات المتعلقة بسقوط غالوس، والقضايا الكنسية الشديدة التعقيد. فتحت تأثير إلحاح ليبيريوس أسقف روما، وافق قسطنطينوس على الدعوة لانعقاد مجمع كنسي جديد لا يقتصر على بحث الأمور الشخصية فحسب ــ الشيء الذي اقتصرت عليه أعمال مجمع أريلات السابق ــ بل يقوم باعتماد قانون الإيمان أيضاً.

اجتمع الأساقفة في ميلانو في الأشهر الأولى من عام ٣٥٥. كان عددهم كبيراً، إذ تجاوز الثلاثمئة، لكن الغالبية الساحقة بينهم كانت من المناطق الغربية؛ ولم يشارك في أعمال المجمع سوى نفر قليل من أساقفة المقاطعات الشرقية. كما بعث ليبيريوس بممثليه.

حدث صدام عنيف منذ اليوم العاشر لافتتاح أعمال المجمع. طالب يوسيبيوس، أسقف فيرسيلي Vercelle ــ جاء بعد شيء من التأخير، وبعد إلحاح العديد من الأطراف، لأنه توقع سلفاً تطور سير الأحداث ــ بأن يذيل جميع الأساقفة المشاركين نصَّ قانون الإيمان النيقي بتواقيعهم. أيده

ديونيسيوس، أسقف ميلانو. كان قد تناول القلم والورق عندما انقضَّ عليه فالنس، أسقف مورسا، الأريوسي المتحمس وانتزعها من يده، وهو يهتف بأعلى صوته بأن هذا تصرف غير لائق. آزر جمهور سكان ميلانو المحتشد في المصلَّى ـ اجتمع الأساقفة في الهيكل ـ راعيه. بات تفجر أحداث الشغب وشيكاً فانتقل المجتمعون إلى القصر الإمبراطوري. ومنذ تلك اللحظة شارك قسطنطينوس في الاجتماعات بشكل مباشر وهو يصغي للنقاش من خلف حجاب. كانت طلباته واضحة وحازمة : طالب الأساقفة قبل كل شيء بإدانة أثناسيوس وقبول الجماعة الآريوسية في أحضان الكنيسة. عارض عدد من الأساقفة هذا الشيء، ومنهم يوسيبيوس، ديونيسيوس، باولين التريري، ولوسفير السرديني. فكان جواب الإمبراطور صريحاً ودون مقدمات:

ـ «مشيئتي قانون كنسي. أساقفة سوريا موافقون على ما أقول. فإما أن تطيعوا، وإما النفي!».

وقَّع جميع الأساقفة الحضور ـ باستثناء الأربعة المذكورين وممثلي ليبيريوس ـ إدانة أثناسيوس. عُزل المعارضون على الفور وتمَّ نفيهم إلى المقاطعات الشرقية البعيدة. كما طولب بتواقيع الأساقفة الذين تغيبوا لأي سبب من الأسباب. مرَّ مبعوثو الإمبراطور برفقة رجال أورساسيوس وفالنس بكافة العواصم الأسقفية وعرضوا الوثائق الملائمة على رؤسائها لتوقيعها. كما مارس ولاة المقاطعات من جانبهم بعض الضغوط، وكذلك بعض الشخصيات المتنفذة التي تلقت رسائل بهذا الخصوص من كاتب مستشارية الإمبراطور.

حاول ليبيريوس الاعتراض. تعاطف مع المضطهدين وآزرهم علناً. ولذلك بعث الإمبراطور إلى روما برجل الثقة لديه، يوسيبيوس، القيِّم على المخدع المقدس. لم يحمل معه رسائل الإمبراطور وتحذيراته الشخصية فحسب، بل أرفقها بتقدمات ثمينة وضعها أمام قبر القديس بطرس. لكن ليبيريوس لم يوافق على أية تنازلات. ورفض بشكل قاطع توقيع الوثيقة التي أدانت أثناسيوس. والأهم من ذلك : اعتبر وضع التقدمات أمام ضريح بطرس

بمثابة تدنيس للكنيسة! أمر بإزالتها على الفور، ومعاقبة حارس الكنيسة الذي سمح ليوسيبيوس بالدخول.

عاد القيِّم على المخدع المقدس إلى ميلانو وقد استشاط غيظاً وكراهية.

يوسيبيا الجميلة البارَّة

في أواخر ربيع عام ٣٥٥ حدث تغير نحو الأفضل في مصير يوليان. وهذا ما يقوله بنفسه:

«خلال سبعة أشهر كاملة جرجرني قسطنطينوس من مكان إلى آخر تحت حراسة مشددة. ثم أصدر الأمر بإخلاء سبيلي وهو غير راغب في ذلك. وما كان لي أن أُفلت من يديه لولا رأفة أحد الآلهة، فهي التي جعلتني أحظى بتعاطف الإمبراطورة الجميلة والبارَّة يوسيبيا».

لا نعرف سبب تعاطف زوجة قسطنطينوس مع يوليان الشاب. يجب بطبيعة الحال أن نلغي كل الدوافع الرومانسية، لأن الإمبراطورة التي عاشت حياة عزلة، كانت على الأرجح تجهل مظهر يوليان؛ والشيء الوحيد الذي أمكنها أن تعرفه عنه كان من خلال أحاديث الأشخاص القائمين على خدمتها. وربما لعبت دوراً ما العلاقة القائمة بين يوليان وأيتيوس، حيث زار صديقه المقرب، الأسقف ثيوفيل، بلاط ميلانو، وعالج يوسيبيا على ما يقال. ومن المرجح أن تكون الإمبراطورة قد تعاطفت مع الرجل الشاب لسبب بسيط هو تآمر القيِّم على المخدع المقدس، يوسيبيوس، عليه؛ فبما أن الأخير تلهف للقضاء على يوليان، أرادت الإمبراطورة إثبات مدى نفوذها، وإحاطة الرجل

الذي كان محطَّ كراهيته برعايتها. وما توجب على يوليان كان تقديم الشكر للآلهة، لأن نفوذ حاميته في لعبة القصر الخطيرة تلك، كان أقوى.

كان ليوسيبيا فعلاً تأثير هائل ومخلِّص على زوجها. تتفق المصادر المعاصرة على أنها كانت فائقة الجمال، لطيفة، ومتعاطفة مع الناس؛ ومنذ أن قدمت قبل عامين في خريف ٣٥٣ من تسالونيكي إلى ميلانو في موكب العرس الرائع برفقة والدتها، لم تدخر جهداً في فعل الخير.

تمكن يوليان أخيراً من الحصول على موعد لمقابلة القيصر. تكوَّن لديه انطباع بأنه أثناء الحديث تمكن من تبرئة نفسه من كافة التهم الموجهة إليه. كان بطبيعة الحال يقنع الحاكم الذي بات مقتنعاً آنذاك ــ بفضل جهود زوجته. والأهم من ذلك، أن الأمير حصل على الموافقة بالعودة إلى الممتلكات التي ورثها عن والدته، أي إلى منطقة نيقوميديا. وها هو ما يقوله بهذا الصدد:

«لدى الهرب من هناك، من ميلانو، تابعت الرحيل ببهجة إلى ممتلكات والدتي. إذ لم يُترك لي شيء من إرث أبي. فمن الثروة الهائلة التي كان يتصرف بها، لم أحصل على حفنة واحدة من التراب، أو عبد واحد، أو حتى مجرد مسكن. فقسطنطينوس الرائع استولى لنفسه على كامل استحقاقي من الإرث. وعلى أي حال، لم يمنح أخي أيضاً من إرث الأب إلا النذر اليسير، وفي المقابل حرمه من كل ما ورثه عن والدته».

تمت مصادرة الممتلكات هذه منذ سنة ٣٣٧ عندما قتل جنود الحرس الإمبراطوري المتمردون مع آخرين يوليوس قسطنطينوس، والد الأخين. وعلى الرغم من انقضاء ثمانية عشر عاماً على تلك الأحداث، فإن أصداءها ونتائجها كانت لا تزال حيَّة. وكان لا يزال الغموض يكتنف الدور الذي لعبه قسطنطينوس آنذاك. فكم من مرَّة طُرحت التساؤلات في السر:

إذا لم يكن هو من أصدر الأمر بتنفيذ جريمة القتل، فلِما استولى على ممتلكات الضحايا؟

على الرغم من كلمات يوليان المشار إليها قبل قليل: «لدى الهرب من هناك، من ميلانو...»، لم يذهب مباشرة إلى نيقوميديا، وإنما توقف لفترة من الزمن في شمال إيطاليا. ربما كان بانتظار إنهاء بعض الجوانب الشكلية. كان على ضفاف بحيرة كومو الشهيرة والجميلة، عندما فاجأه نبأ غير عادي أبهجه إلى أقصى الحدود. زُعِم أن الإمبراطور، وبتأثير من زوجته غيَّر قراره الأول، وأمره بالتوجه ليس إلى آسيا، وإنما إلى أثينا، للتعمق هناك في دراسته.

«كانت يوسيبيا تعرف كم يفرحني العلم، وتدرك جيداً مدى ملاءمة تلك البلاد للاهتمامات الجادة. صلَّيت آنذاك للآلهة لكي تمنحها، وتمنح الإمبراطور قبل كل شيء التوفيق ـــ كمكافأة على سماحه لي برؤية الوطن الحقيقي الذي تُقتُ له بمحبة دوماً. فنحن سكان تراقيا وأيونيا ننحدر من أصول يونانية. ولذلك فإن الذين ليسوا سذجاً تماماً بيننا، يتوقون لإجلال أسلافهم وتقبيل تراب أرضهم. كنت أشتهي هذا منذ زمن بعيد، أكثر من جبال الذهب والفضة».

لكن تبديل القرار فيما يخص مصير يوليان اللاحق لم ينجم عن تنازل الإمبراطور أمام إلحاح زوجته فحسب، بل كانت هناك أسباب سياسية هامة. فضَّل قسطنطينوس ألا يقيم قريبه الشاب ـــ الممثل الذكر الوحيد للأسرة الحاكمة إلى جانبه ـــ في مدينة كبيرة، وإنما في مكان ما بعيداً عن مراكز الحياة السياسية. وكانت أثينا، المدينة الجامعية الصغيرة، الثانوية والهادئة، المكان المثالي لذلك.

لا بد من الاعتراف بأن أحداث أواخر ربيع عام ٣٥٥ وصيفه كانت تبرر تماماً مخاوف الإمبراطور. فمن جديد وردت أنباء عن مؤمرات جديدة، لا بل عن محاولات لاغتصاب العرش.

عربدة في سيرميوم

أقام أفريكان، والي مقاطعة بانونيا الثانية، المقيم في سيرميوم على ضفاف نهر سافا، وليمة لكبار الموظفين والضباط. لم تفتقر الوليمة للنبيذ. كان جميع المدعوين من الأصدقاء ورفاق السلاح، عرفوا بعضهم منذ زمن طويل؛ ولذلك الآن، وبعد الترغيب، والقناعة بأنهم ليسوا بين الغرباء، سمحوا لأنفسهم بالنقد الحر والحاد لسلطة قسطنطينوس. استهل هذا الحديث الخطر التريبيون مارينوس، مفتش ساحة التدريب سابقاً، وغير المكلف بأية مهمة الآن. ومع انحلال عقد الألسن تمَّ التفوُّه بكلمات غير مسؤولة. أكد البعض أن التغير المتوقع نحو الأفضل وشيك الحدوث بين ليلة وضحاها، فهناك دلائل كثيرة على ذلك؛ بينما أضاف آخرون بسذاجة وبسبب الغباء العادي، أن ممارسات العرافة الموروثة عن الأسلاف تتنبأ لهم بسلطان عظيم!

ولكن بين المشاركين في الوليمة كان غاوديسيوس «Agens in rebus» وهو رجل خطر نتيجة غبائه وعدم فهمه لروح الفكاهة، وفي المقابل مارس نشاطه بكفاءة عالية. لم يهمل ولو للحظة واحدة واجباته الوظيفية. أخبر في الحال من يهمه الأمر بما دار من حديث أثناء حفلة السكر، وكأنه موضوع على قدر كبير من الأهمية فعلاً. تولى الأمر روفين شخصياً، وكان آنذاك

رئيس مكتب مدير الإدارة المدنية .Prefekt Pretonim فهرع على الفور إلى ميلانو ليتباهى أمام الحاكم بالإنجاز الذي حققه، وقد عُرِف عنه أنه رجل عديم الضمير وشديد الحماس للقيام بمثل هذه الأعمال الخسيسة. لم يسمح قسطنطينوس بأن يلحَّ عليه طويلاً. أمر بأن يمثل أمامه على جناح السرعة أفريكان وجميع الذين شاركوا في الوليمة التعسة.

نفذ التريبيونان اللذان أرسلا إلى سيرميوم المهمة بكفاءة وسرعة. اعتقلا المتهمين وكبلاهم بالأصفاد، وساقاهم إلى إيطاليا. ولكن شيئاً حدث في أكويليا كاد أن يدمر مستقبل الضابطين المشرق. فأثناء السعي وراء تأمين مستلزمات المرحلة التالية من الرحلة، تركا في الحانة واحداً من أكبر المذنبين، هو مارينوس، وبما أنه كان مقيداً بالأصفاد، ولم يكن قادراً على الفرار، لم يوله الجنود الاهتمام، فاستغل الظرف، والتقط سكيناً تركت صدفة على النضد، وطعن بها نفسه بقوة، حيث غرز النصل عميقاً في بطنه الشيء الذي أدى إلى تدفق أحشائه إلى الخارج وموته خلال لحظات. وبعد وصول الموكب إلى ميلانو اتهم الضابطان بالموافقة الضمنية على انتحار مارينوس. كانا في هذه الحالة مهددين بالنفي، ولم يتم العفو عنهما إلا بعد تدخل قائد الفرسان أربيتيون. تعرض السجناء للتعذيب، فاعترفوا بأنهم تفوهوا بأشياء بذيئة ووقحة وهم في حالة السكر، فحُكِمَ عليهم بالسجن مع بصيص من الأمل بالعفو مستقبلاً عن تلك الجريمة البشعة التي ارتكبوها.

معارك على ضفاف بحيرة بودين

جاء صيف عام ٣٥٥. انتهت محاكمات أهم الأشخاص الذين ارتبطوا بشخص غالوس. وسارت بنجاح مبادرة جمع تواقيع الأساقفة الذين لم يشاركوا في أعمال مجمع ميلانو على الوثيقة التي أدانت أثناسيوس. كما تم النظر في قضية الأحاديث غير المسؤولة خلال الوليمة والسكر في سيرميوم. وهكذا أمكن حل كافة المشاكل السياسية والكنسية الجارية بما يرضي البلاط. آنذاك، ومع حلول الفصل الدافئ من السنة، الفصل الملائم لبدء العمليات العسكرية، اســتوجب الأمر تركيز الاهتمام قبل أي شيء آخر على الوضع الخطير على ضفاف الراين الأعلى والدانوب. لم تسفر المعاهدة التي تم توقيعها في السنة السابقة ــ وهذا ما توقعه أصحاب الآراء السديدة سلفاً ــ عن أية نتائج إيجابية؛ فجحافل الألمان ظلت تجتاز هذين النهرين العظيمين لتقتحم أعماق المقاطعات الرومانية.

سادت أسوأ الأوضاع في مناطق ريسيا التي كانت تضم أجزاء من سويسرا الحالية وألمانيا. ارتأى قسطنطينوس أنه من الضروري أن يتواجد هناك شخصياً. زحف على رأس قوة عســكرية كبيرة. لكنه بعد مشاورات مطولة قام بها وهو لا يزال في الوديان الألبية، قرر تقسيم جيشه.انطلق قائد

الفرسان أربيتيون في المقدمة برفقة الوحدات الخاصة؛ وكان له أن يباشر عملياته على ضفاف البحيرة الكبرى التي كانت تعرف آنذاك بالفينيتية أو البريغانسية نسبة إلى مدينة بريغانسيا. أما اليوم فتعرف بالبحيرة البودينية. بينما بقيت الجيوش الأخرى في المؤخرة كحماية.

وصل أربيتيون إلى الأماكن المحددة ــ وعلى الفور وقع في الكمين الذي نصب له. ففي الجبال المكسوة بالغابات باغت العدو الرومان وأمطرهم بوابل من القذائف انهالت عليهم من كل الجهات. غادر العديد من الجنود صفوف المقاتلين، وفرّوا بحثاً عن النجاة. تاه هؤلاء طوال الليل على السفوح والذرى الصعبة المنال؛ ومع الفجر استطاع بعضهم العثور على المعسكر. عُدَّ عشرة من كبار الضباط في عداد القتلى والمفقودين.

بعد يوم واحد، وفي ساعة مبكرة من الصباح، حيث كان الضباب لا يزال كثيفاً، تقدم الألمان الواثقون من أنفسهم حتى اقتربوا من المعسكر تماماً. لوحوا بسيوفهم المسلولة وهددوا، وهم يظهرون في كل مرة من جهة أخرى. وعلى نحو مباغت انقضَّ عليهم من خلف التحصينات الرومانية فيلق حملة التروس. الحقيقة أن الألمان المتفوقين عدداً صدوا الهجوم، لكن الرومان لم ينسحبوا بل تشبثوا بمواقعهم، وناشدوا رفاقهم طالبين العون. تردد الرومان في الخروج بمن فيهم أربيتيون نفســه الذي لم يكن واثقاً من نتيجة الصدام الجديد. وفي نهاية المطاف برز ثلاثة من الضباط الأشداء هم: أرينتيوس نائب قائد الوحدات الثقيلة التسليح؛ وسينياخوس قائد فصائل الفرسان الخاصة؛ وبابون قائد الجنود الحديثي الترقية. انطلقوا من المعسكر على رأس وحداتهم في هجوم جسور، وأرغموا الألمان على التقهقر والفرار بعد معركة قصيرة. ولما بدأ المقاتلون الألمان بإلقاء التروس والسلاح جانباً، وأصبحوا أنصاف عراة مذعورين، وتحولوا إلى لقمة سائغة أمام المهاجمين؛ وأهدافاً سهلة للرماح والسيوف، واكتست ساحة المعركة بأكداس الجثث، انطلق الجنود الآخرون الذين كانوا يراقبون الموقف حتى ذلك الحين من مسافة آمنة،

وتقدموا بجرأة إلى الأمام فوق الجثث من خلف التحصينات، فتضرجوا بدماء الغرباء خلال فترة قصيرة.

بعد أن تلقى قسطنطينوس نبأ هذا الهجوم الناجح اعتبر الحملة منتهية، وعاد مسروراً وظافراً إلى ميلانو خلال شهر تموز.

مؤامرة ضد سيلفانوس

قبل البدء بالحملة على ريسيا بعث الإمبراطور بسيلفانوس إلى غالة. كان هذا قائداً لجيوش المشاة Magister Peditum فرنكوني الأصل، لكنه حظي بثقة الحاكم المطلقة؛ فهو مَنْ تراك مغنيسيوس قبل أربعة أعوام قرب مورسا وانتقل إلى معسكر قسطنطينوس، الشيء الذي كان له كبير الأثر في تقرير مصير المعركة. كان سيلفانوس على دراية حسنة بالعلاقات القائمة في غالة، وطنه الأم، ولذلك بدا اختياره مبرراً تماماً. ولكن من المرجح أن يكون لخصمه أربيتيون الفضل في تكليفه بهذه المهمة الصعبة؛ فقائد الفرسان المتنفذ ذاك، حاول بشتى الوسائل إزاحة المنافس الخطر من محيط الإمبراطور؛ ويرجح أن يكون منذ البداية قد باشر بحياكة خيوط مؤامرة بعيدة المدى ضده.

كانت الأوضاع في غالة في حالة أقرب ما تكون إلى الكارثة. كان الجرمان يقتربون من مراكز تلك المقاطعات، ويقتحمون البلاد الواقعة ما بين نهري اللوار والسين. ومع قدومه إلى أوغوستودونوم (Auyun الحالية)، شكل سيلفانوس على الفور فيلقاً مسلحاً من سكان المنطقة، وخاصة من المحاربين السابقين الذين استقروا هناك، وعلى رأس هذا الفيلق توجه نحو Auxerres الحالية عبر الغابات. ومنذ ذلك الحين تنقل بسرعة من مكان إلى

آخر باذلاً قصارى جهده في دفع البرابرة للتراجع نحو المناطق الحدودية، واستجمع القوى المبعثرة في كل مكان لحثٍ السكان على المقاومة والصمود. وبعد وقت قصير اختار كونفلوينتس أي Coblence الحالية مقراً لقيادته على مقربة من المكان الذي يصب فيه نهر Mozel في الراين.

بينما كان سيلفانوس يحارب ببسالة جحافل الغزاة على الحدود الشمالية للإمبراطورية، بدأت عناكب البلاط في ميلانو بنسج خيوط شباك التآمر بدقة فائقة، ولم يكن للقائد الظافر وحده أن يكون ضحية لها، وإنما العديد من أصدقائه أيضاً.

قبل توجه قائد جيوش المشاة إلى غالة جاء لمقابلته شخص يدعى ديناموس كان مسؤولاً عن الحيوانات المخصصة لقوافل التحميل والنقل في البلاط،وطلب منه رسائل توصية ــ في قضية ما ــ إلى أشخاص كان على علاقة صداقة وثيقة بهم. وافق سيلفانوس دون تردد، وأعد الرسائل المطلوبة. لكن ديناموس لم يسلم الرسائل إلى أصحابها. يقال أنه اتفق مع ثلاثة من المسؤولين هم : لامباديوس ــ مدير الإدارة المدنية؛ ويوسيبيوس ــ المسؤول المالي الأسبق؛ وإديسيوس ــ المدير الأسبق لأحد مكاتب السكرتاريات. وعن طريقهم ــ أو ربما بمعرفتهم فقط ــ قام بإزالة النص الأصلي للرسائل تاركاً توقيع سيلفانوس الشخصي وحده؛ ثم صيغ نص جديد لكل رسالة مختلف عن النص الأصلي. زُعِمَ في هذه الرسائل أن قائد جيوش المشاة توجه إلى مختلف أصدقائه، المرتبطين منهم بالبلاط أو المستقلين، بكلمات ملغومة تتحمل أكثر من معنى. وقد فُهِمَ من كلامه بأنه مقدم على تنفيذ مخططات جسورة، وأنه سوف يستولي على السلطة العليا بين ليلة وضحاها. قدم مدير الإدارة المدنية رزمة الرسائل تلك للإمبراطور أثناء أحد اللقاءات السرية.

قرئت الرسائل بعد ذلك أمام المجلس الاستشاري، وتم اعتقال الأشخاص الذين أشار سيلفانوس إلى أسمائهم على الفور. اعترضت مجموعة من الضباط بعنف على هذا الشيء. دعا التريبيون مالاريك الفرنكوني الأصل ــ قائد أحد التشكيلات الخاصة رفاق السلاح إلى اجتماع هاجم فيه بعنف قرارات المجلس

الاستشاري للإمبراطور. هتف قائلاً : لا يجوز إطلاقاً أن يتحول الناس المخلصون للدولة إلى ضحايا لمؤامرات دنيئة. طالب بالسماح له بالتوجه إلى غالة لإحضار سيلفانوس البريء بلا ريب. التزم بترك أقرب الناس إليه كرهائن لحين عودته. وأكد أن مالوبادوس ـ التريبيون في الوحدات الثقيلة التسليح سيكفل عودته حين الضرورة. واقترح أيضاً إرسال مالوبادوس إلى غالة، ليكفل هو عودته! لأنه لو تم إرسال شخص غريب، يمكن لسيلفانوس أن يثير بعض الشغب فعلاً!

من يدري إن لم تكن نداءات مالاريك وصيحاته تلك قد أسفرت عن نتائج عكسية تماماً لِما كان يريده. فقد أثارت الشكوك. لأن الثلاثة ـ سيلفانوس، مالاريك، ومالوبادوس انحدروا من أصول جرمانية ! فربما يتآمرون معاً، ويحاولون تغطية بعضهم؟

بناء على اقتراح أربيتيون تم إرسال أبوديميوس إلى غالة. وهو الرجل نفسه الذي حرص أشد الحرص قبل وقت قصير على تنفيذ الحكم بالموت بحق غالوس، وقدم بذلك خدمة جليلة للبلاط.

فضيحة تزوير جديدة

حمل أبوديميوس الذائع الصيت رسائل القيصر التي استدعيَ بموجبها سيلفانوس وأمِر بالحضور إلى البلاط بأسرع ما يمكن. لكن أبوديميوس تصرف بعكس التعليمات الصادرة إليه. فهو لم يبحث عن سيلفانوس على الإطلاق، ولم يكلف نفسه عناء تبليغه عن طريق شخص ثالث بمضمون الرسائل التي حملها وتضمنت دعوته للعودة. فبمجرد وصوله إلى غالة، انهمك على الفور في عمله المفضل: ملاحقة، واضطهاد، وتعذيب الرجال القائمين على خدمة سـيلفانوس، والأفراد الذين ربطتهم به صلة ما من أي نوع كانت. تصرف معهم وكأن سيدهم أدين بقرار نافذ. ساعده في عمله ذاك واحد من كبار موظفي الدوائر المالية في تلك المقاطعات.

لم يعلم أحد في ميلانو بالنشاط الذي مارسه أبوديميوس. انتظروا بهدوء وصول قائد جيوش المشاة الذي قاموا باستدعائه متوقعين قدومه بين لحظة وأخرى. ولذلك ارتأى خصومه ضرورة الاستعداد للقائه. فقاموا بالإعداد لمؤامرة جديدة موجهة ضد أنصاره المقربين من الإمبراطور، أي ضد الضباط المنحدرين من أصول فرنكونية بشكل أساسي. باشر ديناميوس من جديد بتزوير الرسائل، وفي هذه المرة وجهها إلى التريبيون المشرف على

الورش الضخمة لصناعة الأسلحة في كريمونا؛ حيث زعم أن الرسائل مكتوبة بخط سيلفانوس ومالاريك. تضمنت إشار ات مبهمة تحث التريبيون كشريك في مخططات سرية على إعداد كل شيء بالسرعة القصوى. اعترت الدهشة الرجل الذي تلقى الرسائل وفكر ملياً، لكنه لم يتذكر أنه تحدث يوماً مع المسؤولين المذكورين في أمور سرية. وفي نهاية المطاف بعث بالرسالة إلى أقرب الاثنين، أي إلى مالاريك؛ وفي الرسالة التي أرفقها توسل بحرارة بأن يخبره الأخير بوضوح ودون اللجوء إلى أساليب ملتوية بما يريد: «بما أنني رجل بسيط ولم أتلق قدراً كافياً من التعليم، لم أفهم ما كتِب هناك بهذا القدر من التعقيد».

بعد أن تلقى مالاريك القلق بسبب سيلفانوس الرسالة من كريمونا، دعا بني جلدته العاملين في البلاط إلى ـ وكان عددهم كبيراً ـ اجتماع طارئ، وخاطبهم بصراحة وجرأة. تكلم بغيظ شديد عن المؤامرات الدنيئة التي تعرَّت بفضل الرسالة التي بين يديه، والتي تلقاها من كريمونا. هتف بأعلى صوته مشيراً إلى أن أمر الاحتيال قد انكشف، وأنه يمس جميع الحضور.

لكن القائمين بالتزوير انتظروا بفارغ الصبر قيام مالاريك والضباط الفرنكونيين الآخرين بخطوة ما غير مدروسة نتيجة الشعور بالخطر. تم إعلام القيصر بالحدث على الفور، فأصدر الأخير أوامره ليقوم المجلس الاستشاري بمشاركة كبار الضباط بالنظر بالقضية ودراستها بدقة.

كان بين أعضاء هيئة التحكيم، أو لجنة التحقيق تلك شخص يدعى فلورنسيوس، وكان واحداً من أوسع موظفي البلاط نفوذاً ـ حمل لقب magister in officiorum ـ وخضعت له مختلف السكرتاريات بما في ذلك الشرطة السياسية، وتشكيلات الحرس الخاص؛ وبتوليه هذا المنصب الرفيع كان بوسعه ألا يخشى تآمر وتهديدات الشخصيات الأخرى. تفحص الوثائق المعروضة أمامه بدقة، وهي رسائل سيلفانوس المزعومة، ولاحظ عليها آثار النص القديم، فأعلن بصراحة أن أحدهم قد أزال النص الأصلي، وأن النص الحالي ليس سوى تزوير وقح.

أمر الإمبراطور بعد إطلاعه على الأمر بالتحقيق مع الأشخاص المشتبه بهم بالمشاركة في عملية التزوير. فعزل مدير الإدارة المدنية لامباديوس، واعترف يوسيبيوس المسؤول الأسبق عن ممتلكات القيصر الخاصة بأنه كان على علم بكل شيء. لكن إديسيوس أنكر كل شيء بشكل قاطع، وأصر على عدم وجود أية صلة له بالقضية كلها.

بعد فترة قصيرة أخلي سبيل المعتقلين. والأهم من ذلك، تمت ترقية ديناميوس ــ المزور الرئيس ــ إلى منصب أعلى! أصبح حاكماً لمقاطعة إتروريا. تم تفسير تصرف الإمبراطور هذا بأهمية المدانين ووساطة أفراد متنفذين مرتبطين بهم. فأثناء التحقيق ثبت أنهم جميعاً ــ بغض النظر عن دوافع التزوير ــ كانوا محقين في اعتبار سيلفانوس رجلاً مؤهلاً للتمرد على الحاكم الشرعي في أية لحظة. تم اســتنتاج ذلك من نبأ سري جاء به رسول إلى بلاط ميلانو مع مغيب شمس أحد أيام النصف الثاني من آب.

القيصر سيلفانوس

تمكن سيلفانوس وهو يخوض معاركه الظافرة ضد الجرمان من نقل مركز قيادته إلى الشمال، من كونفلوينتس إلى كولونيا التي كانت معروفة آنذاك باســـم كولونيا أغريبينا. تلقى هناك معلومات من كل الجهات، وبلا انقطاع، عن تصرف أبوديميوس مع رجاله. كان قائد المشاة على دراية كافية بأسرار البلاط وبالموقف العدائي للعميل، وفهم جيداً أنه في واقع الأمر ليس رجاله المعنيون، وإنما هو شخصياً. عرف جيداً مقدار شكوك الإمبراطور، ومدى تقلب مزاجه وتقييماته. فحتى ذلك الحين حظي بعطف الحاكم وتسلّق السلّم الوظيفي بسرعة، ولكن هذا قد يعاد النظر فيه إذا ما أصغى لأصوات الأعداء والحاسدين. يشعر أبوديميوس ـــ لا بدَّ وأن هذا ما فكر به ـــ بثقة عالية بنفسه ويتصرف وكأنه مخوّل بذلك. وفي يوم ما، عندما يقتنع بأن قائد الجيوش محاصر بما فيه الكفاية، سيعتقله، أو ربما يقتله ـــ بلا محاكمة، وبدون حكم رسمي! تذكر مصير غالوس؛ فالإمبراطور الذي حكم قبل حين بالموت على صهره وشريكه في الحكم، لن تكون لديه أية روادع تمنعه من التصرف على نحو مشابه مع ضابط غريب!

أمام هذه المخاطر، لم يجد القائد العام للجيوش الرومانية على ضفاف الراين سوى مخرج واحد: الفرار إلى البرابرة، إلى الفرنكونيين الذين انحدر منهم والده بونيسيوس. لكن بونيسيوس ذاته أصبح في حينه رومانياً باختياره

الطوعي؛ خدم في الجيش تحت أمرة قسطنطين الكبير، وأثبت جدارة في الحروب التي خاضها الأخير ضد ليسينيوس. أما سيلفانوس الذي وُلد في غالة مسيحياً، وتلقى قدراً لا بأس به من التعليم، فكان يُنظر إليه كرجل وديع وهادئ الطباع؛ الشيء الذي كان يصعب قوله عن غير واحد من الرومان الأصليين، وخاصة من طبقة الضباط المحترفين. ولذلك فإن فكرة ترك العالم المتمدن الذي ولد وترعرع فيه منذ طفولته، والبدء بحياة جديدة وسط الهمج، بدت في نظره انتحاراً. لم يكن قائد جيوش المشاة يعرف حقاً مَنْ يكون الفرنكونيين الذين خاض الحروب ضدهم بلا توقف. قال له هذا مباشرة التريبيون لانيوغايوس، الفرنكوني أيضاً، الذي كان قبل بضعة أعوام من عناصر الحرس الإمبراطوري الخاص بقسطنطس، وكان الوحيد الذي بقي وفياً له حتى النهاية أثناء الفرار المأساوي نحو جبال البيرينيه. فلما سُئل النصح في تلك القضية، أجاب دون مقدمات:

ـ الفرنكونيون، إما أن يقتلوك على الفور، أو أن يسلموك للقيصر لقاء المال.

بما أن الخطر كان محدقاً به من الجانبين، الروماني والفرنكوني، لم يبق سوى أسلوب واحد للنجاة: أن يعلن نفسه حاكماً! وفي هذه الحالة لن تبق حياته رخيصة. فتمرد مغنيسيوس الأخير أثبت عمق الميول الانفصالية في غالة. وعلى الرغم من الكارثة التي تعرض لها مغتصب العرش، فهي لم تخمد كلياً. فالوحشية التي اضطُهد بها أنصار معنينسيوس، وكذلك غباء ولا مبالاة الحكومة في معالجة غزوات النهب الجرمانية، غذّت مشاعر التمايز والاستياء من الوضع القائم. ولذلك فإن هذه البلاد كانت ستستقبل بسرور حاكماً وُلِد فيها واشتهر بمعارفه ومقدراته القيادية. كما وجب التوقع بأن الجرمان الكثيري العدد في الجيش، سيتبعون دون تردد واحداً من بني جلدتهم.

باشر سيلفانوس بحذر شديد بجس نبض كبار الضباط. وعدهم بمكافآت مجزية في حال الوقوف معه ومساندته، ووجد لديهم استحساناً للفكرة.

تم كل شيء خلال بضعة أيام. ففي السابع من آب كانوا في كولونيا لا يزالون يحتفلون بمناسبة عيد ميلاد قسطنطينوس الثامن والثلاثين. وبهذه المناسبة وزّع سيلفيانوس مكافآت مالية على الجنود، وألقى فيهم كلمة اختتمها على النحو التالي:

ـ ينتظر القيصر منكم الإخلاص والشجاعة!

وفي الحادي عشر من الشهر ذاته ظهر سيلفيانوس في الزي الإمبراطوري الرسمي. وبما أنه لم يكن في كولونيا الأرجوان موجوداً تحت الطلب، خيط المعطف على عجل من قطع نسيج أحمر انتزع من الرايات. وبهدف السخرية من القيصر الجديد، أشاع أعداؤه فيما بعد أن ثوباً أحمر انتزع من امرأة ما بهدف خياطة المعطف.

مشاورات جديدة في قصر ميلانو

وصل الرسول الذي حمل نبأ التمرد إلى ميلانو مع غروب الشمس كما ذكرنا. كانت روايته مفاجأة تامة للجميع. لم يتوقع أحد هناك أن تتخذ الأمور في غالة هذا المنحى، وخاصة بعد ما كشفته التحقيقات الأخيرة من دلائل على أن رسائل سيلفانوس المزعومة كانت مزوَّرة. دعا الإمبراطور على الفور لانعقاد اجتماع المجلس الاستشاري. ولمَّا كان كبار المسؤولين في طريقهم إلى القصر، كان موعد التبديل الثاني لمناوبة الحرس الليلي.

خيَّمت الكآبة على المجتمعين. لم يكن في وسع أيٍّ من الحضور تقديم اقتراح محدد حول ما يجب اتخاذه من إجراءات، ولذلك لم يتحمس أحد منهم للإدلاء برأيه. وفي نهاية المطاف تفوَّه أحدهم بملاحظة ما عن أورسيسين. أثنى آخر على الاقتراح مباشرة وأضاف بأنه قائد لامع. ولاحظ غيره بأنه محتفظ به في البلاط منذ ما يقارب السنة دون أن تستغل مواهبه. ثم ارتفعت أصوات أخرى عديدة وجريئة أكدت على أنه تعرض لمظلمة كبرى دون مبرر على الإطلاق. وبعد عدد من هذه الملاحظات صدر الأمر من القيصر باستدعائه إلى القصر على الفور.

أدخل مسؤول المراسم شخصياً أورسيسين إلى قاعة الاجتماعات، وهذا ما كان بمثابة تمييز خاص. خرَّ القائد على ركبتيه أمام الحاكم، فقدم له الأخير

هدب ثوبه الأرجواني لتقبيلها، ولكن بحركة تنم عن تعاطف أكبر بكثير مما لحظه في اللقاءات السابقة. ففيما مضى وُصِف في البلاط بأنه الخطر الأكبر في الشرق، وأشيع أنه يسعى بمشاركة أبنائه للاستيلاء على التاج الإمبراطوري. والآن تبدل كل شيء. فمن جميع الجهات توالت عبارات الإطراء والثناء. ووُصِف بأنه قائد متبصر وحصيف، ورفيق سلاح رفيع المستوى، والرجل الوحيد القادر على سحق تمرد سيلفانوس؛ ولم يعلم بحدوث شيء من هذا القبيل إلا في تلك اللحظة. وطالبوا قبل أي شيء آخر بأن ينطلق بأسرع ما يمكن.

لكن أورسيسين ارتأى بأنه في المقام الأول يجب أن يُبرأ هو أولاً من التهم الموجهة إليه. ولكن بمجرد أن أومأ لهذا الموضوع، قاطعه القيصر، وقال بلطف مبالغ به:

ـ ليس الوقت ملائماً الآن للدفاع عن النفس في قضية هي في الأصل موضع جدل. فالعاصفة الخطرة يجب أن تقنع الأطراف بالعودة إلى الوفاق القديم ـ قبل أن يندلع ما يجب أن يخنق في المهد!

وهكذا تركزت مداولات المجلس على قضية واحدة: ما هو السبيل لخداع سيلفانوس؟ وكان أهم ما في الأمر ألا يعرف أحد بأن القيصر على علم بتمرده. وفي هذه الحالة وحدها أمكن له أن يتلافى حرباً أهلية جديدة. وفي نهاية المطاف تقرر اللجوء إلى الحيلة التالية:

أن يحمل أورسيسين إلى سيلفانوس كتاباً من القيصر مليئاً بعبارات الثناء، يدعوه فيه لتسليم ملف غالة لخلفه أورسيسين، والعودة إلى البلاط؛ وأن يتضمن الكتاب إشارة واضحة إلى أنه سيحتفظ برتبته العسكرية.

صدر القرار. تلقى أورسيسين الأمر بالرحيل والسفر بأسرع ما يمكن. تم فرز عشر من عناصر الحماية ووضعوا تحت تصرفه، كان هذا كل ما طلبه.

أميان مارسيلينوس: الحملة ضد سيلفانوس

بين الضباط الذين رافقوا أورسيسين كنت أنا ورفيقي فيرينيان؛ وقد اختار الإمبراطور بنفسه الثمانية الآخرين. ولدى مرافقة القائد في هذه الرحلة الطويلة، كان كل منّا يفكر بنفسه قبل أيّ شيء آخر. فقد أُلقي بنا كالمحكومين بالإعدام أمام الحيوانات المفترسة للالتهام! لكننا فكرنا بأن للأحداث الكئيبة أيضاً جوانبها الإيجابية: فبطبيعة الحال يجب أن تتبدل الأوضاع فيما بعد نحو الأفضل. وقد أثارت مقولة شيشيرون التي أصابت كبد الحقيقة إعجابنا:

«الحقيقة أنه من واجب المرء أن يتمنى لنفسه بحرارة دوام السعادة المتألقة، لكن الحياة الخالية من الهزّات لا تماثل بمضمونها تلك التي تقود من التعاسة والكوارث إلى النجاح».

وهكذا سرنا على عجل ونحن نقطع مسافة طويلة في كل يوم، لأننا تلهفنا للوصول إلى المناطق المشمولة بالتمرد قبل أن يشيع خبره. ولكن على الرغم من تقدمنا السريع سبقنا الخبر، ربما المحمول على أجنحة الريح. ولذلك لاحظنا مذ أن دخلنا كولونيا بأن إمكانياتنا ليست بمستوى الأوضاع هناك.

فإلى المدينة فرّت جموع الناس من كل الجهات على عجل لترسخ العمل الذي بوشر به؛ وتمركزت هناك وحدات كثيرة من الجيش. فما الذي كان في

وسعنا أن نفعله في هذه الحالة؟ بدا لنا أنه من الأفضل أن يضع قائدنا نفسه تحت تصرف الحاكم الجديد؛ وأن يتظاهر بالانضمام إليه وتعزيز قوته. فبهذا الأسلوب وحده، بزعم الاتفاق مع سيلفانوس، كان من الممكن أن يشعر بعدم وجود خطر من جانبنا ويصبح أقل حذراً، فيُخدَع. خطة في غاية الصعوبة والتعقيد! توجب علينا ملاءمة مساعينا مع تبدل الظروف، فلا نستبق الأحداث، ولا ندع أية فرصة تفوتنا. ولو عُرِفت نوايانا قبل الأوان، لتعرضنا جميعاً للعقوبة ذاتها ــ الموت.

استقبل القائد بمودة. الحقيقة أنه أرغم على إعلان الولاء لحامل الأرجوان المتغطرس على نحو احتفالي، ولكن الظروف في كل الأحوال كانت تفرض بأن يحني رأسه. وباستثناء ذلك عومل أورسيسين باحترام كرجل فذ وصديق. لم تكن هناك صعوبة في مقابلته للحاكم، واستضيف على مائدته. وهكذا كان بوسعهما التحدث معاً بسرية عن الأمور الأكثر أهمية. كان سيلفانوس يعبر عن غضبه:

ــ توزع ألقاب القناصل وأرفع المناصب على الأوغاد. بذلنا ما في وسعنا، ضحينا بالعرق والدم في غير مرَّة لإنقاذ الدولة، وما الذي حصلنا عليه لقاء ذلك؟ الاحتقار والتشنيع! يعذبونني بتحقيقات مهينة مع أقرب الأشخاص، ويلفقون التهمة بأنني ارتكبت جريمة إهانة الإمبراطور. وأنت اختطفت من الشرق وألقي بك فريسة للحسد والغيرة.

غالباً ما ردد هذه الكلمات وما يشبهها. وما يرعبنا نحن كان شيء آخر. كان جنود سيلفانوس يمرون في كل مكان، ويتذمرون من النقص في التموين، ويطالبون قائدهم باجتياز جبال الألب على الفور واقتحام إيطاليا!

عشنا حالة توتر مستمرة. وخلال اللقاءات السرية بحثنا على نحو محرور عن خطة ما تكون لها فرصة النجاح. وكم من مرة أرغمنا الخوف على تغيير القرارات المتخذة ! وفي نهاية المطاف تم الاتفاق على البحث بأسرع ما يمكن عن منفذين حذرين للعملية وإلزامهم بالقسم قبل إطلاعهم على

التفاصيل. وقع اختيارنا على وحدات البراخيات والكورنوت. فقد خال لنا انها مترددة في موقفها من سيلفانوس، ومستعدة للانتقال إلى الجانب الآخر لقاء مكافآت سخيّة. تم إنجاز العملية عن طريق وسطاء من الجنود العاديين، وكانوا يصلحون تماماً لمثل هذه المهام، لأن أحداً لم يعرهم اهتماماً خاصاً نظراً لمواقعهم المتدنية في سلّم المراتب العسكرية.

باشـــرت الوحدة التي تم إغراؤها بالوعود بمكافآت مجزية العمل فجراً. تصرفوا بشجاعة فائقة؛ وهذا ما كان يحدث عادة قبل أن تتضح الأمور وتتجلي تماماً؛ قتلوا الحراس، واقتحموا القصر. جرّوا سيلفانوس من الكنيسة الصغيرة حيث اختبأ وقد أرعبه اقتراب المسلحين؛ ففي تلك اللحظة كان قد توجه إلى اجتماع معتنقي الديانة المسيحية. قُتِل بطعنات السيوف الكثيرة.

يوليان في أثينا

حكم سيلفانوس منذ لحظة تمرده ثمانية وعشرين يوماً بالضبط، أي أنه قُتل في مطلع عام ٣٥٥. كان يوليان آنذاك في أثينا. فكما أشرنا، حصل بفضل وساطة الإمبراطورة يوسيبيا في أواخر ربيع العام على الموافقة بالعودة إلى ممتلكات والدته في نيقوميديا، لكنه اضطر للتوقف على ضفاف بحيرة كومو في إيطاليا لبعض الوقت؛ وهنا علم بأن الإمبراطور غيَّر قراره وأوعز إليه بالسفر إلى أثينا لمتابعة الدراسة. وفي هذه المرة أيضاً كان الفضل يعود لمساعي يوسيبيا التي أدركت ما الذي تعنيه الإقامة في تلك المدينة بالنسبة للأمير الشاب المغرم بالأدب الهلينستي القديم.

لم تكن الدوافع النبيلة ما حذا بقسطنطينوس بالتكرم على يوليان والسماح له بالإقامة في عاصمة أتيكا، مثلما كان الأمر بالنسبة ليوسيبيا؛ فببساطة، أراد إبعاد الأمير عن كافة مراكز الحياة السياسية. وكان هذا أمراً مفهوماً في ذلك الوقت؛ حيث وردت باستمرار أخبار تنذر بالخطر عن تمرد مزعوم في سيرميوم، وعن مخططات سيلفانوس الجريئة ــ فقد عرض ديناميوس آنذاك رسائله، ولم يُشتبه بعد بأنها مزورة. خشي الإمبراطور أن يستغل أحدهم

يوليان في لحظة ما، ويطرحه كمطالب بالعرش. فقبل عشرة وبضع من السنين كان يوليان وغالوس قد احتجزا في ماكيلوم للسبب ذاته؛ وكان من الصعب أن يتكرر الأمر ثانية آنذاك، وبدت أثينا في نظره مكاناً يضمن قدراً كافياً من العزلة. وهكذا تضافرت معاً في تلك المرحلة بمحض الصدفة شكوك الإمبراطور وحذره السياسي، وتعاطف زوجته الإيثاري، ولهفة يوليان الحارة.

كانت أثينا التي قصدها يوليان في صيف سنة ٣٥٥ مدينة صغيرة نسبياً، وفقيرة بالأحرى بسبب النهب المتكرر الذي تعرضت له، لكنها كانت لا تزال مليئة بروائع الآثار الفنية من عمارة ونحت ورسم. وقبل أي شيء آخر كانت مدينة جامعية، حيث توافدت إليها من كافة أنحاء الإمبراطورية، وخاصة من البلدان التي تكلمت الإغريقية، جموع الطلاب لدراسة العلوم الإنسانية التي تم تدريسها في المدارس الحكومية والخاصة في آن واحد. كانت الأكاديمية التي أسسها أفلاطون قبل ذلك الحين بسبعة قرون لا تزال أقدم وأشهر المدارس الفلسفية. ولكن، وكما حدث في أماكن أخرى، لم يكن أساتذة الفلسفة مَنْ استقطب العدد الأكبر من الطلاب، بل فعل هذا أساتذة البلاغة الذين عرفوا أيضاً بالصوفيين، لأن البلاغة اعتبرت هناك أيضاً بمثابة تاج تتكلل به كافة فروع المعرفة كلها آنذاك.

بعد المجيء إلى أثينا أقام يوليان في منزل سيلسوس الذي انتمى إلى أعرق الأسر الإنطاكية، وكان من تلامذة ليبانيــوس؛ وكان للصداقة العميقة التي توثقت عراها في أثينا بين يوليان وسيلسوس أن تستمر طويلاً. وعلى الرغم من تواضعه ومن اليسر الشديد في التعامل معه، لم يتمكن الأمير الشاب من المشاركة التامة والطبيعية في الحياة الطلابية، وذلك بسبب انتمائه وموقعه الاجتماعي الرفيع. أصغى بطبيعة الحال إلى محاضرات مشاهير ذلك العصر، وزار أوابد أثينا الأثرية، وتناقش مع مختلف الأشخاص. لكن أحداً لم يجرؤ على جرِّه عنوة إلى هذه المدرسة أو تلك ــ كان هذا الأسلوب متبعاً آنذاك مع الشبان في هذه المدينة الجامعية، لأن موارد الأساتذة اعتمدت جزئياً على عدد

الطلاب الذين سددوا بعض الرسوم. كما أن أحداً لم يكن ليتجرأ على إخضاع يوليان لبعض الطقوس التي أخضع لها جميع الطلاب القادمين حديثاً إلى أثينا.

الحياة الطلابية في أثينا

وصف غريغوري النزينزي وهو عدو يوليان اللدود عادات الطلاب تلك انطلاقاً من ملاحظاته وتجربته الشخصية الخاصة. فقد درس في أثينا برفقة صديقه بازيلي في الأعوام ٣٥٢ ــ ٣٥٨، أي أنه استقبل وشاهد الأمير الشاب في هذه المدينة. كان غريغوري النزينزي وصديقه بازيلي مسيحيين. ولم يكونا وحيدين في أوساط الشبيبة هناك؛ كان هناك أساتذة مسيحيون أيضاً، ومنهم اثنان من أشهر أساتذة البلاغة آنذاك: برو ايريزيوس وهيميريوس. هرع معتنقو الديانة الجديدة أيضاً إلى أثينا، مهد وموطن الحكمة الوثنية، ولكن ليس دون مخاوف وتردد. وقد كتب غريغوري عن هذا الشيء بصراحة ووضوح:

«يصر الناس الأتقياء ــ ليس دون مبرر ــ على أن الإقامة في هذه المدينة يمكن أن تعود بآثار سلبية على الحياة الروحية. فأثينا أكثر ثراء من مدن هيلادا الأخرى، لكنها ثروة تمثل الشر، لأنها مكونة من وفرة نصب مختلف الآلهة. وليس بالأمر اليسير مقاومة كلام الناس الذين يثنون عليها ويدافعون عنها! أما نحن فلم نتعرض لسوء، لأننا تحصّنا جيداً وسقينا أذهاننا. لا بل يمكن قول العكس. فالإقامة في أثينا رسخت إيماننا. لأن التعرف عن

قرب على زيف وكذب العفاريت المقيمة هناك، دفعنا لاحتقارها حيثما كانت موضع تكريم. يُعتقد أن نهراً عذب المياه يجري وسط البحر المالح؛ ويحكى عن وجود حيوانات تقفز بحرية في النار التي تلتهم كل شيء. هكذا كنا نعيش بين زملائنا».

وفي فصل آخر يتكلم عن بعض عادات الطلاب على النحو التالي:

«يجنُّ جنون معظم الطلاب في تمجيد البلاغة. ليسوا بالطبع الناس الأكثر حكمة، فهم لا ينتمون إلى الأسر المعدمة والمجهولة فحسب، وإنما إلى النبيلة والشهيرة أيضاً. فالوسط الطلابي الأثيني شديد التنوع، واندفاعاته غير محسوبة. ولوصف ذلك، سأستعين بمثال محدد».

لا يخفى على أحد سلوك عشاق سباقات الخيل أثناء إقامتها. يتواثبون في أماكنهم، يصرخون، يثيرون سحب الغبار، وكأنهم يسوقون المركبات بأنفسهم. يوجهون المركبات وهم واقفون في المدرج. يشقون الهواء بأيديهم وكأنها سياط، وتنم أصابعهم عن حركات تبدو وكأنهم يشدُّون الجياد ويبدلون المركبات. وفي أحاديثهم يقايضون الجياد، والإسطبلات، والمشرفين. وهم عادة من فقراء الناس الذين يفتقرون إلى وسائل العيش، وغالباً ما يقضون جوعاً!

وهكذا يتصرف الطلاب مع أساتذتهم ومنافسيهم بحماس جنوني، مثلما يفعل أنصار فرق السباق في السيرك. فالهدف هو تأمين أكبر عدد من المستمعين للأساتذة، ورفع مستوى مداخيلهم بذلك. تحاول كل مدرسة أن تفرض هيمنتها على جزء من أرض هيلادا، وتجنيد الطلاب القادمين من تلك المناطق للدراسة لدى هذا الأستاذ أو ذاك.

يصل شخص جديد إلى أثينا، فيقع على الفور طوعاً أو مكرهاً بين يدي «الصيادين». يحصل على مأوى لدى واحد ممن اصطادوه. ويكون عادة واحداً من الأقرباء أو أبناء البلد، لكنه قد يكون صياداً محترفاً؛ ويثمن الأساتذة

هؤلاء، لأنهم يعملون على زيادة مواردهم. ووفقاً للتقاليد المحلية يخضع الطالب الجديد لبعض الطقوس.

فكل من يريد، بوسعه أن يهزأ به. وأساليب الهزء متنوعة، منها الخشنة، ومنها الأكثر لطفاً. يبدو هذا من الناحية الظاهرية شيئاً وحشياً وخطراً. وفي نهاية المطاف يقاد الطالب الجديد إلى الحمام عبر السوق. يسير المرافقون خلفه أزواجاً على مسافة محددة، لكنهم يبدأون قرب المبنى بإحداث جلبة، يصرخون، ويقفزون، ويطرقون الباب بعنف ـــ وكأن الذين في الداخل يرفضون السماح لهم بالدخول. ولدى مغادرة الحمام يصبح حراً، وعضواً كامل الحقوق في أخوية الطلاب».

ثم يضيف غريغوري الذي لا تستهويه مثل هذه التسلية:

«مصدر المتعة الكبرى في كل ذلك، هو تفرق الجلادين وانصرافهم على الفور».

صورتان للأمير يوليان

بعد مضي عشرة وبضع من السنين وصف معلم وصديق يوليان، الخطيب ليبانيوس، دراسته في أثينا على النحو التالي:

«أشفقت زوجة قسطنطينوس على يوليان. توسلت إلى زوجها، وبعد محاولات عديدة أقنعته بإرساله إلى أثينا، بؤبؤ العين في أرض هيلادا، التي كان مولعاً بها.

«تؤكد هذه الحقيقة وحدها بما فيه الكفاية، أن روحه كانت من منبت إلهي : فعلى الرغم من قدرته على اختيار ما تشتهيه النفس من المواقع، لم تغره الحدائق أو القصور، أو الممتلكات الواقعة على شاطئ البحر، أو الملذات التي يمكن للإنسان الثري أن ينغمس فيها بيسر، بل اعتبر ما يثمنه الناس عموماً غير جدير بالاهتمام مقارنةً بمدينة بالادا، أم أفلاطون وديموستينس، عماد كل المعارف. هرع إليها على عجل. أمل بلقاء أساتذة قادرين على تعميق معارفه. ولمّا عرفهم ــ وعرّفهم بنفسه ــ أثار إعجاباً أكبر بنفسه مما شعر به هو نحوهم. وهو الوحيد بين الطلاب القادمين إلى أثينا، الذي غادر المدينة

بعد أن علَّم فيها أكثر مما تعلم ! شوهد دوماً محاطاً بعدد كبير من الشبان، ومن كبار السن من الفلاسفة والخطباء. نظرت إليه الآلهة ذاتها بعين العطف، لأنها أدركت بأنه هو مَنْ سيعيد لها مجدها السابق. كان حديثه وتواضعه موضع إعجاب في آن واحد؛ عجز عن التفوه بكلمة واحدة دون أن يحمرَّ وجهه ' وعلى الرغم من أن الجميع حظوا بعطفه، فهو لم يمنح ثقته إلا للأنبل بينهم. وكان بينهم رجل من بلادنا، من إنطاكية.

قرر يوليان أن يقيم في أثينا بشكل دائم حتى آخر أيامه، فهناك شعر بالسعادة القصوى. ولكن....».

ولكن قبل أن نتعرف على سبب إلغاء مخططات الأمير المتواضعة والواقعية ظاهرياً، دعنا نصغي لرأي شخص آخر رسم صورة لإقامة يوليان في أثينا، وهو غريغوري النزينزي. تستحق روايته اهتماماً خاصاً، لأنه كان يدرس في أثينا في الفترة ذاتها، وتكرر لقاؤه مع الرجل الشاب المنحدر من الأسرة الإمبراطورية الذي تحدثت عنه المدينة بأسرها. ولكن من ناحية ثانية تبدو شهادته متحيزة بوضوح تام، وتعبر عن كراهية لا حدود لها؛ وعلى أي حال لم يخفِ غريغوري أبداً أنه يكن العداء ليوليان.

«لم يتعرف الآخرون على جرائم يوليان إلا بعد أن خضعوا لسلطته التي سرعان ما تحولت إلى طغيان واستبداد، أما أنا فقد توقعتها إلى حد ما قبل ذلك بأمد طويل، أثناء اللقاء به في أثينا. جاء إليها بعد وقت قصير من الأحداث المرتبطة بموت أخيه، حيث تمكن من الحصول على موافقة الحاكم بالتوسل إليه. كان لرحيله سببان: أولهما مشرِّف، يتلخص في رغبته في معرفة هيلادا والمدارس الأثينية؛ والثاني يكتنفه الغموض ولا تعرفه سوى قلّة قليلة من الناس، وقد تلخص في الرغبة

باستشارة العرافين هناك. يبدو أن إلحاده لم يكن قد تجلى بصورة تامة بعد! وفي تلك الآونة بالذات ربما أصبت في تقييم ذلك الإنسان على الرغم من عدم اهتمامي بمثل هذه الأمور. ولكن إذا كان أفضل العرافين هو من يستطيع التوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة، فإن ما دفعني لممارسة فن العراقة هو غرابة سلوكه ومنظره غير العادي. تصورت أن لا شيء يعد بالخير في ذلك العنق النحيف، والكتفين الهزيلتين ككفتي الميزان، والعينين الهائجتين القلقتين، والنظرات المجنونة، والخطوات العصبية والمترددة، والأنف الذي عبر عن الغطرسة، والتعابير ذاتها على الوجه ذي الملامح التهريجية، والضحك الذي تفجر بغتة وعلى نحو متقطع، وحركات الرأس القلقة، والكلام المتقطع دوماً بسبب اللهاث، والتساؤلات الطارئة وغير المنتظمة، والإجابات الشبيهة بها والفوضوية وغير المدروسة، المفتقرة للانضباط الذي هو ثمرة الدراسة.

لو كان هنا أحد ممن أتيحت لهم فرصة سماع كلماتي آنذاك، لشهد بأنني قلت هذا وأنا انظر إلى يوليان: ــ ما هذا الوباء الذي تعده لنفسها الدولة الرومانية!».

ما بعد سقوط سيلفانوس

في صيف ومطلع خريف سنة ٣٥٥ أمضى يوليان في أثينا أجمل أيام حياته دون أن يكترث بشيء. أما في غالة البعيدة، وبعد موت سيلفانوس، فقد طغت الأحداث الكئيبة؛ وبمعرفة طبع الإمبراطور كان من المتوقع أن تتخذ الأحداث المنحى الذي اتخذته بالذات.

تلقى قسطنطينوس نبأ مقتل المتمرد بسرور بالغ بطبيعة الحال ـــ ولكن هذا لا يعني أنه ثمَّن خدمات أورسيسين ومنحها حق قدرها. اعتبر القيصر إخماد التمرد الخطر دلالة على حسن حظه ورعاية السماء له. فلم يكن هناك مجال للحديث عن الإطراء على القائد العجوز أو مكافأته. وإنما العكس: طولب بتفسير ما بخصوص التهمة الموجهة إليه، والتي زُعِمَ فيها بأنه استولى على خزينة غالة. وقد بوشر بالتحقيق، وكان أول من شملهم التحقيق ريميجيوس الذي كان آنذاك محاسباً في قيادة أركان القائد العام. كانت التهمة مجرد افتراء بطبيعة الحال؛ لأن أحداً لم يكن قد مسَّ الخزينة.

وإذا استشهدنا بكلمات أميان مارسيلينوس سنقول : تصور قسطنطينوس الظافر أن رأسه يلامس السماء، وأنه هو مَنْ يصنع مصائر البشر وفق أهوائه. رسخت مداهنات المتملقين هذه القناعة لديه؛ وقد حرص هو من جانبه

على زيادة هؤلاء حوله، بينما أبعد جميع الذين عجزوا عن مجاراتهم، وعاملهم بازدراء.

وكما حدث بعد سقوط مغنيسيوس وغالوس، بوشر على الفور باعتقال أنصار المتمرد والتحقيق معهم. تم تكبيل المتهمين بالأصفاد والسلاسل ، وابتهج بولس من جديد باتساع مجال نشاطه (تم نعته آنذاك بالمخبر الجهنمي)، كما أشرف معه على عمليات التحقيق كبار المسؤولين المدنيين والعسكريين. خضع بروكوس أحد أقرب الناس إلى سيلفانوس للتعذيب، كان رجلاً هزيل الجسم ومريضاً، فتمت المراهنة على أنه لن يتحمل التعذيب وآلامه، وأنه سرعان ما سيبدأ بسرد أسماء الأشخاص المتورطين في الجريمة الكبرى. لكنَّ ما حدث كان العكس تماماً لم يبح بروكولوس باسم أحد. على الرغم من التعذيب الوحشي، وعلى الرغم من قربه الشديد من الموت، لم يذكر اسماً واحداً. والأهم من ذلك: تجرأ على الدفاع عن سيلفانوس وسلوكه! أكد على أن القائد العجوز لم يرتدِ الأرجوان طمعاً في السلطة، وإنما أرغمته على ذلك أحكام الضرورة القاسية. وذكَّر بأن سيلفانوس وزَّع مرتباً إضافياً على الجنود بمناسبة الذكرى السنوية لميلاد القيصر، وذلك قبل خمسة أيام فقط من عملية الاستيلاء على السلطة. وتساءل:

ـ إذا كان سيلفانوس قد فكر آنذاك فعلاً بالانقلاب، فلِما لم يقم بتوزيع تلك الأموال باسمه الشخصي؟ أو لِما لم يحتفظ بها ببساطة لنفسه؟

أفصح بروكولوس بعد ذلك بفترة طويلة عن سبب مقاومته وصموده بشجاعة أثناء أعنف عمليات التعذيب؛ جاءته بشرى الخلاص في الحلم، ولكن شريطة ألا يلوِّث نفسه بالخيانة. وهذا ما تحقق فعلاً؛ نجا بحياته.

الغزو الجرماني الكبير

شمل التحقيق، والتعذيب، والإعدام، الأشخاص المرتبطين بالتمرد بشكل أساسي، أي مجموعة محدودة من الضباط وكبار المسؤولين. لكن غالة بأسرها كادت أن تعاني من نتيجة أخرى من نتائج سقوط سيلفانوس:

ففي مطلع خريف عام ٣٥٥ اقتحمت أراضيها موجة هائلة من القبائل الجرمانية قدمت من وراء الراين. وبالكاد تمكن سيلفانوس من دحرهم خلال الربيع والصيف باذلاً قصارى جهده؛ والآن، وبعد انتشار نبأ التمرد الفاشل عادت الجحافل المهزومة قبل حين لتجتاز النهر الحدودي في نقاط عديدة. تقدم الجرمان دون مواجهة مقاومة تذكر. لم يكن تحت تصرف الرومان ما يكفي من القوات، كما أنهم عانوا مشكلة غياب القيادة الفذّة. الحقيقة أن قسطنطينوس صرّح لدى إرسال أورسيسين بأنه سيحلّ محلّ سيلفانوس ــ لكنه علّق نشاطه بمجرد إنجاز مهمته؛ كان يخشى أن يسير على خطى سلفه. ومن الأسباب التي أدت إلى عدم الرضى الجديد عن الضابط الخبير، زعم استيلائه على خزينة غالة. عيّن الإمبراطور نائب قائد الفرسان مارسيلوس قائداً للجيوش؛ لكنه لم يكن يتمتع بالسمعة الحسنة ولا يتحلى بالشجاعة. وعجز عن صدّ المهاجمين.

شكل الألمان الخطورة الأكبر. شارك في الاجتياح عشرين من قبائلهم. ومن الشمال زحف الفرنكونيون والسكسون. انهارت التحصينات والقلاع الرومانية. وسقطت في يد الغزاة المدن الواقعة على الراين وفي العمق ــ ما يزيد عن الأربعين مدينة. كانت بينها مراكز ثرية وهامة مثل أرغينتوراتوم ــ ستراسبورغ الحالية؛ موغونتياكوم ــ مينز؛ وأوغوستانيميتوم ــ سبيرا. كما حوصرت كولونيا. أحرق البرابرة المستوطنات الريفية، وساقوا السكان كمسبيين إلى ما وراء الراين، بينما جمعوا الحبوب والدواب في أماكن آمنة كاحتياطي في الحملات التالية. وباشروا بالاستقرار هنا وهناك وبإنشاء مساكن على النمط الروماني. تحاشوا المدن فقط، لأنهم شعروا داخل أسوارها وكأنهم سجناء ، زحفت بعض الوحدات من جديد على وادي كل من السين واللوار. وباختصار، تكرر كل ما شهدته تلك المناطق بعد سقوط مغنيسيوس ــ ولكن على نطاق واسع.

كان بين القادة الجرمان عدد كبير من الأفراد الذين احتكوا من قبل مع الرومان، وأقاموا لفترات طويلة نسبياً في أراضي الإمبراطورية. وهكذا فإن واحداً من الملوك الألمان، ميديريك، كان لبضع سنوات رهينة في أيدي الرومان؛ وأصبح من معتنقي ديانة إيزيدا ومنح ابنه اسم سيرابيون. وكان الفتى الآن يحارب ببسالة إلى جانب عمه خونودومارا ــ بعد وفاة ميديريك ــ الذي كان بأمرته ما يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل. باتت الجيوش الجرمانية تشكل خطورة أكبر نظراً لقدرتها على استخدام بعض أسس التكتيك والإدارة الرومانيين.

وداع أثينا

لم يبتهج يوليان بإقامته في المقر الأثيني لإلهات الفن لأكثر من ثلاثة أشهر. فإلى محراب العلم والكلمة لم تتناه أية أصداء من المقاطعات البعيدة الواقعة على ضفاف الراين، أو من مقر الحاكم في ميلانو. وهذا ما أدهش يوليان أكثر عندما تلقى نبأ استدعائه في مطلع تشرين الأول من سنة ٣٥٥، ووجوب حضوره إلى البلاط الإمبراطوري على جناح السرعة.

ما هي الأسباب التي استوجبت صدور هذا الأمر؟ وما الذي دفع الإمبراطور لاتخاذ قرار جديد فيما يخص مصير يوليان؟ كان كل شيء متوقعاً. بدت أسوأ الاحتمالات أيضاً مبررة، فربما انتصرت في البلاط ثلة يوسيبيوس القيِّم على المخدع المقدس، وهو الرجل الذي كان يكره يوليان، وحاول أن يعدَّ له مصير غالوس ذاته؟ وقد لا تكون الأمور على هذا القدر من السوء ــ فما هي الجريمة السياسية التي يمكن أن يتهم بها يوليان طالب العلم ــ والأمر مقتصر على رغبة الإمبراطور في رؤية الممثل الذكر الوحيد المتبقي من الأسرة الحاكمة إلى جانبه، ليتمكن من إحاطته برعاية وعناية أوفر؟

شعر يوليان بالضيق والكآبة من جراء جهله لنوايا الحاكم. وعلى أي حال، كان مجرد الفراق والابتعاد عن المدينة التي نعم فيها بكل ما أحبه

صدمة قاسية ومؤلمة! فيوليان لم يكن راغباً في أي مظهر من مظاهر التكريم. شعر بالامتعاض من السلطة وألقاب الشرف. لم يفكر بالثراء أراد شيئاً واحداً فقط: التمكن من العيش والدراسة في أثينا.

«كم ذرفتُ من الدموع، وعلى أي قدر من الألم كان أنيني، وأنا أمد يديَّ نحو الكابيتول عندما بلغني نبأ الاستدعاء! كم صليت للإلهة أثينا لتنقذ من يتوسل إليها ولا تتركه وحيداً. شاهد الكثيرون منكم، وسوف يشهدون، والإلهة أثينا ذاتها قبل غيرها، بأنني توسلت إليها بهذه الكلمات:

«ـ أفضل الموت في أثينا على الحيل هناك!

«لم تخيب الالهة أمل مبجلها، ولم تسلمه إلى أياد غريبة. أثبتت هذا الشيء بالدليل القاطع. رافقتني، كانت دليلي في كل مكان، وقامت بحراستي، أما أخباري فقد تلقتها بفضل الشمس والقمر».

تجدر الإشارة هنا إلى أن الطلاب الآخرين أيضاً كانوا يودعون أثينا بمزيد من الحزن والدموع، وإن كان قرار مغادرتهم لها يأتي في ظروف أقل مأساوية وبمحض إرادتهم. وهذا ما يشهد عليه غريغوري النزينزي نفسه، وهو رفيق دراسة يوليان في أثينا. فعلى الرغم من أنه لم يكن من محبي مدينة أثينا المتقدي الحماس، حيث اعتبرها مرتع الجن، واعتقد أن الإقامة فيها قد تعود بالضرر على الحياة الروحية للمسيحي، فإنه عندما اتخذ برفقة صديقه بازيلي قرار مغادرة محراب الفلسفة القديمة والعبادات «الشيطانية» ذاك، تم كل شيء على نحو عادي:

«جاء أخيراً يوم الرحيل حاملاً معه كل ما يرافقه عادة لدى افتراق الناس. فكانت هناك خطب الوداع، والمرافقة إلى نقطة المغادرة، والعناق وسط الدموع والتنهدات. فمن

الصعب تصور مقدار حزن الطلاب هناك على فراق أثينا والأصدقاء. بعث النظر إلى هذه المشاهد الأسى في النفس، واستحق هذا المشهد أن يروى:

تحلق الأصدقاء والأتراب حولنا مثل الكورس على خشبة المسرح، كما جاء بعض الأساتذة أيضاً. هتفوا قائلين بأنهم لن يسمحوا أبداً بأن نرحل بعيداً عنهم، واستحلفوا، وسعوا لإيقافنا، وحاولوا إقناعنا. لم يكن لشيء أن يبرر كلماتهم وأفعالهم سوى ما شعروا به من ألم».

عن مستقبل يوليان

كان الأمر الذي تلقاه في أثينا نتيجة مشاورات ونزاعات دائمة جرت في بلاط ميلانو منذ اللحظة التي غادر فيها يوليان إيطاليا. لم يتوقف الرسل عن المجيء من غالة، حيث تشابهت رواياتهم التي أشارت إلى حدوث الكارثة.

أضحت المقاطعات الحدودية كلها محتلة. لا أحد يقاوم. يتابع البرابرة زحفهم أعمق فأعمق!

أما القيصر، فقد راح يفكر، ويتردد، ويتأمل الأمر، بدل أن ينشط ويعمل دون تأخير. وكان موضوع تأملاته، ومشاوراته الموضوع التالي بشكل رئيسي: ما هي الوسيلة الناجعة لصدِّ الغزاة بشكل فاعل دون مغادرة إيطاليا؟ اعتقد أن الحملة في بلدان ما وراء الألب البعيدة، قد تشكل خطراً من وجهات نظر عدَّة. وفي إحدى اللحظات تبادرت إلى ذهنه، أو إلى ذهن أحد المقربين إليه، فكرة تكليف يوليان بالذات بهذه المهمة، وأن يجعله شريكاً له في الحكم. فكرة على قدر كبير من الغرابة، غير متوقعة، ومنافية للعقل ــ إذا أخذنا بعين الاعتبار، بأن يوليان لم يكن يملك أية خبرة في قضايا السياسة والحرب؛ وقد نُظر إليه على أنه لا يصلح اشيء، حالم، طالب أبدي، ملم فقط بعالم الكتب التي لا تنفع لشيء. وعلى أيِّ حال، أومأ قسطنطينوس في أحد الأيام لحاشيته، بأنه يفكر بشيء من هذا القبيل، وأضاف ــ كانت هذه الكلمات مدهشة وهو يتفوَّه بها:

ـ أنا أيضاً أكاد أنهار تحت ضغط هذه الصدمات المتكررة.

اعتاد أفراد الحاشية على التذلل أمامه في كل مناسبة، فباشروا على الفور بتحذيره بدخان بخور المداهنات العادية. وتعالت الأصوات:

ـ لا يوجد شيء على قدر من الصعوبة لا تقهره شجاعتك وسعدك المتألق كالنجوم!

وحذّره آخرون، مدركين جيداً مقدار ما اقترفت أيديهم من جرائم، من منح أيٍّ كان لقب قيصر؛ وذكّروه بسيرة غالوس.

قيل بأن الإمبراطورة يوسيبيا وحدها كانت تعارض جميع هذه الأصوات. فلأي الأسباب؟ قال البعض: أنها ببساطة تخشى السفر الطويل إلى مناطق بعيدة إلى هذا الحد، ولو قاد زوجها الحملة بنفسه، لوجدت نفسها مرغمة على مرافقته. وقال آخرون: أنها تتعاطف مع يوليان لأسباب منطقية وعقلانية. قيل أنها كانت تذكِّر زوجها دوماً بضرورة تفضيل القريب على جميع الأشخاص الآخرين، ودعمت ترشيح يوليان بالحجج التالية:

ـ إنه إنسان في ريعان الشباب، بسيط، كرَّس نفسه للعلم وحده حتى الآن، وبعيد تماماً عن القضايا السياسية الكبرى. وبالنسبة لنا يبدو ملائماً أكثر من أي مرشح آخر. فإذا نجح في الحرب ضد الجرمان، سيعترف الجميع بصوت واحد، بأن الفضل في ذلك يعود لك، لأنك قمت بالاختيار الصحيح، وأدرت الحملة بنفسك عن بعد. وإذا هزم وقُتل، ستظل أنت المرتكز، ومنقذ الإمبراطورية. ولن يبقى من ينافسك ويطالب بالعرش. وهذا بدوره ليس عديم الأهمية!

من يدري إن لم تكن هذه الملاحظة الأخيرة قد لعبت الدور الأهم في إقناعه؟

لتكن مشيئة الآلهة

«بعد الوصول إلى ميلانو، أقمت في الضاحية. غالباً ما كانت يوسيبيا ترسل إلي بأحدهم لتؤكد على تعاطفها، وتأمر بأن أكتب بجرأة عن كل شيء يمكن أن أحتاجه. فأعددت رسالة، أو مخطوط توسل بالأحرى، ضمنته الأمنية التالية:

«ليتك تلدين أطفالاً وتنقلين لهم إرثك! وليت الله يمنحك التوفيق في كل شيء! دعيني فقط أُرْسَلُ إلى البيت، وذلك بأسرع ما يمكن!».

«ثم تبادر إلى ذهني، أنه من الخطورة بمكان إرسال رسالة كهذه إلى البلاط، إلى زوجة الإمبراطور. وصلّيت للآلهة، لكي تظهر لي في الحلم وتوحي لي بما يجب أن أفعله. وقد هددتني الآلهة وحذرتني من أنني سأموت موتاً مهيناً إن أنا فعلتُ ذلك. وهي تشهد عليَّ بأنني لا أقول سوى الحقيقة! وهكذا فإن الرسالة لم تصل أبداً إلى يدي يوسيبيا.

«ومنذ تلك الليلة بدأت تراودني بعض الأفكار التي قد تكون جديرة بالاحترام. قلتُ لنفسي:

«يصدف أنني أحاول أحياناً الاعتراض على مشيئة الآلهة، وأثق بأنني أحرص على أموري أكثر منها وهي العارفة بكل شيء. لكن عقل الإنسان يحيط باللحظة الجارية فحسب، ولا يمكنه تلافي التيه في المستقبل الأقرب إلا

بصعوبة بالغة! ولذلك لا يفكر أيّ كان بما يتوجب عليه أن يفعله بعد ثلاثين عاماً، أو بكيفية تغيير ما حدث وأضحى واقعاً؛ فالجانب الأول غير ضروري، والثاني مستحيل. تعالج إذن الأمور الجارية، الواقعة في متناول اليد فقط، تلك التي يمكن مراقبة بداياتها. أما الحكمة الإلهية، فتتبصر المستقبل البعيد، وتشمل رؤيتها كل شيء بلا حدود؛ ولذلك تسدي النصيحة الحسنة، وتختار ما هو نافع. قررت الآلهة ما هو كائن، وكذلك ما سيكون؛ ولذلك فهي تفهم على أفضل وجه متطلبات اللحظة الجارية.

«رسخت هذه التأملات قناعتي بصحة قراري بعدم إرسال الرسالة. ثم نظرت إلى كل شيء من وجهة نظر العدالة الأسمى، وقلت لنفسي:

«ـ يقلقك أن يحرمك أي شيء من ممتلكاتك من خدماته أو يفلت من يديك وأنت تطلبه بغض النظر عمًّا إذا كان جواداً، أو نعجة، أو بقرة. وأنت نفسك، الراغب في أن تكون إنساناً، وليس مجرد فرد عادي من القطيع، وإنما عاقلاً وشريفاً، تريد أن تحرم الآلهة من شخصك ! ترفض أن تستخدمك لأغراضها. وبهذا لا تعبر عن انعدام الرصانة فحسب، وإنما عن احتقار الآلهة أيضاً!

«وشجاعتك، أين هي وكيف تبدو؟ مضحكة بكل بساطة. فخوفاً من الموت تبدو على استعداد لأن تهان وتتملق! على الرغم من أنك قادر على ألا تبالي بكل هذا، وأن تسمح للآلهة بتسيير أمورك وفق مشيئتها؛ دون الحاجة لأكثر من أن تشاركها في الحرص على شخصك. وهذا بالضبط ما طالب به سقراط وهو يقول : يتوجب على الإنسان أن يقوم بكل ما في وسعه، أما العناية بمجمل القضية، فيجب تركها للآلهة؛ فبدون أن تملك شيئاً، وبدون أن تحاول امتلاك شيء، يجب أن تتقبل بهدوء ما تقدمه لك».

وداع اللحية

«تراجعتُ، قمتُ بتبديل ملابسي، ومحيطي، ونشاطي، ومسكني، ونمط حياتي. فبدلاً من البساطة والفقر السابقين، وجدتُ نفسي محاطاً بالثراء والجاه. أثارت غرابة كل هذا الشيء هزَّة عنيفة في نفسي. ليس لأن عظمة السعادة الحالية صعقتني، وإنما العكس تماماً: بما أنني لم أكن متفهماً لتلك الأشياء، ولم أجد فيها ما يستحق الإجلال، خال لي أن الأساس هي السلطة بالذات، النافعة لمن يستخدمها بذكاء، والضارة بغير الكفوئين؛ لأنها في هذه الحالة تعود بالتعاسة على الأسر بشكل منفصل وعلى المدن برمتها».

رفضتُ بحزم أية ألفة أو علاقة حميمة مع رجال البلاط. أما هم فقد تجمعوا معاً وكأنه صالون حلاقة. حلقوا لحيتي، وألبسوني معطفاً عسكرياً. جعلوا مني آنذاك كما تصوروا شيئاً ما على شاكلة المحارب المضحك. لم تعجبني إطلاقاً أناقة أولئك الناس المبتذلين. عجزتُ عن السير مثلهم والتطلع حولي بنظرات متغطرســة؛ نظرتُ باتضاعٍ إلى الأرض دوماً، كما علمني معلمي في حينه. فكنت آنذاك موضع سخريتهم، وموضع شبهات بعد فترة وجيزة، ومحط غيرة وحسد في نهاية المطاف. لا يسعني في هذا المكان سوى الاعتراف بأنني قدمت تنازلات كبيرة : فقد وافقت على العيش تحت سقف واحد مع أناس عرفت عنهم أنهم كانوا لعنة على أسرتي بأكملها، وتوقعت منهم أن يمارسوا نشاطهم ضدي عمَّا قريب.

لمّا ترسخت قناعة الإمبراطور بشخصيتي، بلغت بهجة يوسيبيا قصوى حدودها. طلبت إلي عن طريق بعض الخصيان من محيطها أن أتفاءل وألا أرفض خوفاً من صعوبة المهمة ما سيعرضه علي الحاكم؛ وألا أرفض بازدراء، وألا أسمح لنفسي بالتفوه بكلمات فظة ومبالغ بصراحتها إلحاح الرجل الذي يفعل الكثير من الخير لأجلي. تقيدتُ بإرشاداتها وأطعتها. وعلى أي حال كان من الصعوبة بمكان أن أقاوم، وكنت أدرك هذا الشيء جيداً.

فإذا كان بوسع أحدهم أن يملي إرادته بالقوة يكون طلبه كافياً للإقناع.

الموت الأرجواني

تمت المراسم في اليوم السادس من تشرين الثاني لعام ٣٥٥. وقف جنود كافة الوحدات المعسكرة في ميلانو بكامل عدتهم في الساحة أمام المنصة التي تحلق حولها حملة الرايات والنسور والأعلام. صعد إلى المنصة كل من قسطنطينوس ويوليان. أمسك الإمبراطور بيد الرجل الشاب اليمنى وخاطب الجنود:

ـ وقفنا هنا أمامكم يا أشجع المدافعين عن دولتنا، من أجل خير القضية المشتركة، التي يجب علينا جميعاً أن نحارب في سبيلها بقلب واحد. سأعرض القضية باختصار، لأنكم ستكونون قضاة متعاطفين.

يد الموت طالت الطغاة المتمردين. دفعهم الجنون والسعار إلى ما تجرأوا على القيام به. ولكن، ها هم البرابرة اجتازوا حدود السلام وهم يعربدون في أرجاء غالة، وكأنهم يريدون تقديم أضحية من الدم الروماني لآلهتهم الوهمية! وما يزيدهم جرأة، قناعتهم أن حكم الضرورة يستوقفنا في بلادٍ بعيدة. فإذا تصدينا قبل فوات الأوان لهذه الكارثة التي يتسع انتشارها بقرارنا المشترك، سنتمكن من خلع رقاب الشعوب المتغطرسة، والحفاظ على رسوخ حدود الإمبراطورية. ولكن يجب أن تعتمدوا هذا الأمل في المستقبل الأفضل الذي أحمله في قلبي! هذا يوليان، ابن عمي. هو معروف جيداً بتواضعه، وتواضعه

هذا يجعله عزيزاً على قلبي مثلما تفعل القــرابة التي تربطنا. لقد تميز هذا الشاب بمواهبه، وهو من أرغب أن أمنحه لقب قيصر. وعلى موافقتكم يعتمد تحقيق هذه النية إذا ما بدت نافعة في نظركم!

أراد إضافة شيء آخر، لكن صيحات المجتمعين المعدة سلفاً بدأت تقاطعه:

ـ هذه فكرة إله، وليس إنسان..

وقف الإمبراطور لحظة على المنصة دون حراك حتى تهدأ الصيحات. ثم قال بصوت نمَّت نبرته عن ثقة أكبر:

ـ بما أن الصيحات الودِّية تؤكد أنكم متعاطفون مع الفكرة، فلينل هذا الشاب المفعم بالقوة الرصينة هذا الشرف. أخلاقه يجب أن يُحتذى بها أكثر من أن يثنى عليها. لقد أبرزت ذلك مواهبه غير العادية المصقولة بالمعرفة، ولها يعود الفضل في اختياري له. وهكذا، وبموافقة الإله السماوي، ألبسه الثوب الإمبراطوري!

ألقى بالمعطف الأرجواني على كتفي يوليان وهو يتفوَّه بهذه الكلمات. أعلن أنه يمنحه لقب قيصر، واستقبل الجيش هذا الشيء بصيحة الفرح. ثم خاطب شريكه الجديد في الحكم، الواقف إلى جانبه بملامح وجهه الجادَّة، التي كادت أن تكون حزينة:

ـ أخي الحبيب! ها قد حصلت وأنت في ريعان الشباب على رموز السلطة التي هي حق لك بحكم ولادتك. أعترف أن شأني أيضاً يعلو بفضل ذلك. فسموِّي يتجلى ربما بمنحي سلطة تكاد أن تكون متماثلة لنبالة تربطني بها أواصر القرابة، وأكثر من تجليه من خلال السلطة ذاتها. فكن منذ الآن شريكاً في أعمالي ومخاطري! أشمل برعايتك بلدان غالة. أعن بكل الســبل، وأنعم بكل الخيرات على البلدان المدمرة. وإذا دعت الضرورة للصدام مع الأعداء، فثبت أقدامك وسط حاملي راياتك. وفي اللحظة الملائمة، شجّع على العمل الجسور. حمّس المقاتلين وأنت تتقدمهم بتعقل، مدَّ المنسحبين

بالتعزيزات. ووبخ المترددين بأناة. كن شاهداً موثوقاً، أي دائم الحضور، على الأعمال الشجاعة والجبانة معاً. اذهب إلى حيث تناديك الحالات الخطرة، كرجل شجاع يقود رجالاً شجعاناً. سنكون قريبين من بعضنا برباط تعلقنا الراسخ ببعضنا. سنحارب معاً. معاً سننشر السلام في العالم ـ شريطة أن يرضى الله بما نطلبه ! ـ بإخلاص واعتدال. ستكون حاضراً دوماً إلى جانبي، ولن أفارقك أنا بدوري أبداً، مهما كانت تقلبات الدهر. اذهب إذن، أسرع! ترافقك تمنيات الجميع القلبية. ستدافع عن خفارتك بيقظة لا تخمد، وكأن الدولة نفسها أوكلتها إليك!

انطلقت صيحات الحشود، ولكن في الحال أخمدتها دندنة معدنية؛ كان الجنود يضربون التروس بركبهم بانسجام تام، معبرين بذلك عن فرحهم وموافقتهم؛ أما ضرب التروس بالرماح فكان يعني الألم والغضب.

يقول أميان مارسيلينوس الذي شهد الاحتفال:

تعلقت أنظار الجميع بالشاب الذي ارتدى الأرجوان الإمبراطوري. بدت عيناه ممتلئة سحراً، وفي الآن ذاته كان فيهما شيء ما يثير الخوف. فالوجه اللطيف أضحى ودوداً أكثر بفعل الاهتياج. وكان بود كل واحد من الناظرين الولــوج إلى أعماق روحه ليجيب على التساؤل الذي راود أذهانهم:

ـ أيُّ حاكم سيكون؟

غادرا المنصة. لقي يوليان تكريماً جديداً : تكرَّم الإمبراطور بدعوته للجلوس في مركبته. توجه الموكب إلى القصر. ولمَّا اجتازوا البوابة همس القيصر الشاب بصوت خفيض، مردداً أبياتاً من إلياذة هوميروس، تمجد موت أحد الأبطال:

«اختطفه الموت الأرجواني والقدر العظيم».

الكتـــب

«وهكذا مُنحْتُ على عجل اسم ومعطف القيصر. بدأت مرحلة العبودية. وفي كل يوم تعلَّق فوق رأسي الخوف على الحياة، خوف رهيب وخانق. بوابات مغلقة بإحكام. حراسات مشددة. تفتيش دقيق لرجالي خشية أن يقوموا بنقل رســائل ما من الأصدقاء. عناصر الخدمة غرباء. واجهت الكثير من الصعوبات في إدخال أربعة من خدمي إلى القصر، لأجد إلى جانبي أناساً اعتدتُ التعامل معهم. كان اثنان منهما لا يزالان فتياناً صغاراً، واثنان يكبرانهما سناً. كان أحدهم يعرف أنني من معتنقي ديانات الآلهة القديمة، وقام سراً بمساعدتي على أفضل وجه ممكن. ائتمنت أحد الأطباء على كتبي؛ وكان هذا الرجل الوحيد بين العدد الكبير من رفاقي وأصدقائي المخلصين الذي وجدته إلى جانبي الآن، سُمِحَ له بالبقاء وهم يجهلون أنه مخلص لي حقاً. تفاقم خوفي وحساسيتي إلى حد دفعني ـــ على الرغم من أنني فعلت هذا رغماً عني ـــ لرفض مقابلة أيٍّ من أصدقائي ممن أبدوا رغبة في زيارتي؛ لأنني كنت أخشى أن يصبح الحديث بيننا مصدر مصيبة بالنسبة لي، أو للضيف».

«لم يكن معي سوى عدد محدود من الكتب، لأنني لدى مغادرة أثينا، اعتقدت بأنني لن أتأخر في العودة. وقد عرضت عليَّ يوسيبيا عدداً كبيراً من الأعمال ذات المواضيع المختلفة. كانت هذه مخطوطات فلسفية، وكذلك أعمال مختلف الكتاب، والخطباء، والشعراء. وبهذا الأسلوب لبَّت الإمبراطورة

رغباتي كاملة، على الرغم من أنني لست راضياً بعد عن نوعية الحياة الثقافية. بفضل كتبها أصبحت غالة بالنسبة لي محراباً لآلهات الفنون الهلنستية. وكلما سنحت الفرصة لألتقط أنفاسي، جلست إلى تلك الكنوز وأنا أذكر دوماً بامتنان السـيدة التي أنعمت عليَّ بها. وعلى أيٍّ حال، حتى أثناء الحملات الحربية، يرافقني أحد هذه الأعمال التي وضعها شاهد عيان على الأحداث القديمة».

لكن كل هذه الأمور ثانوية. أما الشيء الأهم، فهو:

«خلال الشتاء، أرسلني قسطنطينوس على رأس ثلاثمئة جندي إلى بلاد الغال، التي هزَّتها آنذاك أحداث رهيبة. لم يكن لي أن أتولى قيادة الجيوش المرابطة هناك، بقدر ما أن أخضع لأوامر الضباط هناك. كتب الإمبراطور مسبقاً إلى أولئك القادة بوضوح وأمرهم بألا يقتصر اهتمامهم على نشاط العدو، وإنما عليهم أن يراقبوا نشاطي أيضاً لئلا أتحول إلى متمرد».

هذا من سيجدد معابد الآلهة

بعد مرور بضعة أيام على الاحتفال الرسمي الذي تم خلاله تعيين قيصر جديد، أقيم احتفال آخر ذو طابع عائلي، لكنه ذو أهمية على الصعيد السياسي أيضاً. تزوج يوليان الأميرة هيلانة، شقيقة قسطنطينوس. تكاد هذه الشخصية أن تكون مجهولة تماماً؛ ويلتزم يوليان نفسه الصمت المطلق إزاء الزوجة التي فرضت عليه، ورفيقة حياته خلال بضع سنوات.

غادر يوليان ميلانو في اليوم الأول من كانون الأول متجهاً نحو الغرب سالكاً الطريق المارة عبر السهول الواقعة على ضفاف الباد. ودَّع قسطنطينوس شريكه في الحكم وصهره المسرع إلى غالة؛ لكنه لم يكلف نفسه عناء مرافقته لمسافة طويلة، ودَّعه قرب محطة بريد «العمودين» خلف نهر تيسينوس مباشرة. ترك الشاب العديم الخبرة تماماً في أمور الحرب، المنتزع عنوة من وســط الدراسة والكتب، برفقة فصيل صغير من الجنود لا يتجاوز عددهم الثلاثمئة، وغير مسلحين على نحو ملائم. أكد الإمبراطور بطبيعة الحال على أن الفصيل ليس سوى مرافقة للطريق، وفي غالة تنتظر جميع الجيوش المتمركزة هناك أوامر قيصرهن. لكنه نسي أن يضيف بأنها جيوش منحلة، لا تعرف سوى الهزائم منذ أعوام، ولا تصلح للأعمال الهجومية، وهي جبانة تحتمي خلف أسوار المدن.

توجه يوليان من محطة «العمودين» إلى مدينة أوغوستا تاورينوروم مباشرة؛ وهي تورين الحالية، الواقعة قرب سفوح الألب. وهناك بالذات تم إعلامه بالحدث الهام؛ الذي كان معروفاً في البلاط منذ بضعة أيام، وأحيط بالسرية التامة عمداً، لكي لا يرتعب يوليان وجنوده. سقطت مدينة كولونيا! احتلت جحافل البرابرة هذه المدينة العظيمة الواقعة على ضفاف الراين بعد حصار استمر شهرين. لم يكن النبأ سيئاً فحسب؛ جاء في بداية الطريق، في لحظة شديدة الحساسية، وأمكن له أن يؤول كفأل سيء ينذر بالفشل والكارثة للحملة. كاد يوليان أن ينهار، وهو على قدر كبير من الاكتئاب قبل سماع النبأ. سمعه الناس المحيطون به وهو يشكو ويتذمر هامساً بصوت باك ـــ كانت لديه عادة التكلم مع نفسه، وهذه سمة مميزة للعديد من المصابين بالنهك العصبي:

ـــ يا للنجاح الذي حققته! سأموت وأنا منهك!

وفي مقابل ذلك جاءت ظاهرة أخرى لتشير إلى رضى الآلهة وتعاطفها. إذ كان الجميع يخشى الصقيع والثلوج في الجبال، وعلى الرغم من ذلك، وخلال فترة اجتياز ممرات الألب، صحا الجو وصار لطيفاً ومشمساً وكأنه ربيعي. وفيما بعد، وقع أيضاً في غالة، في إحدى مدنها الصغيرة، حدثاً بسيطاً إلا أنه بعث البهجة في النفوس:

اذ كي يكون استقبال الحاكم بالشكل اللائق، علَّق سكان المدينة على الحبال عبر الشارع أكاليل من الزهور والأغصان. سقط أحد الأكاليل صدفة وتلبس رأس القيصر مباشرة وبدا مثل تاج! فتعالت على الفور الصيحات البهيجة، المرحبة بالظافر المقبل.

كانت فين على ضفاف الرودان أولى كبرى مدن غالة التي دخلها يوليان. استقبله السكان بفرح حقيقي. تجمهر المسؤولون والموظفون، وسكان المدينة، وجموع السكان من المناطق المحيطة بها. وبمجرد رؤية الموكب من بعيد، تعالت الصيحات الصاخبة. لم يكن هذا تظاهراً بالفرح. فهم، كادوا ألا يعرفوا

بشيئ عن يوليان، لكنهم توقعوا فتح أبواب الفرج وإنقاذ البلاد المعذبة، ما دام الإمبراطور قد أرسل أقرب أقربائه.

سألت عجوز ضريرة وهي تســمع الصيحات : من هذا الذي يدخل المدينة؟ ولمّا أوضحوا لها بأنه القيصر يوليان، أجابت على الفور، وكأنه بفعل الإلهام:

ــ هذا مَنْ سيجدد معابد الآلهة!

الفهــرس

الموت الأرجواني
والقدر العظيم

((أموت مسموماً من قبل اخوتي. ولذلك أختاركم أنتم وحدكم يا أبنائي ورثة للعرش. كما أتوسل إليكم وآمركم بأن تنتقموا باشكل اللائق لقتلي بهذه الطريقة الخسيسة!))

تلك هي وصية قسطنطين، أعظم امبراطور روماني. وظلت يده على الرغم من موته مطبقة عليها حتى وصل ابنه قسطنطينوس على عجل من سورية.

فما الذي جرى وإلى أي حد ضربت رياح الرعب الامبراطورية أقصاها إلى اقصها ؟




دار الحصاد
سورية - دمشق - ص.ب: ٤٤٩٠
هـ: ٢١٣٤٦٩٢ / فا: ٢١٢٦٣٢٦



سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٩
هـ: ٢١٣٤٦٩٢ / فا: ٢١٢٦٣٢٦